اصدارات
المكتبة
الوطنية

النصوص والدراسات التاريخيه -3-

كتاب سير الائمة واخبارهم

تأليف

لأبي زكرياء يحيي بن ابي بكر

تحقيق وتعليق اسماعيل العربي



139

المكتبة الوطنية الجزائر

1399 - 1979

ملك جمعية
أبي إسحاق إبراهيم اطفيش
لخدمة التراث

إصدارات المكتبة الوطنية
النصوص والدراسات التاريخيه -3-

كتاب سير الائمة واخبارهم
المعروف بتاريخ ابي زكرياء

تأليف
لأبي زكرياء يحيي بن ابي بكر
(ت ٤٧١ هـ)

تحقيق وتعليق اسماعيل العربي

المكتبة الوطنية الجزائر
1399 - 1979

حقوق التأليف للمكتبة الوطنية الجزائرية – الجزائر
1399 – 1979

المقدمة

طريق الاباضية الى المغرب

ترجع قصة الخوارج الى اخطر شقاق ظهر في الاسلام في خلافة علي ابن بي طالب (ض). عقب معركة صفين، حين فارقه الخوارج الذين استنكروا قبوله لمبدأ التحكيم مع معاوية.

وبعد فشل هذا التحكيم نتيجة لمناورة عمرو بن العاص لحساب معاوية، واستئناف القتال، ابدى علي كثيرا من الحلم وسعة الصدر والميل الى المهادنة مع العناصر الثائرة التي كانت تمثل سندا قويا لقضيته، ولكن بدون جدوى، حيث ان الحركة قد اتخذت موقف العداء السافر تجاه الحزبين معا. وكذلك اعلن الخوارج مبادىء حزب جديد واتخذوا لانفسهم زعيما وقائدا هو عبد الله بن وهب الراسبي (1). (ومن اسمه اخذت الطائفة نسبة الوهبية) ونادوا بشعارهم المشهور: «لا حكم الا لله» الذي رد عليه الامام علي بقوله: «كلمة حق اريد به باطل!»، ثم انسحبوا الى قرية «حدورة» التي تقع غير بعيد من الكوفة (ومنها اخذ الخوارج الاوائل اسم الحدورية).

ومع مرور الايام كثرت جموع الخوارج واشتدت شوكتهم بالتحاق كثير من اتباع علي ممن اغراهم مبدأ المساواة الذي اعلنوه بجيش عبد الله بن وهب الذي احتل موقعا استراتيجيا مهما على الضفة اليسرى لنهر دجلة، على طول ترعة نهروان(2).

ونتيجة لشعورهم بالقوة، اخذت حركة الخوارج تزداد تطرفا وتعصبا وتصم بالكفر والردة كل من لا يرى رأيها ولا يتبرؤ من علي وعثمان، وكذلك اتخذت اعمالها طابعا استفزازيا، بل وارهابيا، ولم تتورع بعض العناصر منها على قتل الصحابة الابرياء والنساء (عبدالله بن خباب وزوجته) بدون سبب سوى رفضهم تكفير علي بن ابي طالب.

فلما بلغت هذه الاحداث عليا بعث اليهم قائلا: «ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم اقتلهم بهم، ثم انا تارككم وكاف عليكم» (3).

ولكن الخوارج ردوا عليه قائلين انهم متضامنون في الافعال التي يرتكبونها: «كلنا قتلهم، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم» (4).

وقد حاول عدد من الشخصيات ممن كانوا يحرصون على حقن دماء المسلمين، وفي مقدمتهم قيس بن سعد (5) وابو ايوب الانصاري (6) القيام بمساعي للصلح ولرأب الصدع، وناشدوا الخوارج العودة الى صفوف علي لمواجهة العدو المشترك في الشام، ولكن هذه الجهود باءت بالفشل.

وفي نفس الوقت، كان علي بن ابي طالب يواجه ضغوطا قوية في صفوفه حيث ارتفعت اصوات قوية من انصاره تطالبه بالعمل لتأمين مؤخرة جيشه، ولتصفية الموقف بينه وبين الخوارج، قبل ان يقدم على مواجهة جيوش الشام.

وكذلك اضطر الخليفة الى ان يتخذ عدته للقضاء على الخطر المستشرى، فأعطى ابا ايوب الانصاري راية الامان، فنادى الخوارج قائلا ان من جاء تحت هذه الراية فهو آمن، ومن لم يقتل منكم وانصرف الى الكوفة، او المدائن ، فهو آمن.

وعقب ذلك زحف علي بن ابي طالب على الخوارج (9 صفر 38 هـ) فيما اصبح يعرف بعد ذلك بموقعة النهروان التي قتل، من بين من قتل، فيها عبد الله بن وهب الراسبي (7) والتي احرز فيها الخليفة الرابع نصرا مبينا ولكنه كلفه كثيرا من التضحيات، فضلا عن انه لم يقض نهائيا على حركة الخوارج.

وهذه الحركة لم تلبث ان ظهرت من جديد على مسرح الاحداث في سلسلة من الفتن المحلية (في سنة 39 و40هـ) قبل ان يتوج نشاطها عبد الرحمن ابن ملجم باغتيال علي بن ابي طالب (8).

وفي العصر التالي، واجهت الدولة الاموية ثورات هنا وهنالك قام بها الخوارج، ولا سيما في الكوفة والبصرة.

وفي غضون العشرين سنة التالية، زاد من حدة شوكة «الشراة» (كما يسمى الخوارج ايضا)، بازدياد عدد كبار رجالهم الذين سقطوا في الميدان ويعتبرونهم شهداء.

واهم هذه الثورات، بدون شك، هي ثورة مرداس بن ابي حدير، التميمي، ابي بلال (9) التي لم يتمكن جيش عباد بن علقمة المازني من قمعها الا بالغدر، حيث احاط بأبي بلال واصحابه، وهم في الصلاة، وقتلهم عن آخرهم، وهو حدث سيترك جرحا في نفوس اصحاب المذهب لا يندمل مع مرور القرون.

وقد زادت شوكة الخوارج حدة وقويت جموعهم واتسعت حركتهم، خصوصا، اثناء الاضطرابات التي اعقبت وفاة يزيد بن معاوية. فكانت هذه القوة الثالثة، الى جانب ضغط جيوش الامويين بقيادة الحجاج الثقفي، من العوامل التي عجلت بنهاية خلافة عبد الله بن الزبير التي دامت تسع سنين (64 ـ 73) (11). فقد كانت عداوة «الشراة» لهذا الخليفة الشجاع لا تقل حدة عن شعور العداء الذي يحملونه لبني امية الذين نجحوا في ابقائهم بعيدا عن معاقلهم في الشام.

وفي هذه الاثناء، تفتت حركة الخوارج الى عدة فرق. يقول المؤرخون انها تجاوزت عشرين فرقة لا تجمع بينهم سوى نظريتين: نظرية الخلافة التي لم يعودوا يشترطون ان تكون من قريش، ونظرية اعتبار العمل جزء من الايمان (12).

وقد اشتهر من هذه الفرق، خصوصا، الازارقة (اتباع نافع بن الازرق) والصفرية الذين لا يختلفون كثيرا عن الازارقة، من حيث انهم جميعا يكفرون المسلمين ما عداهم. والاباضية (نسبة الى عبد الله بن اباض، زعيم الطائفة (13) الذين تتكون منهم الاغلبية الساحقة من الخوارج في المغرب.

والاباضية طائفة تمتاز بالاعتدال في نظرتها الى مخالفيها، حيث انهم لا يحكمون بتكفيرهم، بل انهم يعتبرون التزاوج والميراث مع غيرهم من المسلمين حلالا. وهم لا يستبيحون قتل غير الخوارج من المسلمين الا في حالة اعلان الحرب (عكس الازلرقة).

خرج عبد الله بن اباض المري التميمي عن المتطرفين من الخوارج باتخاذه موقفا يختلف عن موقفهم تجاه اهل التوحيد (14).

وبعد مقتل ابي بلال الذي قاد ثورة سنة 61هـ.، وقتل فيها، تسلم زمام رئاسة الطائفة عبد الله بن اباض الذي وصفه الشماخي بانه «امام اهل التحقيق والعمدة». (15) وقد كان عبد الله يتسم بحصافة وبعد نظر سياسي سيضمن لطائفته فترة من السلام والاستقرار هي في اشد الحاجة اليها.

فان الرجل لم يقف عند حد تناسي الماضي الدامي وعداء الخوارج المستحكم للامويين، بل ان علاقة متينة قامت بينه وبين عبد الملك بن مروان (26 ـ 86هـ) سمحت له بان يقوم بدور المستشار لهذا الخليفة (16).

وسواء اكان هذا التقارب قد وقع بوحي من اكبر تلامذة عبد الله وانجبهم جابر بن زيد (17) ام ان عبد الله بن اباض هو صاحب هذه الخطة السياسية ، فان من المؤكد ان هذا الموقف لا يمكن ان يوصف بالتقية التي وصفه بها موقف ابي نوح سعيد بن زنغيل وابي القاسم يزيد بن مخلد من

المعز لدين الله الفاطمي ، بعد ذلك بنحو قرنين . وهذا الموقف يمثل انقلابا في علاقات الخوارج بواحد من الحزبين الذين قاوموهما طويلا ، وتلك العلاقات السلمية ستستمر حتى اواخر القرن الاول للهجرة .

وبعد عبدالله بن اباض، حمل لواء الدعوة في البصرة ابو الاشعث، جابر بن زيد الازدي (18).

وجابر بن زيد الذي ينتمي الى مدينة نزوة، والذي ولد في سنة 18 للهجرة، يعتبر، بشهادة ابي زكرياء نفسه من اكبر علماء المذهب. ومن يدري، فلو وصل الينا ديوانه المشهور (مجموعة اعماله) والذي يحدثنا عنه ابو زكرياء باستفاضة، لكان من المحتمل ان نستخلص منه علما غزيرا عن عقيدة المذهب ورجاله، ولكان اسم هذا الامام اكثر شعبية مما هو الآن. ولكن هذا الديوان الذي يقع في حجم كبير يعتبر الان مفقودا.

وقصارى القول ان جابر بن زيد الذي يصفه الدرجيني بـ«بحر العلوم العجاج، وسراج التقوى، اصل المذهب» (19) هو الذي اقام دعائم المذهب الاباضي نهائيا على الاسس التي وضعها شيخه، عبد الله بن اباض.

وانطلاقا من القاعدة السياسية التي ارساها سلفه، فقد سار جابر في السنوات الاولى من زعامته على سياسة ودية تجاه الامويين، وارتبط بعلاقات وثيقة مع الحجاج بن يوسف الثقفي (40 ـ 95 هـ). بحيث عرض عليه عامل بني امية على العراق القضاء (20). وقد كانت الواسطة بينهما، هو يزيد بن ابي مسلم الثقفي (21).

صحيح ان هذه الصداقة السياسية يمكن ان تفسر بانها مهادنة من الحجاج الذي لم يشتهر باللين ولا بالمسالمة، حيث انه كان في تلك الفترة منهمكا في قتال الطوائف المتطرفة من الخوارج، ولم يكن من حسن السياسة ان يدفع بالاباضيين المعتدلين في احضان اعدائه، ولكنه يجب الا ننسى ان الحجاج كان عامل عبد الملك بن مروان الذي رأينا عطفه على الاباضيين وتقريبه لامامهم.

وأيا ما كان الامر، فان هذه العلاقات التي استمرت حتى بعد بناء مدينة واسط (83 ـ 86 هـ)، اخذت تسوء تدريجيا في اواخر القرن.

وسبب تدهور العلاقات بين الحجاج وجابر بن زيد، يعزي، في المكان الاول، الى وفاة عبد الملك بن مروان (سنة 86هـ). ولكن مما لا شك فيه ايضا، ان التقارب الذي وقع بين الاباضيين في البصرة واسرة يزيد ابن المهلب (2) الذي كانت نصيحة الحجاج للخليفة عبد الملك بن مروان السبب في عزله من منصب الوالي على خراسان ، كان عاملا اخر في تحول الحجاج عن الاباضيين.

وهذا التقارب ندرك عمقه اذا عرفنا ان عاتكة، شقيقة يزيد بن المهلب،

كانت من المناضلين في صفوف الاباضيين، ومن الدعاة المتحمسين لعقيدتهم (23).

وبعد ما تمت القطيعة، اخذ الحجاج يقوم بحمله اضطهاد ضد الاباضيين كان من نتائجها تشتيت رجال المذهب، كما ابعد هو نفسه كثيرا من علمائهم عن العراق. ومن بينهم جابر ابن زيد، وساروا الى عمان وغيرها من المناطق.

كان من اعلم تلامذة جابر بن زيد (الذي توفي في سنة 93هـ). واشدهم تفانيا في الدفاع عن الدعوة، رجل اسمه مسلم بن ابي كريمة التميمي، ابو عبيدة.

ويبدو ان ابا عبيدة ينحدر من اصل فارسي (فيما يقول صاحب الاغاني)، مثل تلميذه، عبد الرحمن بن رستم، وان انتماءه الى قبيلة تميم انما كان بالولاء. على ان الاصل الفارسي او البربري، لا يؤخذ في الاعتبار عند الخوارج لدى النظر في اختيار الامام (وابو زكرياء يعقد فصلا خاصا في سيره لذكر فضائل البربر والعجم). ولذلك، فان اصل ابي عبيدة لم يقم حائلا دون اختياره خليفة لجابر بن زيد، على رأس الامة الاباضية.

والشيء الذي يتميز به ابو عبيدة عن شيخه وسلفه ، هو انه تعرض لاضطهاد الامويين وعرف سجون الحجاج ابن يوسف وما تنطوي عليه من الوان التعذيب.

وفي معرض الحديث عن تجربة ابي عبيدة مع الحجاج ابن يوسف، يقول الشماخي:

«لما سجن الحجاج ابا عبيدة وضماما، منع ان يوصل اليهما شيء، وكانا يقصان شاربهما بأسنانهما، وكان احدهما ينفض لحيته فيتساقط منها القمل. وكان طعام اهل السجن خبز الشعير وملح الجريش، ويعمد الى مراكن عظام فيسكب فيها الماءويطرح فيها الملح، ثم يضربونه حتى تخرج رغوته، فمن شرب اولا، كان امثل قليلا ومن شرب اخيرا، كان (ذلك) العذاب» (24).

كان مركز الامامة الاباضية في البصرة، وهناك انشأ ابو عبيدة معهدا للدراسات الاباضية، كان هو نفسه يشرف عليه ويعلم الطلبة ويدربهم على القيام بنشر الدعوة ثم يبعث بما يسمى «حملة العلم» الى مختلف البلدان. وكانت التعليمات التي يزود بها هؤلاء تقضي بان يقوموا بعمل سياسي وبنشر الدعوة في السر حتى يخلقوا الظروف الملائمة ويجتمع لديهم عدد كاف من الانصار والمؤيدين، ثم يعلنوا «حالة الظهور».

وفي هذا السياق، يجب ان نعرف ان الاباضية في هذه المرحلة قد

وجدت تربة خصبة في بعض اطراف الجزيرة العربية، وخصوصا، في عمان وفارس وزنجبار وافريقية الشرقية، وفي المغرب (25).

وهذه الاقليات الدينية هي التي عمل ابو عبيدة على تغذيتها بالعلم وتزويدها بوسائل التوغل الايدولوجي ولشحذ همم ابنائها لتوسيع دائرة اشعاع المذهب.

وكذلك وجه ابو عبيدة بعثات الى اليمن وحضر موت وعمان وخراسان، والى المغرب ايضا. وقد كانت بعثة المغرب تتألف من ابي الخطاب المعافري، وعبد الرحمن بن رستم، وعاصم السدراتي، واسماعيل بن درار الغوامسي، وابي داود القبلي النفزاوي (26).

وهذه العمليات التي نالت نجاحا باهرا بسبب ما كانت تتمتع به من التنظيم، ولكن ايضا، لان نشاط «حملة العلم»، صادف انهيار سلطة الدولة الاموية في مختلف اطراف الخلافة (27).

ولما قامت الدولة العباسية، استمر الاباضيون على نشاطهم الذي وجد تشجيعا، بل ورعاية، من بعض الشخصيات البارزة في الدولة الجديدة، وفي مقدمتهم عمة الخليفة، المهدي، وزوجها، عبد الله بن الربيع الذي اعتنق المذهب الاباضي (28)، بل ان الخليفة ابا جعفر نفسه كان يبدي ميلا الى الطائفة الاباضية.

ولكنه بعد وفاة ابي عبيدة في سنة (145هـ). (29) دخل نشاط المذهب الاباضي في مرحلة من الركود النسبي، ولو ان وجود الطائفة استمر تحت امامة الربيع بن حبيب البصري ، الذي خلف ابا عبيدة. بل ان هذا الامام حاول احياء التقليد الذي سنه ابو عبيدة بارسال بعثات من حملة العلم الى الاقطار.

على ان علماء المذهب لم يلبثوا ان اخذو في الهجرة جماعات الى من البصرة الى عمان، ولو ان وجود الطائفة استمر في الكوفة، فيما يبدو، طوال القرن الثاني الهجري (30). وكذلك تحول مركز الثقل في الاباضية الآن الى عمان، بفضل الاثر الذي تركه هناك جابر بن زيد وغيره من زعماء المذهب الذين لحقوا به. ومن عمان، انطلق اشعاع المذهب في اتجاه الهند والصين، وخصوصا الى شواطىء افريقية الشرقية المجاورة، كما اصبحت مصر مركزا للدراسات الاباضية لا يقل عن اهمية البصر سابقا.

ولكن الدور الذي سيلعبه رجال المذهب في المغرب سيكون حاسما في المراحل الاولى من تاريخ الاسلام في هذه البلاد.

فاول من حمل الدعوة الى المغرب، كما ذكر ابو زكرياء، هو سلامة بن سعد وعكرمة بن سعد (الذي يعزى اليه نشر مذهب الصفرية) في اوائل القرن الثاني الهجري.

ويبدو ان نشاط سلامة وجد ارضا بكرا، فنالت دعوته نجاحا ملحوظا، حيث انه لم يكد يمضي على دخوله الى المغرب عشرون سنة حتى تكونت جماعة معتبرة من الاباضيين في طرابلس يتزعمها رجل يدعى عبد الله بن مسعود التجيبي الذي كانت تسانده قبيلة هوارة. ولكن هذا الزعيم لم يلبث ان قتله عامل طرابلس (31).

وبعده، تحولت زعامة المذهب الى عبد الجبار بن قيس المرادي، ومعه الحارث بن تليد الحضرمي.

وتحت رئاسة هذين الزعيمين اللذين كانا يتمتعان ايضا بتأييد هواره، اصبحت طرابلس قاعدة للمذهب. على ان خلافا ظهر بينهما فاقتتلا وقتل كل منهما الاخر في سنة 131هـ.

وعقب ذلك، انتخب اتباع المذهب رئيسا عليهم اسماعيل بن زياد النفوسي الذي «عظم شأنه وكثر بيعه»، فيما يقول ابن عبد الحكم (32) وخلعوا عليه لقب «امام الدفاع».

وكذلك نال المذهب تأييد زناته في مرحلة لاحقة في المناطق الغربية لطرابلس في جبل نفوسة.

وفي سنة 132، استولى اسماعيل النفوسي على مدينة قابس، ولكنه قتل على مقربة من هذه المدينة في معركة خاضها مع جيش عباسي بقيادة عبد الرحمن بن حبيب، عامل القيروان (32).

وبمقتل اسماعيل النفوسي، انهارت الدولة الاباضية الاولى في طرابلس، وذلك على الرغم من بقاء بعض العلماء في طرابلس ومن تمسك سكان المنطقة بالمذهب.

وعقب هذه المرحلة، عادت الى المغرب بعثة «حملة العلم» التي من بينها عبد الرحمن بن رستم وعبد العلا ابن السمح المعافري. وابو الخطاب الذي عينه ابو عبيدة رئيسا، بعدما تلقت التعليم والتدريب على هذا الامام.

وبعد وقت قصير، تمكن ابو الخطاب من الاستيلاء على مدينة طرابلس وولايتها، ثم اتجهت الجيوش الاباضية الى مدينة القيروان، حاضرة افريقية، التي كانت تحتلها ورفجومة (في صفر 141هـ) واستولت عليها.

وبذلك اصبحت الدولة الاباضية قوية وتمتد حدودها من برقة، مرورا بطرابلس ونفوسه، حتى حدود الجزائر الشرقية، بما في ذلك مناطق قسنطينة واراضي كتامه من سطيف.

على ان دولة ابي الخطاب لم تعمر طويلا، حيث قضى عليها جيش عباسي جمع الى القوة دقة التنظيم وبراعة التخطيط بقيادة محمد بن الاشعث الخزاعي، والي مصر، عقب معركة حاسمة وقعت في شرق طرابلس،

فقد فيها ابو الخطاب عدة آلاف من جيشه وقتل هو نفسه فيها (33) .

وعقب هذه الهزيمة التي ضمنت للعباسيين السيطرة على ولاية طرابلس وافريقية، انسحب الاباضيون في اتجاه جنوب طرابلس وتونس والمغرب الاوسط.

وقد كان في مقدمة الفارين للنجاة بأنفسهم، عامل ابن الخطاب علي القيروان ورفيقه في الدراسة، عبد الرحمن بن رستم، الذي سلك طريق الجريد الى منطقة تيهرت حيث ستواتيه الظروف ويؤسس الدولة الرستمية.

وموضوع الدولة الرستمية عالجه ابو زكرياء في الكتاب الذي نقدمه بكثير من التفصيل بحيث يعتبر المرجع (مع تاريخ ابن الصغير) عن هذه الدولة، وبالتالي، فنحن لا نكلف انفسنا مؤنة الحديث عن العهد الرستمي لاستعراض ما تخلله من الاحداث الدينية والسياسية.

والى جانب عبد الرحمن بن رستم كان يوجد علماء اباضيون آخرون عاشوا بعد هزيمة ابي الخطاب وكانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين الطائفة بقوا في جبل نفوسة. وبعض هؤلاء كانوا يرون ان الامامة تؤل الى عبد الرحمن الذي استخلفه ابو الخطاب على القيروان، ولذلك اعلنوا ولاءهم له وكانوا يبعثون اليه بالزكاة اعترافا له بالولاية. وقد كان في مقدمة هؤلاء ، ابو حاتم الملزوزي.

وفي سنة 151هـ. قامت ثورة اشترك فيها الاباضيون مع الصفرية، بقيادة ابي حاتم الملزوزي الذي خلع عليه لقب «امام الدفاع». كان من نتائجها استيلاء ابي حاتم على طرابلس والقيروان، قبل ان يتجه غربا ليضرب حصارا على مدينة طبنه.

وبعد سنوات من النضال، انهزم ابو حاتم واتجه الى جبل نفوسة في فلول جيشه، فطارده يزيد بن حاتم الى ان ادركه في جندوبه، فقتله في ثلاثين الفا من اصحابه (في سنة 155هـ.)،وبذلك بسط بنو العباس سلطانهم من جديد على طرابلس وافريقية.

وكما حدث عقب هزيمة ابي الخطاب، قامت عناصر مهمة، بعد مقتل ابي حاتم الملزوزي بالهجرة من طرابلس وتونس نحو الغرب والجنوب الغربي، وخصوصا الى بلاد كتامة حيث استقرت جماعة معتبرة منهم من سنة 156هـ. وانضم كثير منهم الى منطقة تيهرت التي انتخب عبد الرحمن بن رستم اماما عليها في سنة 160هـ. (وفي رواية، في سنة 161هـ.) والتي اصبحت الان الموئل الرئيسي للاباضيين (34).



وتحت الائمة عبد الرحمن، وابنه عبد الوهاب، وحفيده، افلح، بلغ المذهب الاباضي اوج عظمته العلمية والسياسية حيث كان أساسا لحضارة لم يشهد لها المغرب الاوسط مثيلا من قبل. فان الاسرة الرستمية التي استطاعت ان تفرض سلطانها على القبائل المضطربة في هذه المنطقة دون ان يكون لها سند من العصبية القبلية، انما تمكنت من ذلك بسبب المكانة الادبية التي كان يتمتع بها هؤلاء الائمة، وبفضل عنايتهم بالعلوم والفنون وحرصهم على اقامة العدل والقسطاس ، واعتمادهم في السياسة منهج الشورى واحترام رأي الاغلبية (35).وباختصار تلك المبادىء التي ناضل الاباضيون من اجلها كثيرا وكلفتهم تضحيات باهضة عبر العصور، ولم يتمكنوا من تطبيقه في المشرق.

كان سلطان تيهرت يشمل منطقة تمتد من تلمسان غربا حتى طرابلس شرقا. وفي الشمال الغربي كانت حدود المملكة تمتد حتى البحر الابيض عند مرسى الفروج، ومن الشمال الشرقي حتى مرسى الخرز (اي بين ارزيو الحالية والقالة) وتشمل مرسى الدجاج (الجزائر) ومرسى بجاية.

وفي هذه الرقعة كانت تقطن عدد من القبائل اهمها واكبرها، لماية وسدراته ومزاته وزناته ولواته ومكناسة وغمارة وازداجه وهوارة ونفوسه، وهي، بالطبع لم تكن كلها تدين بالمذهب الاباضي، ولكنها تخضع لسلطان الرستميين السياسي.

وفي الجنوب، كانت رقعة الدولة الرستمية تشمل عددا من الواحات التي اهمها وادي ريغ ووارجلان، الى جانب الزاب وجزء من الجريد.

وكذلك كان يوجد مضيق يمتد بين جزء من الحضنة والزاب وجبل اوراس يقطنه الاباضيون ويمثل حلقة الوصل بين امامة تيهرت وبين المناطق المأهولة بالاباضيين في جنوب تونس وطرابلس.

والمناطق الشرقية الاباضية، كانت في اوائل القرن الثالث الهجري، تشمل مناطق قفصة وقسطيلية، وقنطرارة، ونفزاوة، والجبال التي تمتد من الجنوب الشرقي التونسي، كما تشمل جميع ولاية طرابلس (فيما عدا المدينة نفسها).

ومن هذه الملاحظات، نستخلص ان الدولة الرستمية كانت تحيط بدولة الاغالبة من جميع الجهات (فيما عدا شريط يمتد من الشمال) بحيث كانت رقعة هذه الدولة في الربع الاول من القرن الثالث الهجري لا تتجاوز الشمال التونسي وجزء صغير من الشمال الشرقي الجزائري.

ولكنه في سنة224هـ . نجح الاغالبة في تحطيم هذا الحصار، باحتلال المضيق الذي يربط تيهرت بطرابلس (اي منطقة قفصة وبلاد الجريد)، وكان ذلك بفضل حملة قادها عيسى بن ريعان الازدي (36).

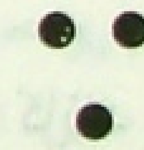
وفي منتصف القرن الثالث منيت تيهرت بالشقاق الذي احدثه النكار والواصلية واستغلته القبائل الساخطة سياسيا، ثم بخروج الخلفية وابن مصالة الذي كون دويلة صغيرة مستقلة عن تيهرت، وغير بعيد منها. وهذه احداث يتناولها ابو زكرياء باستفاضة، ولكن القارىء يحسن صنعا اذا قارن رواية مؤلفنا الاباضي برواية ابن الصغير المالكي الذي كان يعيش تلك الاحداث في تيهرت.

وقطع الاغالبة لطريق الاتصال بين تيهرت والمناطق الشرقية التابعة لها، والشقاق العقائدي، ومحاولة الولاة الاستقلال بما ولوا عليه او اقتطعوه لانفسهم، كانت كلها ضربات قاسية هزت كيان الدولة الرستمية، ولكن الضربة القاضية على سلطان الاباضيين، كانت معركة «مانو» (بين طرابلس وقابس) التي الحق فيها ابراهيم بن احمد الاغلبي في سنة 283هـ. هزيمة منكرة بالاباضيين، لا يتحرج مؤلفنا من ذكر تفاصيلها وآثارها السياسية والعسكرية الوخيمة (37).

ففي هذه المعركة تحطمت شوكة. نفوسة التي كانت بمثابة العمود الفقري للدولة الرستمية في المنطقة.

ومع ذلك، فقد استمرت الدولة الرستمية في الوجود، في الغرب، حتى سنة 296هـ. حين تعرضت لضغوط قوات العبيديين المباشرة، قبل ان تسقط في ايديهم، في اخر الامر. وحينئذ، لم يكن لآخر الائمة الرستميين، ابي يوسف يعقوب من الفرار مع اسرته واعيان دولته الى سدراته/ وارجلان، في الجنوب الشرقي من تيهرت.

وهناك فكر البعض في اعادة بناء الامامة، ولكن هذه الفكرة لم تكن واقعية. وقد ادرك هذه الحقيقة الامام نفسه.



وفي هذه الاثناء، تكونت دويلةاباضية في جبل نفوسه الذي لم يقتحمه العبيديون الا في وقت متأخر ، بزعامة عالم يسمى ابو يحيي زكرياء الارجاني (38). وخلع عليه لقب «الامام المدافع». وقد دامت هذه الدويلة نحو 15 سنة. وهذا هو الحاكم الاباضي الوحيد الذي اخذ لقب «الامام» بعد الرستميين. وعلى الرغم من ان سلطان ابي يحيي لم يكن يتجاوز جبل نفوسه، فهو ، مع ذلك، كان يحكم هذه المنطقة فعلا، ومنع عنها العبيديين.

والاباضيون في الوقت الحاضر لا يزالون متمسكين بتراثهم ومميزاتهم التي ورثوها عبر القرون، وهم يعيشون في جماعات متضامنة منطوية على نفسها ثقافيا، ولكنها ترتبط بعلاقات بتبادل تجاري وتعيش في وئام مع مختلف الجماعات الدينية والاثنوغرافية في المغرب. والمناطق

الجغرافية الأساسية التي يعيشون فيها (فيما عدا المدن الرئيسية التي يمارسون الأعمال فيها) هي ورجلة ووادي ميزاب فى الجزائر وفي جبل نفوسة في ليبيا ، وفي جربة ، في تونس ، حيث توجد اقلية تمثل النكارية ، كما هي الحال في زواغة بليبيا .



(1) انظر ترجمته في الكامل للمبرد (191/2) طبقات الدرجيني (202،201/2)

(2) ضبطها ياقوت وقال ان اكثر ما يجري على الالسنة بكسر النون. وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط. حدها الاعلى متصل ببغداد. راجع معجم البلدان (334/5 - 337) الكامل (343/6) العبر (180/2).

(3) نفس المصدرين.

(4) راجع الهامش على النص اسفله ص 41 هامش 8.

(5) قيس بن سعد بن دليم الانصاري الخزرجي (ت سنة 60هـ) كان من دهاة العرب وذوي الرأي في الحرب والسلم. استعمله علي على مصر سنة 36 - 37. وعاد فكان في مقدمة رجاله في صفين. راجع الاصابة. (الترجمة ٧١٧٩). النجوم الزاهرة (83/1). ابن العبري (ص 185).

(5) (ت 189هـ) النجوم الزاهرة (83/1) ابن العبري (ص 185)

(6) خالد بن زيد بن كليب بن ثغلبة. من بني النجار. صحابي شهد العقبة وبدرا. وقد عاش في عهد بني امية وشارك في غزو القسطنطينية في عهد معاوية. توفي سنة 52هـ. راجع. طبقات بن سعد (49/3) صفوة الصفوة (186/1).

(7) قتل جميع الخوارج الذين اشتركوا في معركة النهروان والذين كان عددهم يبلغ الفا وثمانمائة. ومن بينهم جماعة من خيار الصحابة.

(8) قتل علي بن ابي طالب في رمضان سنة 40هـ. ولكنه اختلف في تاريخ اليوم الذي قتل فيه. فقيل يوم 17 وقيل يوم 11. وقيل في شهر ربيع الاول. وقد رجح ابن خلدون (ع) وابن الاثير وغيرهما التاريخ الاول. راجع هذه الاحداث حتى نهايتها بمقتل علي في العبر (180/2) الكامل (334/3 وما يليها) الشماخي (ص40-56) وفيات الاعيان (الفهرس) حلية الاولياء (61/1) تاريخ ابن الخميس (276/2) مروج الذهب (الفهرست) تاريخ الطبري (83/6) البدء والتاريخ (73/5) تاريخ اليعقوبي (145/2) الاصابة (ت5690) الفرق بين الفرق (في عدة مواضع) مقالة Levi della Vida في دائرة المعارف الاسلامية. مادة «الخوارج» (الطبعة الاولى).

(9) راجع الهامش على النص اسفله ص 85 هامش 4

(10) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي. ابو بكر. اول مولود في المدينة (السنة 1) بعد الهجرة. بويع بالخلافة عقب موت يزيد ابن معاوية في سنة 64هـ. وشمل سلطانه مصر والحجاز واليمن. وقد دخل في معارك عديدة ضد الامويين. وخصوصا ضد الحجاج ابن يوسف. انتهت بمقتله في مكة. في سنة 73هـ. راجع فوات الوفيات (210/1) اليعقوبي (2/3) الطبري (202/7) الكامل (135/4)

(11) راجع الملل والنحل للشهرستاني (161/1) الكامل للمبرد (136/1) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي (ص54-93 وكذلك 263،265)

(12) راجع الهامش على النص اسفله ص 25 هامش 5

(13) راجع Welhausen. Die Religios-Politischen Opposition in Alter Islam. (Berlin. 1901. p 2-28.)

(14) سير الشماخي (ص 77).
(15) نفس المصدر.
(16) نفس المصدر.
(17) راجع حاشية الجامع الصحيح على مسند الربيع بن حبيب لعبد الله السالمي (8-7/1) طبقات الدرجيني (205/2) سير الشماخي (ص75 وما يليها).
(18) راجع الطبقات (205/2) سير الشماخي (ص70).
(19) سير الشماخي.
(20) كان ابو مسلم موالي ثقيف ويعمل كاتبا للحجاج. وقد ظهرت براعته بحيث ان الحجاج استخلفه على العراق لما حضرته الوفاة واقره في منصبه الوليد بن عبد الملك بعده. توفي في سنة 102 هجرية.
(21) امير شجاع. ولد في سنة 53هـ. وعين واليا على خراسان بعد وفاة ابيه. في سنة 83هـ.
(22) راجع Perier (J). la vie d'El-Hadjadj. Paris. 1904 (pp. 221-231)
(23) السير (ص 78).
(24) راجع مقالة A. De Motylinski في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الاولى) مادة «اباضية» . وكذلك Sachau (E). Uber ein Arabonik aus Zänzibar (Siminar fur orientalische spraken) 1898. (p. 1-19)
(25) راجع سير الشماخي (ص 124-125).
(26) راجع مقالة ليويكي (T. Lawicki) في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية) مادة «الاباضية».
(27) سير الشماخي (ص 107-108).
(28) هذا هو التاريخ الذي تورده الرواية لوفاة ابي عبيدة. ولكن المستشرق ليويكي (المصدر المذكور) يرى ان قول ابي زكرياء بان ابا عبيدة مات في عهد عبد الرحمن بن رستم لا يمكن قبوله. على ان هذا الباحث لا ينوه بالاسباب التي حملته على هذا الرفض.
(29) راجع ليويسكي (المصدر المذكور).
(30) راجع ابن عبد الحكم. فتوح مصر (ص224)
(31) نفس المصدر (ص225).
(32) نفس المصدر.
(33) راجع عن هذه الاحداث. العبر (191/4-192) البيان (70/1 و82) الاستقصا (55/1 و57) سير الشماخي (ص123-132) الخلاصة النقية (ص17) طبقات الدرجيني (25/1-33 و22/2 وما يليها). وانظر كذلك تاريخ فتح ليبيا للطاهر الزواوي (ص173-180).
(34) راجع البكري (ص78) سير الشماخي (ص133-135 و138). طبقات الدرجيني (34/1-36) معجم البلدان (27/2) الازهار الرياضية (ص 83 وما يليها) تاريخ ابن الصغير (ط. تونس ص32 وما يليها) وانظر كذلك مقالة ليويسكي (المصدر المذكور).
(35) راجع طبقات الدرجيني (56/2).
(36) راجع عن هذه الاحداث. العبر (200/4) اليعقوبي (ط. دوخوية. ص 346-347) طبقات الدرجيني الشماخي (ص154-159 و161).
(37) قارن البيان الذي يؤرخ لهذه الوقعة في سنة 284هـ. (130/1) العبر (303/4) طبقات الدرجيني (86/1-90) سير الشماخي (267-269).
(38) ترجم له الشماخي ووصفه بـ«القاضي العادل. العالم الكامل. الامام الفاضل جمع علما وعملا وورعا». راجع السير (ص243-244).

من هو أبو زكرياء؟

لم يرد في التراجم القديمة غير الاباضية التي بين ايدينا ذكر لابي زكرياء يحيى بن ابي بكر (1). واما كتب التراجم الاباضية التي تعرضت لسيرة ابي زكرياء، فهي تعود كلها الى اصل واحد، وهو طبقات ابي العباس الدرجيني (ت.سنة 670هـ.). وترجمة الدرجيني التي لخصها الشماخي تلخيصا جيدا ولكنه لا يضيف اليها شيئا يذكر (2) ، تصنف ابا زكرياء ضمن علماء الطبقة العاشرة (450 ـ 500 هـ) مع اخيه زكرياء ومع ابي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (الذي مات في نفس السنة التي مات فيها ابو زكرياء ـ 471 هـ .) . وأبي سليمان يوسف (3) . ونحن نكتفي هنا بنقل ما ورد في هذه الترجمة :

«ومنهم ابو زكرياء يحيى بن ابي بكر واخوه، ابو يحيى زكرياء، رحمهما الله. كانا من الافاضل المقتفين لآثار الاوائل، لم تزل الديانة بحياتهما حية، وطرق البر ناهجة، وطلب علوم المذهب وسير من تنسك وترهب، ولهما في علوم النظر اطول باع بأدلة ذات اقناع، وحجج تملأ القلوب والاسماع، وتغنى عند المحاضرة ما لا تغنى المشرفية عند القراع، فكانا مراد الفارين. مع تباعد الدارين».

«وذكروا ان ابا زكرياء بن ابي بكر، (4) توجه ذات سنة الى وارجلان زائرا، ثم رجع، فمر بجماعة من اصحابه بقنطرارة، فسألوه عن احوال اهل وارجلان، وكان ذا فطنة وبصيرة فقال: اما ذهب بصرى، فلم أر احدا، واما رأيت ورجلان خلت فما بها احد».

«وحكي ان اهل واجلان قالوا له حين وصل اليهم: اقمَ عندنا قليلا، فنأنس بك. فقال لهم: قولوا أقم عندنا قليلا يمت قلبك، وذلك لما اطلع عليه من سوء طريقتهم ورداءة احوالهم».

«وذكر غير واحد من تلامذة ابي الربيع بن يخلف. قال: اردنا الطلوع الى جبل دمر لدراسة الكتب، ونحن جماعة نقرأ بتمولست. فلم يوافق ذلك ابا الربيع ولا ابا زكرياء (5).

«وقال ابو زكرياء ، اعلموا ان سوء الرأي انما يخرج منه من دخل فيه بالرجوع عنه لا بالتمادي عليه. وقال لهم ايضا: انكم ان مضيتم الى اهليكم على هذه الحالة، كنتم كمن تعمد اماتة الدين. وهذا تحريض وترغيب في طلب العلم».

وكان كثيرا ما يوصيهم، فيقول لهم: اياكم والتسارع الى قبول صنائع الناس وهداياهم، فانه قيل كن عبدالله ولا تكن عبدا للناس. وانشد في ذلك:

ولست وان قربت يوما ببائع ... لديني واخلاقي رجاء التقرب

ويعتاده قوم لقوم تجارة ... ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي».

ويمضي الدرجيني، فيورد مراسلة ابي زكرياء لابي نوح محمد في مسألتين فقهيتين واجابة ابي نوح ثم يقول: «وروى ابو عمرو (6) عن ابي زكرياء بن ابي بكر، انه كان كثيرا ما يردد قول يحيى بن معاذ الرازي: للتوبة ثلاث مقامات، الندم، والاستغفار، والحقيقة. فالندم عند التحول والشعور بمرارة المعاصي. والاستغفار، طلب الغفران بصحة الارادة. والحقيقة، الاوبة الى الله عز وجل. فآفة الندم الامل، وآفة الاستغفار، الغفلة، وآفة الحقيقة الشهوة»(7).

(1) يجب عدم الخلط بينه وبين ابي زكرياء يحيى بن ابي زكرياء الذي كان ايضا عالما ومن كتاب السير. ولكنه جاء متأخرا حيث عاش في النصف الاول من القرن السادس الهجري.

(2) راجع السير (ص417-418).

(3) انظر للمتاخرين عن ابي زكرياء، معجم المطبوعات (1914) تاريخ الجزائر العام (400/1) معجم اعلام الجزائر (ص204) الازهار الرياضية (613/2 هامش2) وكذلك 1336 Bock : C.I.

(4) هكذا في سير الشماخي. ولكن النص المطبوع من الطبقات يورد اسم ابي يحيى زكرياء. انه لمن المؤسف ان محقق الطبقات الفاضل لم يقم بمقارنة نسخه بالنسخة المطبوعة من السير (وهي نسخة حسنة في مجموعها). ولو فعل ذلك لامكن توضيح كثير من الفوارق واللبس. ولا سيما في اسماء الاعلام التي ترجم لاصحابها كلا المؤلفين. ونحن نعتمد في هذا النص قراءة الشماخي. لان ابا زكرياء اشهر من اخيه. كما ان اسمه ورد قبل اسم اخيه في الترجمة. وبالتالي. فمن الطبيعي ان يدور الحديث حوله اكثر من اخيه.

(5) قراءة الشماخي. وفي النص المطبوع من الطبقات : ولا أبا يحيى زكرياء.

(6) كذا في الطبقات. وفي الشماخي: ابو عمر.

(7) الطبقات (448/2-451).

كلمة عن كتاب السير

قمت بتحقيق نص كتاب السير على اساس مخطوطة واحدة مكتوبة بخط مغربي حسن واضح ـ والعناون مكتوبة بالحبر الاحمر. ويبلغ عدد صفحات المخطوطة 180 صفحة مقاس 25×18، وعدد اسطر الصفحة 21 سطرا من المتوسط.

والنسخة ملك للشيخ سليمان بن داود من غرداية، أعارها لي، مشكورا، لغرض تحقيق الكتاب. وهذه النسخة منسوخة على نسخة اخرى بخط الشيخ عمر بن يوسف وصححت على نسخة اخرى بخط ابن اخ المذكور، وهو يحيى ابن الحاج سعيد بن يوسف. وقد قام بنسخ النسخة التي اعتمدت عليها، بكير بن ابراهيم الذي نسخها للشيخ محمد بن ابراهيم بن سليمان بن ابراهيم، وفرغ من نسخها في غرة محرم سنة 1335 هجرية، بغرداية، وقد حبست النسخة برسم محكمة غرداية (سجل 101).

ونظرا لجودة النسخة التي اسعفني الحظ بالعثور عليها والتي هي النسخة الوحيدة المعروفة لدي ولدى اصدقائي الاباضيين الذين تحدثت معهم في الموضوع، فانني لم اجد سوى صعوبات ثانوية في تحقيق هذا النص.

وهذه الصعوبات تتصل، خصوصا، بقراءة اسماء بعض الاشخاص والاماكن، وقد تمكنت من تذليلها بالرجوع الى سير الشماخي، وطبقات الدرجيني. وذلك بالاضافة الى مخطوط اباضي اخر (اتيحت لي منه نسختان) قمت بتحقيقه، في نفس الوقت، تقريبا، واعني بذلك سير ابي الربيع الوسياني.

فهذه النصوص، بالاضافة الى المراجع المعروفة والتي استعنت بها

لوضع الهوامش، هي التي استعملتها لمقارنة ما اشكل علي من اسماء الاشخاص والاماكن الواردة في مخطوطة كتاب السير.

وهذا الكتاب يحقق وينشر لأول مرة بالرغم من مضي نحو عشرة قرون على وضعه ، ولكنه مع ذلك معروف لدى القدماء والمحدثين من الدارسين لشؤون الأباضيين الدينية والسياسية .

فان المستشرق الالماني، ادوارد ساخو (E. Sachau) يخبرنا ان الكتاب قد اعتمده المشارقة مصدرا للاخبار التي تتعلق بأباضية المغرب، وان المؤلف المجهول لكتاب «كشف الغمة في سير ائمة عمان» انما اخذ مادته عن رجال المذهب في شمال افريقية من كتاب السير لابن زكرياء (1).

وقبل ذلك، كان كتاب السير المصدر الاساسي (مع سير ابي الربيع الوسياني) الذي استقى منه الدرجيني مادة طبقاته (ولا سيما الجزء الاول الذي يشتمل على عشرات الصفحات الملخصة او المقتبسة حرفيا من كتاب السير) وكذلك استفاد منه ونقل كثيرا من روايات ابي زكرياء ابو الربيع الوسياني الذي عاش في القرن السادس في سيره (2).

وأما الشماخي، فيبدو انه لم يطلع على نص الكتاب، ولكنه مع ذلك ينقل عنه كثيرا بواسطة طبقات الدرجيني. وكذلك استفاد منه سليمان الباروني كثيرا في كتابه، ازهار الرياض (الجزء الثاني) الذي ارخ فيه لتيهرت ولائمة الرستميين.

وكتاب ابي زكرياء، هو المصدر الاباضي الاول والوحيد الذي يمكن بواسطته وضع صورة تركيبية للدولة الرستمية (3)،وهو ايضا من المراجع التي لا يمكن كتابة تاريخ المغرب دون الاستعانة بها (4).

وبالفعل، فان المؤرخين الاوروبيين الذين كتبوا عن المغرب في غضون القرن الماضي،منذ ترجمة كتاب السير الى اللغة الفرنسية (سنة 1878م). انما اخذوا مادتهم الاساسية عن عدد من الموضوعات، ، وفي مقدمتها ما يتعلق بتاريخ تيهرت، من هذا الكتاب.

على ان الشيء الذي ينبغي تسجيله ايضا، هو ان الكتاب قد صادف سوء طالع غريب. فبينما نجد الكتب الاباضية التي استقت منه واعتمدته، مثل سير الشماخي وطبقات الدرجيني قد نشرت نصوصها (والاول نشر مرتين)، فاذا به هو يظل مخطوطا نادر الوجود.

والترجمة الفرنسية التي اشرنا اليها لكتاب السير قام به ماسكاري تحت عنوان «تاريخ ابي زكرياء» (5). وانه لمن سوء الحظ ان هذه الترجمة لم تكن في المستوى المطلوب، بل ان من الممكن القول صراحة بأنها رديئة (6).

فالى جانب الثغرات الكثيرة الموجودة في النص الفرنسي والتي تهمل فيها جمل او فقرات هنا وهنالك، والتي اشرنا اليها، متى كانت مهمة، في هوامش كتابنا ، نلاحظ ان النسخة التي اعتمدها المترجم مبتورة في الوسط وفي الأخير ، بحيث يبلغ عدد الورقات التي سقطت في مكان واحد 30 ورقة (من الورقة 130 حتى 161 في مخطوطتنا) . وفي الأخير ، يعترف المترجم بأن نسخته غير كاملة بحيث انه لا يعرف عدد الصفحات الناقصة.

وعلى الصعيد التقني، فان ترجمة مخطوط مغامرة كبيرة. ولكي يضمن المترجم لنفسه حظا من النجاح، يجب ان يتأكد من انه ليس متضلعا في اللغتين فحسب، بل هو ايضا متمرن على آليات قراءة الخط العربي، وله تدريب معقول في ذلك. وهذه، مع الاسف، ليست حال مترجم مخطوطنا، الذي كان محروما من الميزة الأخيرة، في الوقت الذي كان فيه مستوى لغته العربية لا يتجاوز مستوى معلم فرنسي في مدرسة ثانوية لهذه اللغة في عهد الاستعمار. وفي هذا السياق، نلاحظ ان الطريقة التي انتهجها المترجم، هي انه يهمل بكل بساطة الجملة التي وجد صعوبة في قراءة احدى كلماتها.

والترجمة في مجموعها تنطوي على كثير من التمديد والاضافة غير الضرورية والحشو والاقتصاب. والمترجم، بعد،لم يبذل اي مجهود للتعرف على اسماء الاماكن الواردة في النص، او على الاعلام المترجم لها، بل ان اسم المؤلف نفسه ورد في العنوان بهذا الاقتصاب الغريب: «ابو زكريا»، وهو اسم (كنية) يشترك فيه عشرات من العلماء الاباضيين.

وفي غضون التعليقات الضافية التي كثيرا ما تفقد الصلة بالموضوع كلية، عبثا يحاول القارىء ان يكتشف حالة بذل المترجم فيها مجهودا للتوفيق بين روايات ابي زكرياء واقوال غيره من المؤلفين. ونحن على كل حال، نعلن بكل اسف اننا لم نستفد من هذه التعليقات قليلا او كثيرا في الهوامش التي وضعناها على النص الذي بين ايدينا. واذا استغرب القارىء عدم الاشارة الى هذه الترجمة والى هوامشها، فينبغي ان يعرف ان السبب في ذلك، هو اننا غير مدينين لهذا المترجم بشيء على الاطلاق .

على ان الاسوأ من كل ما تقدم، هو الروح الاستعمارية الفجة التي تسود هوامش المترجم ومقدمته والتي لا نجد لها مثيلا الا في الجيل الاول للمعمرين ، امثال بيجو وخلفائه. وهذه النزعة يصدمنا بها المترجم ويبرزها في مناسبة وفي غير مناسبة، ولا سيما حين يستعمل كلمات مثل: «ممتلكاتنا» و«جزائرنا» و«شاويتنا» و«ميزابنا». وهذه كلما تتردد في المقدمةوالهوامش بالاعتزاز والفخر الذي يتحدث به الاقطاعي عن قطعانه وعبيده. والعملية كلها (الترجمة) في ذهن المترجم لا تنحصر في نقل معلومات وتقديم خدمة للباحثين والدارسين، بل هي تستهدف توفير

صورة خلفية لكي يفهم المستعمرون «عقلية الاهالي الذين يحكمونهم: «فاذا اردنا فهم شعب لكي نحكمه، فيجب ان نأخذه كما هو»(7).

وبعد مرور ما يقرب من قرن على ظهور ترجمة مسكاري لكتاب السير، قام المؤرخ المستعرب المعروف . لوتورنو (R. Le Tourneau) في سنة 1960 ، بمحاولة لاعادة ترجمة الكتاب ، ونشر قسما من هذه الترجمة يمثل أقل من ثلث النص الأصلي ، في المجلة الأفريقية (8) .

وقد ذكر المترجم في الفقرة التي قدم بها لهذه الترجمة انه اكتشف عددا من مخطوطات الكتاب، بعضها كامل، والبعض الآخر عبارة عن اقسام منه.

ونحن نأسف لان المترجم لم يدلنا على اماكن وجود هذه المخطوطات، وما اذا كان قد عثر عليها في مكتبه عمومية ام في خزائن الافراد. وهو كذلك لم يقدم لنا اي وصف للمخطوطة (او المخطوطات) التي اعتمدها للترجمة (مثل عدد اوراق المخطوطة وسطورها ونوع الخط وحالة ورقها الخ.)، بل هو اكتفى بالقول بأن «جماعة من المستعربين والمستشرقين قد عكفت على مهمة تحقيق النص العربي للكتاب وعلى ترجمته الى اللغة الفرنسية (9) ، وذلك دون ان يذكر اسماء افراد هذه الجماعة .

وعلى الرغم من ان القسم المترجم من الكتاب لا يحمل سوى توقيع المسيو لوتورنو، فأن قلم تحرير المجلة نوه بأن هذه الترجمة جزء من ترجمة جماعة المستشرقين المقترحة (10).

وكذلك اهمل المترجم ان يورد ارقام اوراق المخطوطة الاصلية، الامر الذي كان يمكن معه التعرف على حجم المخطوطة اجمالا. على ان يدا مجهولة قامت بهذه المهمة بوضع ارقام الاوراق بقلم رصاص على هامش الترجمة في النسخة المحفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية ، فكان عدد اوراق المخطوطة المترجمة 49 ورقة (وهو يمثل اقل من ثلث الكتاب) .

ونحن لم نحاول دراسة هذه الترجمة بتعمق بمقارنتها بالنص العربي (كما فعلنا بالترجمة الاولى)، لان نيفا وسبع عشرة سنة مضت دون ان يتمكن المترجم من اتمام عمله الذي لا يزال مجرد قطعة. ولكن الانطباع بشأنه هو انه على الرغم من وجود اغلاط فيها (تبرعت يد مجهولة بتصحيحها في نسخة المكتبة الوطنية من المجلة)، فان هذه الترجمة افضل من ترجمة مسكاري .

قلنا ان حظ الكتاب من الترجمة سيء، وقد شاءت الاقدار ان تكون هذه الترجمة الرديئة هي التي اعتمدها الكتاب في كل ما كتب في غضون هذا

القرن عن الاحداث التي تناولها ابو زكرياء. ولكن ما هي العوائق التي حالت دون تحقيق هذا الكتاب ونشره؟

السبب الاساسي، فيما يبدو لي، هو ان الكتاب يعتبر مفقودا، حيث اننا لا نعرف وجود نسخة منه في مكتبة عمومية او فردية(11).

واما المخطوطة المبتورة التي اعتمد عليها مسكاري لترجمة الكتاب، فانها قد اختفت عقب وفاة هذا الكاتب الذي اختطفته يد المنون اثر نشر ترجمته بوقت قصير، وقد فشلت جهود الباحثين المهتمين بالموضوع في العثور عليها. وكذلك اعتبر النص العربي لكتاب السير ضائعا. مما جعل العلامة جوتييه يقول بصدد الحديث عنه باستغراب: «انه من الاشياء المحيرة للعقل ان لا نعرف كتابا عربيا في التاريخ الا عن طريق ترجمته» (12).

قلنا ان كتاب السير قد احتل المكانة اللائقة به بين المراجع التاريخية منذ ظهور ترجمته. ولكن ما هي نوعية المساهمة التي يقدمها ابو زكرياء بن ابي بكر للبحث التاريخي؟

في المكان الأول يعرفنا الكاتب بعدد من مراكز اشعاع المذهب الاباضي ، مثل قنطرارة وقفصة وورجلان وتيهرت وما كان يجري فيها من نشاط في التعليم والجدال والاجتهاد والافتاء الخ ؛ في الوقت الذي يترجم فيه لعدد من ائمة المذهب ومشائخه ويقدم الينا عنهم صفحات مؤثرة تبرز، الى جانب علمهم، فضلهم وتقشفهم وميولهم الى العدل والتمسك باهداب الدين الحنيف. وهو في ذلك كله، يتحدث عن شخصيات معاصرة له، او هي قريبة العهد به ولا تزال مآثرها حية وذكراها عاطرة في نفوس الناس.

ونحن نستطيع ان نطمئن الى روايات ابي زكرياء لانه واحد من ذلك القوم، ولأنه لم يكن من مؤرخي القصور ولم يلتمس رضا سيد من الاسياد، وانما هو عالم يدفعه الى تسجيل سير اشياخه ليكونوا قدوة للامة، نفس الايمان الراسخ الذي حمل اسلافه على الوقوف في وجه امواج القوة المتعاقبة .

والصفحات التي خصصها المؤلف لثورة ابي يزيد الخارجي (صاحب الحمار) مفعمة بالتفاصيل المثرية، وذلك فضلا عن ان الكاتب يفند زعم القائلين بأن الاباضيين متضامنون بطريقة العصبية وينصرون اخاهم «ظالما او مظلوما»، حيث انه لا يتردد في استنكار الفضائع التي ارتكبها هذا الثائر ويصفه بأنه «عدو الله».

وفي نفس الوقت، فان وصف المؤلف للعبيديين بأنهم، هم ايضا، «اعداء الله»، لم يمنعه من ان يخصص صفحات من كتابه لينقل الينا صورة فريدة عن معاملة المعز لدين الله لابي نوح سعيد بن زنغيل ولابي القاسم بن

يزيد بن مخلد، الامامين الاباضيين اللذين قادا ثورة فاشلة ضده، وقد بلغ به الامر في حرصه على ارضائهما وارضاء اتباعهما انه عرض عليهما اعادة ملك تيهرت الى الطائفة الاباضية. وكذلك يعرض علينا المؤلف بسخاء تفاصيل ما لقيه ابو نوح في بلاط القيروان من الرعاية والكرم والتقدير لعلمه، مما يدل على نزاهة هذه الرواية وبعدها عن التعصب والحزازات التاريخية.

صحيح ان رواية ابي زكرياء عن عبيد الله المهدي وعن ابي عبد الله (الداعي) تختلف في بعض التفاصيل عن رواية بقية المؤرخين (ومثال ذلك ما يتصل باقامته في وارجلان وفي سجلماسة وكون اليسع بن مدرار قد عينه وزيرا في دولته)، كما اننا لا نفهم الحاحه على تسمية ابي عبد الله الداعي باسم «ابي محمد الحجاني» (هل كان ذلك جهلا بهذا الاسم اللامع ؟).

ولكن هذا الاختلاف ينطوي على عناصر جديدة توسع آفاق النظرة التقليدية الى بداية عهد العبيديين. ونحن لا نغالي اذا قلنا ان الباحث الذي يريد رسم خريطة تبرز مسيرة عبيد الله من الشام عبر مصر والجنوب التونسي وبلاد كتامه ووارجلان الى سجلماسة، يحتاج الى ان يدرس بعناية رواية اي زكرياء.

وكذلك نرى ان الباحث الذي يدرس ثورة ابي يزيد صاحب الحمار وشخصية هذا الرجل لا يمكنه ان يستوفي البحث حقه اذا اهمل العناصر الجوهرية التي يقدمها ابو زكرياء. والحق ان «تغطية» ابي زكرياء لهذه الثورة لا تفوقها في التفاصيل سوى رواية ابن الاثير.

واما ما ذكره ابو زكرياء عن الائمة الرستميين، فهو بالتأكيد، ادق واغنى ما وصل الينا من المعلومات عن هذه الدولة. وكتاب السير سيظل المرجع الاول والاخير عنها.

ولكن هذا لا يعني ان الكتاب يخلو من فجوات هنا وهناك. فأن القاريء، مثلا، سيندهش حين يلاحظ ان أبا زكرياء لا يذكر شيئا عن دور ورفجومة التي كانت تناصر ابا حاتم عندما نشب القتال بينه وبين يزيد بن حاتم، بعدما تحولت هذه القبيلة من موقف العداء الذي لا هوادة فيه للخوارج منذ بضعة اعوام الى موقف الحليف والنصير

ومن الغريب كذلك ان الكاتب الذي يقدم الينا صفحات ثمينة عن العبيديين في الشرق، لا يذكر قليلا او كثيرا عن دولة الادارسة ولا عن علاقات هذه الدولة بالرستميين الذين كانت تتعايش معهم في سلم ووئام. وهذا الصمت يحيرنا، خصوصا اذا اعتبرنا ان الادارسة كانوا، مثل الرستميين وبني مدرار في سجلماسة، جميعا يقاومون عدوا مشتركا غزا اراضيهم وشتت شمل اسرهم الحاكمة.

وأكثر من ذلك، فأن الكتاب لا يعطينا سوى صورة غامضة عن تيهرت في ايامها الاخيرة، قبل ان يدمرها العبيديون.

والكتاب لا يذكر شيئا عن علاقات تيهرت بالخلافة الاموية في الاندلس، تلك العلاقات التي كانت نتيجة لظهور قوة العبيديين ولرغبة قرطبة في اقامة حواجز بينها وبينهم في ابعد نقطة ممكنة.

ومن جهة اخرى، اهمل المؤلف كلية تاريخ الاغالبة، وما شهدته دولتهم من الثورات في القارة وحروبهم في صقلية وانما يذكرهم لاول مرة لدى مرور جيوشهم بجبل نفوسه في طريقهم الى تيهرت، حيث دخلوا في معركة حاسمة في تاريخ الاباضية (مانو).

بل ان ابا زكرياء لم يتعرض في روايته لافتتاح أبي عبد الله للجنوب التونسي، وخصوصا، لقسطيلية وقفصة، وهما معقلان اباضيان من الدرجة الاولى (13).

تلك وغيرها فجوات تستلفت انظار الدارس المدقق لكتاب السير، وليس من السهل تفسيرها، اللهم الا اذا راعينا ان انسحاب الاباضيين الى الجنوب واحتلال العبيديين لكثير من مراكز الاشعاع لبلدهم قد حرمهم من مكتباتهم ولا سيما، مكتبة «المعصومة» بتيهرت التي قيل انها احرقت (14) واضطر علماءهم الى اجترار الرواية الشفهية التي عملوا بهالتسجيل الاحداث التي نقلتها اليهم واعتمدوا عليها دون سواها. وهذا الاعتبار يفسر لنا ايضا ظاهرة اخرى في سير ابي زكرياء وفيما كتب بعده من السير الاباضية، وهي خلوها من تواريخ ميلاد المترجم له وتاريخ وفاته، ومن التواريخ بصفة عامة، وخلوها كذلك، من الحقائق المجردة، ومن تسلسل انساب المترجم لهم الى ما فوق الاب والجد، وعدم ايرادها اية مراجع تاريخية لغير الاباضيين.

ومهما يكن من امر، يجب الا يغيب عن اذهاننا ان تاريخ ابي زكرياء انما هو تاريخ اباضي ديني في المكان الاول، يرتكز على سير العلماء والائمة الذين يقتصر على ايراد الحوادث التي وقعت لهم او شاركوا فيها، دون ان يهتم بسياقها التاريخي العام في المغرب. ونحن يجب ان نأخذه كما هو ونثني على منهجية صاحبه وعلى دقته ونزاهته.

الجزائر في 8 ابريل 1977.

اسماعيل العربي

(1) راجع. ادوارد ساخو. المصدر المذكور (ص 1ـ19).
(2) قام هذا الكاتب بتحقيق الجزء الثاني من سير أبي الربيع الوسياني . والكتاب تحت الطبع.
(3) مع اعتبار ان ابن الصغير مالكي وليس اباضيا. كما سبقت الاشارة الى ذلك.

صفحتان من المخطوطة المعتمدة

بسم الله الرحمن الرحيم ... صلى الله على سيدنا محمد وآله
الجزء الاول من كتاب السير واخبار الأيمة تأليف الشيخ الفقيه
الاجل السيد الفاضل الأعدل ابي زكرياء يحيى بن ابي بكر
رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه . اما بعد
الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد في الآخرة
وهو الحكيم الخبير اما بعد وانه لما راينا ما انطمس من الآثار
وما اندرس من الاخبار انبعثت افكارنا الى تاليف اخبار من
سلف من الأشياخ اهل الدعوة وعلمائها ونذكر مناقبهم
وحسن سيرهم وجميل مذاهبهم ونشر فضائلهم وكتبنا من ذلك
ما تيسر لنا كتابته ورجونا منفعته من بعد ما خشينا على العوام
ان يتخذوه وراء ظهورهم ويجعلوه نسيا منسيا والى الله الرغبة
واياه نسأل العصمة وهو ممن نرجو الثواب فيما قصدنا
وله المنة علينا وهو حسبنا ونعم الوكيل واول الذكر سبب
وقع الاباضية ببلاد المغرب وكيف كان الخمسة النفر حملة
العلم الى ارض المغرب وكيف كان ابتداء الامامة الى انقراضها ثم ما يتلوا
ذلك من اخبار المشائخ واخبار اهل الدعوة مع الايمة المسودة
وكيف كانوا فيما من قام عنهم قرنا بعد قرن بعد ما يتبع ذلك من
احاديث اهل الدعوة ونشر مآثرهم وطلب اخبارهم من سلف
عن خلف وخلف بعد خلف وعسى ان يتذكر به متذكر ويستيقظ
ذو هفوة وان الذكرى تنفع المومنين حدثني غير واحد
من اصحابنا وحدث به الامام افلح عن ابيه عبد الوهاب عن ابيه
عبد الرحمن

(4) راجع. Basset (R), Les sanctuaires du Djebel Neffousa, Paris, 1889 (p. 6)

(5) Emile Masqueray, La Chronique d'Abou Zakaria, Alger, 1878

(6) وصفها البعض بانها ناقصة. وقال جوج مارسي (G. Marçais) في مقاله «الرستميون» في دائرة المعارف الاسلامية «انها ترجمة جزئية». وتحدث عنها المستشرق البولندي ليويسكي في موضعين. وصفها في الاول بأنها «متواضعة» وفي الثاني بأنها «رديئة جدا» راجع. Revue des Etudes Islamiques, 1934 (p. 74 et p. 59. note 2)

(7) ترجمة كتاب السير (ص 151 هامش1).

(8) Revue Africaine. 1960 (p. 99-172) (99-172. 1960).

(9) نفس المصدر (ص99).

(10) نفس المصدر.

(11) ذكر ليويسكي (Revue des Etudes Islamiques, 1934) انه توجد نسخة من كتاب السير في مكتبة جامعة «لوو» (Lwow) ببولندا. ولكنا نعرف ان معظم المخطوطات التى جمعها المستشرقون البولنديون (ومنها مجموعة سموجورزوفسكي Smogorgowski الثمينة) قد نقلت الى الاتحاد السوفيتي عقب ضم مساحات شاسعة من الاراضي البولندية الى اوكرانيا وروسيا البيضاء. وقد علمنا بطريقة غير مباشرة ان سموجورزوفسكي كان يملك نسخة من كتاب السير. لان المؤرخ جوتييه (Gantier) انه وعده بتحقيق المخطوط ونشره. ولكن ذلك لم يقع. والمخطوطة نفسها لا نعرف عن مصيرها شيئا.

(12). راجع. Gautier (F), le Passé de l'Afrique du Nord, éd. Payot, 1954 (p. 304).

(13) راجع عن افتتاح هاتين المدينتين. رسالة افتتاح الدعوة (ص197ـ198) البيان (145/1) الذي ذكر هذا الفتح ضمن حوادث سنة 296هـ. التي هي السنة التي افتتح فيها ابو عبد الله تيهرت ايضا. نفس المصدر (197/1) الكامل (49/8) الاتعاظ (ص66)

(14) اعرب الاستاذ الباحث موسى لقبال عن تشككه في الرواية القائلة بأن العبيديين احرقوا مكتبة «المعصومة» في مقال نشره في مجلة الاصالة. عدد يناير 1977 (ص61 وما يليها)

عبد الرحمن بن رستم رضي الله عنهم في بعض ما يحدث به عنهم
وكان اذا ذكره ذكره بالامام قال اخبرنا الامام او قال سمعته يقول اول
من جاء بهذه الصفة يريد مذهب الاباضية ونحن بقيروان فينا
سلمة بن سعيد قدم علينا من ارض البصرة هو وعكرمة مولى
ابن عباس وهما راكبان على جمل واحد جملا عليه زادهما سلمة
ابن سعيد يدعو الى الاباضية وعكرمة مولى ابن عباس يدعو الى الصفرية
قال وسمعت سلمة يوما يقول وددت ان يظهر هذا الامر يعني
مذهب الاباضية بالمغرب يوما واحدا من غدوة الى الليل فما
ابالي بعد ذلك ضربت عنقي ثم ان عبد الرحمن بن رستم قام في ذلك
الامر مجتهدا في طلبه غاية الاجتهاد فقال له رجل من اهل الدعوة
ان كنت تريد علم هذا الامر الذي كلفت به وعلقته وراءك تطلبه
فعليك ارض البصرة فان بها عالما يكنى ابا عبيدة واسمه مسلم بن ابي
كريمة التميمي وانك تجد عنده ما تطلبه وقيل ان امه هي التي قالت
ذلك له فلما بلغه ذلك توجه عبد الرحمن بن رستم الى ابي عبيدة رضي الله عنه
وله حديث عنه ساذكره بعد ان شاء الله مع النفر الخمسة الذين طلبوا
العلم الى ابي عبيدة اذ صرنا اليه ثم ذكر وضاع بلاد الفرس من
العجم ونظرنا في كتاب اعلام النبيء صلى الله عليه وسلم لابن قتيبة وقد ذكر
ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الوعظ والزهد ان ايوان
كسرى اهتز وسقطت منه اربع عشرة شرافة ليلة تولد
النبيء صلى الله عليه وسلم فهاله ما راى من ذلك وعزم على كتمان
ذلك عن وزرائه فلم تحتمله نفسه وضاق به صدره فلما

كتاب السير لأبي زكريا

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد واله الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد في الاخرة وهو الحكيم الخبير.

أما بعد، لما رأينا ما انطمس من الآثار، وما اندرس من الاخبار، انبعثت أفكارنا الى تأليف اخبار من سلف من الاشياخ، اهل هذه الدعوة (1) وصلحائها ونذكر مناقبهم، وحسن سيرهم، وجميل مذاهبهم، ونشر فضائلهم، فكتبنا من ذلك ما تيسر لنا كتابته ورجونا منفعته من بعد ما خشينا على العوام أن يتخذوه وراءهم ظهريا، ويجعلوه نسيا منسيا، والى الله الرغبة واياه نسأل العصمة، ومن لدنه نرجو الثواب فيما له قصدنا، وله المنة علينا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فأول ذلك، ذكر سبب وقع مذهب الاباضية ببلاد المغرب، وكيف كان الخمسة النفر الحملة العلم الى ارض المغرب، وكيف كان ابتداء الامامة الى انقراضها، ثم ما يتلو ذلك من اخبار المشائخ واخبار اهل الدعوة مع الائمة المسودة (2) وكيف كان قيام من قام عنهم، قرنا بعد قرن، وما (3) يتبع ذلك من احاديث اهل الدعوة ونشر مآثرهم، وطلب مخابرهم، خلف عن سلف (4) وخلف بعد خلف، وعسى ان يتذكر به متذكر، ويستيقظ ذو هفوة، فأن الذكرى تنفع المؤمنين.

حدث غير واحد من اصحابنا وحدث به الامام أفلح عن ابيه عبد الوهاب عن أبيه عبد الرحمن بن رستم رضي الله عنهم في بعض ما يحدث به عنهم، وكان اذا ذكره، ذكره بالامام، قال اخبرنا الامام، او قال سمعته يقول، اول من جاء بهذه الصفة يريد مذهب الاباضية (5) ونحن بقيروان

افريقية، سلمة بن سعيد، قدم علينا من ارض البصرة، هو وعكرمة (6) مولى ابن عباس، وهما راكبان على جمل واحد حملا عليه زادهما، سلمة بن سعد (7) يدعو الى الاباضية، وعكرمة بن عباس يدعو الى الصفرية.

قال وسمعت سلمة يوما يقول، وددت ان يظهر هذا الامر، يعني مذهب الاباضية بالمغرب يوما واحدا من غدوة الى الليل، فما أبالي بعد ذلك ضربت عنقي.

ثم ان عبد الرحمن بن رستم قام في ذلك الامر مجتهدا في طلبه غاية الاجتهاد، فقال له رجل من أهل الدعوة، ان كنت تريد علم اهل هذا الامر الذي كلفت به وعلقته وراك تطلبه، فدونك ارض البصرة، فان بها عالما يكنى أبا عبيدة، واسمه مسلم ابن أبي كريمة التميمي، فأنك تجد عنده ما تطلبه. وقيل ان امه هي التي قالت ذلك له، فلذلك توجه عبد الرحمن بن رستم الى أبي عبيدة رضي الله عنه، وله حديث عنه سأذكره بعد ان شاء الله، مع النفر الذين طلبوا العلم الى أبي عبيدة اذا صرنا اليه.

(1) الدعوة الاباضية.

(2) بنو العباس الذين اشتهروا بلباس السواد. ولكن ابا زكرياء كثيرا ما يتحدث عن الفاطميين ويسميهم ايضا المسودة. لسبب نجهله

(3) في الاصل: بعدما.

(4) في الاصل: سلف عن خلف.

(5) ينسب المذهب الى عبد الله بن اباض (ـ86هـ) بكسر الالف في اكثر الروايات. وبالضم والفتح في بعضها. وهو عبد الله ابن اباض المقاعسي المرى التميمي. من بني مرة. كان معاصرا لمعاوية وعاش في اواخر ايام عبد الملك بن مروان (26ـ86هـ) الذي كان على علاقات حسنة معه. واذا كان المؤرخون قد وقعوا في اضطراب بشأن تحديد سنة وفاته. فأن الدرجيني يعتبره من الطبقة الثانية (50ـ100هـ) ويعده الشماخي من التابعين. ويرى صاحب ازهار الرياض انه من ابناء النصف الثاني من المئة الاولى للهجرة. بعد جابر بن زيد. وصفه الدرجيني بقوله: «كان امام اهل الطريق وجامع الكلمة. فهو العمدة في الاعتقادات والمبين لطرق الاستدلالات». وقال عنه الشماخي انه «امام اهل التحقيق والعمدة».

قيل نقلا عن نشوان الحميري. عن ابي القاسم المعتزلي. ان عبد الله «لم يمت حتى ترك قوله كله ورجع الى الاعتزال». ولكن هذا القول لا تؤيد المصادر الاباضية. ونحن نعرف ان الاباضية كانت تتمشى مع الاعتزال في عقلانيته. وانه على الرغم مما كان بينهما من خلافات ثانوية لم ينفصلا الا في عهد الامام عبد الوهاب.

ومن الاقوال الاخرى التي تبدو غريبة عن سيرة عبد الله ابن اباض. ما رواه الشهرستاني من أن عبد الله اشترك في ثورة طالب الحق وحارب في وقعة بقديد: مع عبد العزيز بن عبد الله بن عثمان. ولكن المستشرق. دو موتلينسكي (A. De Motylinski) عرض لتفنيد هذه الرواية بحجج وجيهة. حيث ان المصادر الاباضية الموثوق بها تفيد بأن عبد الله مات قبل هذه الثورة بزمن طويل. راجع سيرة عبد الله بن اباض في طبقات الدرجيني (214/2) سير الشماخي (ص77ـ78) الملل والنحل لشهرستاني

(ص168ـ196) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص61ـ62) تاج العروس (مادة أبض) فجر الاسلام (ص260ـ261) الكامل (179/2و180) ضحى الاسلام (337/3ـ338) الكامل للمبرد (ط. Wright ص 610) Beker, Der Islam (412 تعليق 1) «الاباضية للمستشرق A. De Motylinski في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) مقالة «الاباضية للمستشرق T. Leweski في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية). Welhausen, Dies Religios-Politischen opposition parlein in Alten Islam, Berlin, 1910, pp. 9-28.

(6) هو عكرمة بن عبد الله البربري (25ـ105هـ) مولى ابن عباس. تابعي. كان من اعلم الناس بالتفسير والمغازي. وقد روى عنه ما يقرب من 300 رجل. كثير منهم من التابعين. وقد خرج الى بلاد المغرب فأخذ عنه راي «الصفرية» من الخوارج. وعاد الى المدينة فطلبه اميرها فاختفى عنه حتى مات . راجع سيرته في حلية لاولياء (3ـ326)ميزان الاعتدال (2ـ208) وفيات الاعيان (265/3 266) طبقات الدرجيني (1ـ11ـ12) .

(7) ذكره الشماخي بالعبارات التالية: «هو الذي وصل الى المغرب يدعو الناس الى هذا المذهب. وهو يتمنى ظهوره يوما واحدا ويموت في اخر» وقال انه هو الذي دل حملة العلم على موضع ابن عبيده بالبصرة. السير (ص98) قارن طبقات الدرجيني (11/1). راجع الاباضية في موكب التاريخ (25/1ـ26).



ذكر فضائل الفرس من العجم

ونظرنا في كتاب اعلام النبي صلى الله عليه وسلم لابن قتيبه (1) وقد ذكر ابو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الوعظ والزهاد، ان ايوان كسرى اهتز وسقط منه اربع عشرة شرفة ليلة تولد بها النبي صلى الله عليه وسلم، فهاله ما رأى من ذلك فعزم على كتمان ذلك عن وزرائه، فلم تحتمله نفسه وضاق به صدره. فلما كان بالغد من ليلته، اخذ بزته ولباسه وقعد تحت تاجه، فارسل الى وزرائه وأهل مملكته، فلما اجتمعوا عليه تكلم كسرى (2) فقال لهم:

اخبروني بم بعثت به اليكم. فقالوا: ليخبرنا الملك، فأن يكن عندنا شيء اخبرناه به. فقص عليهم خبر الايوان.

وكان من وزرائه رجل يقال له الموبدان فقال: وانا، اصلح الله الملك، رأيت رؤيا أهالتني واقلقتني.

فقال له الملك: يا موبدان (3) هات رؤياك. فقال الموبدان: اني رأيت ابلا صعابا تقود خيلا عرابا (4) حتى انتشرت في دجلة وبلادها.

فقال الملك: أي شيء يكون ذلك يا موبدان؟

فقال الموبدان: لا ادري غير انه حدث يكون في ناحية المغرب. (وبينما) هم في ذلك يتحاورون الكلام، اذ أقبل عليهم راكب (يخبر) بخمود نار فارس (5). وكانت قبل ذلك لم تخمد الف عام، فهاله ذلك باشد مما رأى من الايوان ورؤيا الموبدان و(بينما) هم في ذلك اتاهم آت بغور بحيرة ساوة وفيض ماء السموات، فاشتد جزعه واستشار وزراءه واصحابه. فقال له بعضهم ان في ناحية المغرب علماء الكهنة، فلو بعث الى عاملك. النعمان بن المنذر (6) فيبعث اليك باعلم من فيهم.

قال، فارسل الملك الى النعمان بن المنذر، ان ابعث الي باعلم من في بلادك. قال فبعث اليه النعمان بن المنذر بعبد المسيح بن عمر بن حيان بن ثغلبة (7) الغساني، وقد اتى عليه من السنين نيف وثلاثمائة سنة، وعمر حتى كانت ردة العرب، بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم. فمر به خالد بن الوليد (8) حين صدر من اليمامة، وهو في بلاد الحيرة (9) وهو حي، وله معه حديث ليس هذا موضعه، وكان على دين النصرانية.

فلما قدم على كسرى الملك، قال له: اخبرني فيم بعثت به اليك. فقال عبد المسيح: ليخبرني الملك. فأن يكن عندي شيء قلته، والا اتيت رجلا من بني عمي بمشارف الشام، وهي ماوالي الحجاز من ارض موتة استشهد بها جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه، فيخبرني عن سؤال الملك، من غير ان أسأله فضلا عن أن استخبره.

قال، فاخبره الملك بايوانه ورؤيا الموبدان وكل ما جرى عليه. فقال عبد المسيح، ليس عندي في هذا شيء مما اراد الملك، ولكن انظرنا حتى نقدم الشام وآتيك بعلم ذلك.

قال فمضى عبد المسيح متوجها الى الشام حتى قدمها، وقد اشرف في طريقه على الموت بالعطش.

فلما قدم على سطيح (10) وقف بين يديه، فلم يجب سطيح جوابا، ولم يرفع اليه رأسه. فلما استبطأه عبد المسيح، انشأ يرتجز ويقول:

أصم أم يسمع غطريف اليمن   ام فدفان لم به شأو العنن
يافاضل الخطة أعيت من ومن   أتاك شيخ الحي من آل سنن
وأمه من آل ديب بن حجن   أبيض فضفاض الرداء والبدن
يجوب في الارض علندات شزن   ترفعني وجن وتهوى لي وجن
حتى أتاه عاري الجابي والفطن. الخ.

حتى أتم ارجوزته ورفع اليه سطيح رأسه، فقال جاء عبد المسيح على جمل مشيح أتى الى سطيح، وقد اشفى على الضريح. فقال بعثك ملك ساسان لارتكاس الايوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبدان، وابلا صعابا تقود خيلا عرابا حتى انتشرت في دجلة وبلادها. فقال عبد المسيح، أي شيء يكون ذلك؟

فقال سطيح: اذا كثرت التلاوة. وبعث صاحب الهراوة، وفاضت السماوات وغاضت بحيرة كساوت، فليس الشام لسُطيح بشام. فقال: ما بال الشرفات؟ فقال: يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت. وذكر الجاحظ في كتابه أن سطيحا قضى مكانه. ثم ان عبد المسيح رجع الى كسرى، فلّما كان ببعض الطريق أنشأ يقول:

شمّر فانك ماضي الهمم تشمير   لا يفزغنك إدلاج وتهجير

ان يمسي ملك بني ساسان افرطهم   فان ذا الدهر اطوار دهارير
منهم أخو الصرح بهرام واخوته   والـــــهرمزان وسابور وسابور
فربما ربما اضحوا بمنزلة   يخاف صولهم الاسد المهاجير
والناس اولاد علات فمن علموا   ان قد أقل فمحقور ومهجور
والخير والشر مقرونان في قرن   والخير متبع والشر محذور

فلما وصل كسرى خبره بما قال سطيح، قال له الملك: الى ان تملك منا اربعة عشر، تكون امور عظام. فملك منهم تسعة، فتأخر ملكهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

قال عبد الله بن قتيبة في كتابه، والله اعلم بمن كان به التمام ونرجو ان هؤلاء الذين وصلوا ارض المغرب بتاهرت من ائمتنا، وقد بلغوا فيها درجة عظيمة،وولوها نيفا ومائة وخمسين سنة، فيما ذكره بعض الرواة.

وبلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الاية: «يا ايها الذين امنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى اليه بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء». فاشار الى سلمان الفارسي، وكان سلمان جالسا بين يديه، فقال، ولعلهم أن يكونوا من رهط هذا.

وذكر في الكتاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان لله كنزا ليست من ذهب ولا من فضة، ولكن في ظهور ابناء فارس. وذكر ابن اب (؟) ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشى ذات مرة مع المغيرة بن شعبة (11)، وكان المغيرة اعور، فقال له عمر رضى الله عنه، هل ابصرت بعينك هذه شيئا يا مغيرة؟ فقال المغيرة: نعم، يا مير المؤمنين فقال له عمر: ثم عورت؟ فقال له المغيرة، ثم عورت. فقال له عمر: ليعورن الاسلام كما عورت، ثم ليعمى حتى لا يدري من له ومن عليه. فاذا مرت عليه مائة وستون سنة، رد الله عليه سمعه وبصره بوفد كوفد الملوك طيبة ارواحهم، صالحة اعمالهم.

فسأله المغيرة: من أي ماء يا مير المؤمنين، أمن ماء الحجاز، او من ماء العراق، أو من ماء الشام؟ فولى عنه عمر رضى الله عنه وتركه. ثم ان الفرس وليته على رأس مائة وستين بتاهرت. وذكر بعض اصحابنا ان ولايتهم على رأس اثنتين وستين سنة.

وروي عن زيد بن أسلم (12)، ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا فقصها على اصحابه، فقال، رايت غنما سوداء خالطها غنم بيضاء، فأولتها أن العجم يدخلون الاسلام، وسيشركونكم في نسائكم واموالكم، فتعجبوا من ذلك، فقالوا: العجم، يا رسول الله؟ فقال،«اي، والذي نفسي بيده لو أن الدين

متعلق بالثريا لتناولته رجال من العجم، واسعدهم به فارس».

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق اخر انه قال لو أن العلم معلق بالثريا لناولته الفرس.

وذكر بعض المفسرين في قوله عز وجل: «ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون». فقال بعضهم هم بنو حنيفة، وقال بعضهم الفرس.

(1) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينور، ابو محمد. ولد في بغداد سنة 213هـ وسكن الكوفة ثم ولي القضاء في الدينور وتوفي في بغداد سنة 276هـ. له عدد كبير من التآليف. معظمها مطبوع. من اهمها كتاب «المعاني» وعيون الاخبار. راجع عنه آداب اللغة العربية Ch. Brock. S.I/184 وكذلك مقالة «عبد الله بن قتيبة في دائرة المعارف الاسلامية (1028/2) والمراجع التي احيل اليها، وكذلك (الفهرست) Ch. Pellal, le Milieu bassrien dans la formation de Gâhiz

(2) كسرى انو شروان (531ـ578م). راجع: Basset (R) La Borda de Cheikh El-Boussiri, Paris, 1894, p.51 ; وفجر الاسلام (ص111ـ112).

( ) موبدان. اسم فارسي معناه: «القسيس الاكبر لعبدة النار».

الاعراب: اجراء الفرس. يقال اعرب على فرسه. اذا اجراه. والخيل العراب. هي الخيل العربية السليمة من الهجنة. ومن حديث سطيح: «تقود خيلا عرابا». أي عربية. راجع تفاصيل اخرى في تاج العروس (372/1).

راجع عن الزردشتية وطقوس عبادة النار بين الفرس. الفصل الذي خصصه احمد امين لدين الفرس في ضحى الاسلام (ص98ـ112). والمراجع التي احال اليها.

(6) هو النعمان بن المنذر بن امرؤ القيس اللخمي. ابو قابوس. ممدوح النابغة الذبياني وحسان بن ثابت. من ملوك الحيرة قبل الاسلام. اشتهر بالدهاء والشجاعة. وتعزو اليه الرواية بناء «النعمانية» التي تقع على ضفاف دجلة اليمنى. ورث النعمان ملك الحيرة عن ابيه. وكانت تابعة للفرس. فاستمر في حكمها حتى نقم عليه كسرى أبرويز. فعزله ونفاه الى خانقين حيث حبسه حتى مات في حوالي سنة 602 ميلادية. وبموته الغت الحكومة الفارسية نظام اللخميين واصبحت الحيرة خاضعة لكسرى الذي يولي عليها حاكما فارسيا. راجع عن النعمان ابن المنذر. اليعقوبي (173/1) الكامل (171/1ـ173) العبر (265/2) الاغاني (طبع ساسي (20ـ132) صبح الاعشى (الفهرست) النويري (321/15ـ331) مروج الذهب (30- 201ـ208) فجر الاسلام (ص16ـ18).

(7) كذافي الاصل. والاصح: ابن بقيلة. وقد سمي بهذا الاسم. لانه خرج من ثوبين اخضرين. فقال له انسان: ما انت الا بقيلة!

وهو عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان الغساني (من اهل الحيرة بالعراق). زعم انه باني قصر الحيرة. عاش في زمن الجاهلية وادركه الاسلام (ت. حوالي سنة 12هـ.) ولكنه لم يسلم. بل بقي على النصرانية. له شعر واخبار. وهو ابن اخت سطيح الكاهن المذكور اسفله. راجع عن عبد المسيح الديارات (ص154) البيان والتبيين (74/2) اللباب (136/1) امالي المرتضى (1ـ188) المقتضب (ص72) الجمهرة (ص374هامش3).

(8) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي. الصحابي. أسلم قبل فتح مكة (سنة 7هـ) وولاه رسول الله (ص) الخيل. ولما تولى الخلافة ابو بكر. وجهه لقتال المرتدين من العرب. ثم سيره الى العراق في سنة 16هـ. ففتح جانبا عظيما منه. كما فتح الحيرة. ثم ولي على الشام حتى عزله عمر. وقد مات بحمص (وقيل بالمدينة) سنة ٢١هـ. راجع سيرته في الاصابة (413/1). وتاريخ الخميس (247/2) وفي غير هذين المصدرين من كتب السير التي صدرت حديثا وتتناول حياته بالتفصيل.

(9) قصبة الملوك اللخميين. وكانت تقع على مسيرة ثلاثة اميال من الكوفة وعلى بحيرة نجف. عند تخوم الصحراء. ويعود تخطيط المدينة الى عهد بختنصر في تاريخ لا تحدده الرواية. وقد بلغت الحيرة شأوا معتبرا من الحضارة تحت الملوك اللخميين. فانتشرت فيها صناعة الكتابة وازدهر الشعر في بلاطهم (وفي مقدمة شعراء اللخميين امرؤ القيس والنابغة الذبياني). وقد استمر الاكاسرة بعد عزلهم اخر ملوك اللخميين. على حكم الامارة بواسطة حاكم فارسي. حتى غزا خالد بن الوليد في سنة 12 هـ. واستولى عليها بدون قتال وقبل سكانها دفع الجزية. وبعد ذلك. قلت اهمية الحيرة بازدياد ظهور الكوفة على المسرح السياسي والثقافي. قبل ان تتدهور وتضمحل. راجع معجم البلدان (328/2ـ331) تاريخ الطبري (ط. دوخوية 82/1 وما يليها) البلاذري (ط. دوخويه. ص 241) الكامل (105/6 و131/18) صبح الاعشى الفهرست (ص17ـ18) وكذلك (ص . 138/140).

Rothstein, Dynastie des Lakhmid

(10) سطيح الكاهن. هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدي بن الذئب. من الازد. غساني عاش في الجاهلية ومات في سنة ٥٢ قبل الهجرة. كان العرب يحتكمون اليه ويقبلون بحكمه. وهو الذي عناه ابي الرومي بقوله:

تبدى له سر العيون كهانه   يوحى بما رأى كرأي سطيح.

له اخبار كثيرة يمكن مراجعتها في مروج الذهب (364/3). اليعقوبي (602/1) الجمهرة(ص.375) تاج العروس (مادة سطيح) تاريخ الخميس (201/1).

(11) هو المغيرة بن شعبه بن ابي عامر بن مسعود الثقفي. ابو عبد الله. احد قادة العرب ومن ذوي الحصافة في الرأي من الولاة. بحيث يسمى «مغيرة الرأي». صحابي ولد في الطائف في سنة 20 قبل الهجرة. ولما ظهر الاسلام تردد في قبوله حتى سنة 5 هجرية. فأسلم وشهد الحديبيه. واصيبت عينه في اليرموك. كما شهد القادسية ومواقع نهاوند وهمدان وغيرها. ولاه عمر بن الخطاب (ض) على البصرة ثم الكوفة. ثم عزله. ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية. ابتعد المغيرة عنها وحضر مع الحكمين. وقد ولاه معاوية الكوفة بعد ذلك. ولم يزل عليها حتى مات في سنة ٥٠ هـ. راجع سيرته في الطبري (131/6) الكامل (182/3) الاصابة (ترجمة 8181) اسد الغابة (406/4) المرزباني (ص368) الجمهرة (ص267).

(12) زيد بن اسلم العدوى العمري. فقيه مفسر من المدينة. كان ثقة كثير الحديث وله كتاب في التفسير. راجع عنه تذكرة الحفاظ (394/1).

فضائل البربر من العجم

وبلغنا ان عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها، دخل عنها ذات يوم رجل من البربر، وهي جالسة ومعها نفر من المهاجرين والانصار، فقامت عائشة عن وسادتها، فطرحتها للبربري دونهم، فانسل القوم غضابا، فاستفتا البربري في حاجته ثم خرج، فارسلت اليهم عائشة فالتقطتهم من دورهم، فجاؤا كلهم، فقالت لهم عائشة رضي الله عنها: اراكم قمتم عني غضابا، ولم ذلك؟

قال بعض (هم): غضبنا عليك من أجل رجل جاءك من البربر كنا نزدريه وننقص قومه، فأثرته علينا وعلى نفسك.

قالت لهم عائشة رضي الله عنها: آثرته عليكم وعلى نفسي لما قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت اتعرف فلانا البربري؟ قالوا: نعم.

قالت عائشة كنت انا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا اذ دخل علينا ذلك البربري مصفر الوجه غائر العينين، فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: ما دهاك، امرضت مرضة؟ فارقتني بالامس ظاهر الدم صحيح اللون، وجئتني الساعة كانما نشرت من قبر.

فقال له البربري: يا رسول الله، بتّ بهمّ شديد. قال له النبي صلى الله عليه وسلم، ما الذي همك؟ قال، تردد بصرك علي بالامس، خفت من ذلك انه قد نزلت في آية من الله. قال له النبي صلى الله عليه وسلم لا يحزنك ذلك انما تردد بصري عليك بالامس من اجل جبريل عليه السلام، جاءني فقال لي يا محمد، اوصيك بتقوى الله وبالبربر. قلت يا جبريل، واي البربر، قال: قوم هذا، واشار اليك. قال النبي. فقلت لجبريل: وما شأنهم؟ قال قوم يحبون دين الله، بعد ان يموت ويجددونه بعد اذ يبلى. قال

جبريل، يا محمد، دين الله خلق من خلقه ينشا بالحجاز واصله بالمدينة، خلقة ضعيفة، ثم ينميه وينشئه حتى يعلو ويثمر كما تثمر الشجرة، ثم يقع. وانما يقع رأس دين الله بالمغرب. والشيء اذا وقع لم يرفع من وسطه، ولا من اصله وانما يرفع من عند رأسه.

وبلغنا ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قدم عليه قوم من البربر، لواته، ارسلهم اليه عمرو بن العاص، وهم محلقون الرؤوس واللحا، فقال لهم من انتم؟ قالوا من البربر، لواته، فقال عمر لجلسائه، هل منكم من يعرف هذا القبيل في شيء من قبائل العرب والعجم؟ قالوا ليس لنا بقبيلهم علم. فقال العباس بن مرداس السلمي، ان عندي فيهم علما يا مير المؤمنين. هؤلاء من ولد بربر بن قيس، وكان لقيس عدة من اولاد، احدهم سالم بن قيس، وفي خلقه بعض الرعونة، يعني ضيقا، فقاتل اخوته ذات يوم، فخرج الى البراري، فكثر بها نسله وولده، وكانت العرب تقول تبربروا، اي كثروا. فنظر اليهم عمر رضى الله عنه، وكان اوفدهم اليه عمرو بن العاص (1) وارسل معهم ترجمانا يترجم كلامهم ان سألهم عمر عن شيء. فقال لهم عمر ما لكم محلقوا الرؤوس واللحا. فقالوا: شعر نبت على الكفر، فاحببنا ان نبدل شعرا في الاسلام.

فقال لهم عمر، هل لكم مدائن تسكنون بها؟ قالوا، لا. قال هل لكم حصون تتحصنون بها؟ قالوا، لا. قال، فهل لكم اسواق تتبايعون فيها، قالوا، لا. فبكى عمر رضي الله عنه وقال له جلساؤه، وما يبكيك يا امير المؤمنين؟ قال ابكاني حديث سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يوم حنين، حين انهزم المسلمون، ونظر الي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي، فقال، ما يبكيك يا عمر؟ قلت ابكاني يا رسول الله قلة هذه العصابة من المسلمين واجتماع امم الكفر عليهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنبئنك يا عمر، فأن الله سيفتح للاسلام بابا من المغرب (ب) قوم يعز الله بهم الاسلام ويذل بهم الكفر، اهل خشية وبصائر، يموتون على ما ابصروا، ليست لهم مدائن يسكنونها ولا حصون يتحصنون بها ولا اسواق يتبايعون فيها. ولذلك بكيت الساعة حيث ذكرت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، و ما ذكره لي عليهم من الفضائل، فردهم عمر الى عمرو بن العاص وامره ان يجعلهم في مقدمة عسكره، وكانوا مع عمرو بن العاص حين قتل عثمان بن عفان.

فلما كان هذا الحديث في عصابة من اهل المغرب عن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رجونا ان يكونوا اهل دعوتنا، وأن يستوجبوا فضل هذا الحديث.

وقد بلغنا عن رجل من ذرية ابي بكر، قال، قال علي ابن ابي طالب

(ض)، يأهل مكة، ويا اهل المدينة، اوصيكم بالله وبالبربر، فانهم سيأتونكم بدين الله من المغرب، بعد ان يضيعونه، هم الذين ذكر (هم) الله في كتابه: «يايها الذين امنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يوتيه من يشاء». وهم الذين لا ينظرون في حسب أحد خلاف طاعة الله.

قال البكري، فمن حين وقعت الفتنة انما نقاتل نحن العرب على الدينار والدرهم. واما البربر، فانما يقاتلون على دين الله ليقيموه.

قال وهو يرفع الحديث الى ابن مسعود (2) ان اخر حجة حجها قام خطيبا فقال يا أهل مكة والمدينة اوصيكم بتقوى الله وبالبربر، فانهم سياتونكم بدين الله من المغرب، وهم الذين استبدل الله بكم اذ يقول: «وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونون امثالكم».

والذي نفس ابن مسعود بيده لو ادركتهم لكنت لهم اطوع من امائهم واقرب لهم من دثارهم، يعني ثيابهم.

وبلغنا عن عائشة رضي الله عنها، انها ابصرت صبيا له ذوابتان ذا جمال وهيئة، فقالت، من اي قبيل هذا من السبع، قالوا، من البربر. قالت عائشة، البربر يقرون الضيف، ويضربون بالسيف ويلجمون الملوك لجام الخيل اللجم.

رجع الحديث الى ذكر النفر الخمسة الحملة العلم

احدهم ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري (3) ومعافر قبيلة من العرب (4) وعبد الرحمن بن رستم الفارسي وعاصم السدراتي، واسماعيل بن درار الفدامي.

اخبار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى، الملك الفارسي (5).

كان اصله من العراق وكان ابوه رستم عنده في العلم ان ذريته ستلى ارض المغرب، فاقبل رستم متوجها من العراق ومعه ابنه عبد الرحمن وزوجه ليتوصل الى ارض المغرب منها. فلما كان بمكة او قريبا منها، ادركه حمامه، فانقضت ايامه، فمات. فالتقى ابنه عبد الرحمن وامه مع الحجاج بمكة من اهل المغرب، فتزوجت ام عبد الرحمن رجلا من اهل القيروان، فاقبل بها حتى قدموا ارض القيروان، ونشأ بها عبد الرحمن بن

رستم. فلما بلغ مبلغ الرجال وقرأ وافصح، نظر اليه رجل من اهل الدعوة، فقال له يا فتى، ان كنت طالبا ما أراك تطلبه، فاقصد الى ابي عبيدة، مسلم بن ابي كريمة التميمي (6). رضى الله عنه، تجد عنده ما رجوت.

فسار عبد الرحمن بن رستم الى ابي عبيدة، فالتقى مع النفر الذي ذكرنا، فصافحهم ابو عبيدة وسألهم عن احوالهم ومن اين اقبلوا، فاخبروه انهم من اهل المغرب، وانهم ارادوا تعليم العلم، فأجابهم الى ذلك، ومكثوا عنده سنين عدة. وكان الشيخ ابو عبيدة رضي الله عنه مستخفيا متخوفا من بعض امراء البصرة وادخلهم سربا وجعل فيه سلسلة، فصار يعمل القفاف بباب السرب، فمتى رأى شخصا حرك السلسلة فيسكتون. فاذا انصرف حركها، فيأخذون في عزمهم (7).

وكان عبد الرحمن شابا جميلا حدث السن، وكان ابو عبيدة يجعل بينه وبين الناس سترا لئلا يشغلكم بجماله. فلما بلغوا من العلوم ما قدر الله لهم، وارادوا الانصراف الى بلادهم، كلم العجائز ابا عبيدة وطلبن اليه ان يريهن عبد الرحمن فيدعونه، فاجابهن ابو عبيدة، فادخلهن عليه، وكن ثلاثا، فدعت الواحدة منهن، فقالت بارك الله في عين الشمس، وقالت الثانية، وبارك الله فيك كما بارك في البحر، وقالت الثالثة، وبارك الله فيك، كما بارك في مطيب الطعام من الملح.

قال، فلما عزموا على المسير الى بلادهم، كلموا ابا عبيدة واستشاروه في شأنهم، فقالوا، يا شيخنا، قد كانت لنا في المغرب قوة، ووجدنا من انفسنا طاقة، افنولى على انفسنا رجلا منا، وما ترى؟ فقال لهم ابو عبيدة توجهوا الى بلادكم، فأن كان في اهل دعوتكم ما تجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال، فولوا على انفسكم رجلا منكم، فأن أبى، فاقتلوه فأشار الى ابي الخطاب رضى الله عنه. فلما أراد الخروج من عنده، تهيأ الشيخ للركوب ولموادعتهم وجعل رجله من الركاب، فسأله اسماعيل بن درار عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الاحكام، قبل ان يستوي على متن الدابة، فقال له ابو عبيدة اتريد ان تكون قاضيا يا ابن درار، فقال له اسماعيل بن درار، ارأيت ان ابتليت به يرحمك الله في ذلك الوقت ام قبل ذلك؟ ثم توجهوا الى المغرب، فلما وصلوا عرضوا الامامة على عبد الرحمن بن رستم، فاعتذر اليهم، وقال لهم ان بيدي امانة الناس وبضائعهم، وقبلوا غذره، وتركوه، وارادوا تولية ابي الخطاب ، رضي الله عنه (الامامه).

امامة أبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح رضي الله عنه

ذكر بعض اصحابنا انه لما قدم ابو الخطاب مع اصحابه من ارض الشام الى طرابلس، اهتم بأمور المسلمين من له النظر فيهم من المشايخ، فاجتمع جماعة من المسلمين بعد ما اقتتل الحارث وعبد الجبار والناس في الكتمان، فكانوا يجتمعون ويذكرون عقد الامامة، فاجالوا النظر وأطالوا الفكر فيما بينهم فيمن يولونه امرهم، ان كانت لهم قوة على عدوهم، فكانوا يجتمعون في موضع يقال له صياد غربي المدينة، مدينة طرابلس، يظهرون على انفسهم انهم انما يجتمعون في امر ارض بين قوم ارادوا قسمتها، واظهروا ذلك واعلنوه. وقيل انهم انما يجتمعون على امر رجل وزوجته اختصما، وانما مرادهم الامامة. فاذا اجتمعوا في ذلك الموضع، وفرغوا من كلامهم، توجهوا الى عامل المدينة، فيسلمون عليه مداراة له، حتى اتفق رأيهم على عقد الامامة، فاجتمعت كلمتهم على مبايعة ابي الخطاب، رحمه الله.

وذكر بعض (14) اصحابنا انهم لما اتفقوا على ذلك، جعلوا بينهم موعدا يوما معلوما يجتمعون فيه بالصياد، فاتفقوا على ان كل واحد منهم يأتي بمن خلفه من الرجال، ومن تبعه من الناس، بالسلاح، ويجعلون الدروق في الغرائز، ويحشونها بالتبن.

وكان بينهم وبين مشائخ المسلمين من اهل المدينة ومن لا يقدر على النهوض معهم علامة، اذا رأوها دخلوا المدينة بجماعتهم (و) ان يشهروا السلاح ويظهروها. واخبروهم ان الامام (هو) ابو الخطاب في السر. فلما كانوا بالموعد اجتمعوا فيه بعامة المسلمين من شيوخهم البربر وغيرهم، من نفوسه وهوارة وجريشة، وغيرهم من ابناء القبائل.

فلما توافوا بصياد، وقد اخرجوا أبا الخطاب حين خرجوا، وقالوا امضي معنا على بركة الله وعونه في هذا الامر الذي تحيرنا فيه منذ زمان. قال، فخرج معهم ابو الخطاب ولم يدر ما يريدونه، وهو غافل عن مرادهم فلما وصلوا الى صياد تكلم متكلمهم وقال، اليس قد اجتمع رأينا على ما قد علمتموه؟ قالوا بلى. قال، فاتموا امركم اذا. قال فقامت منهم طائفة ناحية فتكلموا فيما بينهم، ثم رجعوا، فقالوا لابي الخطاب: ابسط يدك لنبايعك على ان تحكم بيننا بكتاب الله وسنة رسوله. فقال لهم ابو الخطاب، استغفلتموني، وليس لهذا اخرجت اليكم. فقالوا له لا بد لك من الدخول في امور المسلمين.

فلما رأى الحقيقة منهم والجد، قال لهم لا اقبل امانتكم الا على شرط. فقالوا له، كل شرط يجوز، فنحن معطوكه ونطيعك فيه.

فقال ، شرطي فيكم الا تذكروا في عسكري مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفا منه عليهم ان لا يكونوا في جماعة المسلمين اختلاف وفرقة.

وقد حدث بعض اصحابنا أن مسالة الحارث وعبد الجبار (8) اتصلت الى ارض المشرق بينهم فيها اختلاف وفرقة، وفي المغرب اشد من ذلك، حتى كتب اليهم ابو عبيدة مسلم وابو مودود حاجب، رحمهما الله، يأمران جماعة المسلمين بالكف عن ذكرهما. فاراد ابو عبيدة ان يقطع الاختلاف من جماعة المسلمين باماتة ذلك.

فقالوا له، لك ذلك علينا، وبايعوه على الاقامة بحق الله فيما في كتاب الله وسنة رسوله واتباع الائمة المهتدين، فقبل مبايعتهم، وانصرف الى المدينة ومعه جماعة المسلمين.

وذكر بعض اصحابنا أن ولاية أبي الخطاب، كانت على رأس سنه اربعين ومائة سنة.

ثم اجتمع رأيهم على دخول المدينة، مدينة طرابلس، وبها عامل لابي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس. ثم انهم عمدوا الى رجال مع سلاح، فحملوها في جوالق في هيئة الرفقة، وجعلوا افواه الجوالق مربوطة في داخل من اسفل، وجعلوا مع كل جمل رجلين بالسلاح.

ولما توسطوا المدينة ولم يفطن بصنيعهم احد، فتحوا الجوالق وخرج الرجال والسلاح من أيديهم، فقالوا: لا حكم الا لله، لا طاعة الا طاعة أبي الخطاب!

وقصدوا الى نحو العامل ليقتلوه، وأبى عليهم ابو الخطاب ذلك، وقال لهم، انما دخلنا عليهم بالامان.

فلما نظر اهل المدينة اليهم، وقد اشهروا السلاح، قالوا، هذه غدرة. وقال لهم المسلمون ليس ذلك بغدر، لا بأس عليكم. فمن اراد منكم العافية فليقم في منزله. فخير ابو الخطاب العامل في الاقامة بالمدينة وينخلع من العماله والخرج بالامان، فاختار العامل الخروج الى ارض المشرق، فدفع الى ابي الخطاب مفاتح بيت المال فاخذ منه، واحسن ابو الخطاب السيرة في احكامه وايامه.

وكانت ولاية ابي الخطاب اربع سنين، فقد ولي على رأس اربعين ومائة سنة.

وبلغنا ان امراة من نساء القيروان كتبت بطاقة الى الامام ابي الخطاب، رضي الله عنه، تشكو اليه جور ورفجومه، فقالت:

«اما بعد يا امير المؤمنين، فان لي بنتا لم احرزها الا في حفرة حفرتها تحت سريري مخافة عليها من الورفجومية ان يفسدوها».

وكانت ورفجومة ولاة القيروان، فلما وصلت البطاقة الى الامام ابي الخطاب، رضي الله عنه، صادفته وهو يتوضأ، وقرأ كتابها وصار يبكي رحمة لها لما نزل بها، فنادى بالصلاة جامعة، فاجتمع اليه الناس، فصلى بهم وصعد المنبر خطيبا، فحمد الله واثنى عليه خيرا ورغب اصحابه في الجهاد، وامر رعيته بالاستعداد للحرب، وخرج ابو الخطاب من المسجد، فلما وصل الى بابه، سل سيفه وكسر غمده، وقال: لا حكم الا لله! ترغيبا للمسلمين في الجهاد وغضبا لله ولدينه.

وبلغنا من طريق اخر ان ورفجومه اخرجو من القيروان امراة وهي تصيح وتقول: اغيثوني معاشر المسلمين من عسكره. فلما اصبح ابو الخطاب، قطع خلفه ليعلم من رجع، فوجد اثر بعض عسكره قد رجع. فامر مناديه ايضا في اليوم الثالث، فنادى، فلما جنهم الليل، رجع من اراد الرجوع، وبقي من له رغبة في الجهاد، وعددهم ستة الاف. فامر ابو الخطاب، رضي الله عنه، (أن) يقطع خلف العسكر، ليعلم ان كان رجع احد «ام لا، فقطعوا» فلم يرجع احد بعد ثلاث.

وقال ابو الخطاب، رضي الله عنه، أنا ضامن لمن مات في غزوتنا هذه الجنة، الا من كانت معه احدى ثلاث خصال:

احداها، قاتل النفس التي حرم الله، والثانية من كان على فراش حرام، والثالثة، من كانت في يده ارض الغصب، وله منها مخرج.

اما من كان على فراش حرام، فليبرأ منه وليستشهد انها ليست بامرأته ويتوب الى الله. واما ارض غيره، اذا كانت في يده، فليتبرأ منها وليستشهد على تركها. واما من قتل نفسا من غير حلها، فليفد نفسه لاولياء القتيل، فان لم يجدهم فليدفع نفسه في سبيل الله، فقام اليه رجل فقال، قد اجتمعت في يا امير المؤمنين، فأمره الامام ان ينتفي من الفراش الحرام ويتبرأ من الارض المغصوبة ويقيد لاولياء القتيل، فان لم يجدهم، فليدفع نفسه في سبيل الله.

وبلغنا ان ابا الخطاب، رضي الله عنه، جاز على مدينة قابس، فحاصر اهلها حتى ضعفوا واذعنوا له بالطاعة، فجعل على المدينة عاملا.

ولما وصل ابو الخطاب، رضي الله عنه الى ارض القيروان حاصرهم باشد الحصار ما شاء الله.

ثم ان عاصما السدراتي مرض مرضا شديدا، وكان من خيار العسكر، وهو احد الخمسة الحملة للعلم، واشد شوكة على اهل القيروان، فسمع اهل القيروان بمرضه وانه اشتهى قثاة، فبعث اهل القيروان رجلا بياعا يبيع القثاء، فسموا منها قثاة وامروه ان لا يبيعها الا لعاصم السدراتي.

قال فمضى البياع بما معه من القثاء الى ان وصل الى العسكر واشترى

لعاصم اصحابه القثاة المسمومة واتوه بها فأكلها، فقطعه السم فمات وهرب البياع حين باعها لهم، فاستشهد عاصم رحمه الله، فصاح اهل المدينة، اين عاصم السدراتي القتيل بالسم. ثم قال (احدهم) مات عاصمكم يا بربرا!

فعلم ابو الخطاب انهم خدعوه، وبلغ فيه موت عاصم (9) مبلغا عظيما، فقال لاصحابه، انهم خدعونا وغدرونا، فسنخادعهم كما فعلوا، فخادعهم، رحمة الله عليه، فامر اهل العسكر ان يأخذوا اسلحتهم ويخلوا اخبيتهم، ويخرجوا تحت الليل، ويأخذوا الطريق شبه منهزمين، فاصبح عسكر ابي الخطاب خاليا، فظن اهل القيروان انهم هزموا لهم ليلا. فقالوا: انهزمت البربر، فاخذوا في طريقهم على اثرهم.

ومضى ابو الخطاب، رحمة الله عليه فيمن معه من الى واد وراء فحص رقادة، وكمن فيه برجله وخيله، فأخذ اهل المدينة في طلب ابي الخطاب رضي الله عنه واصحابه، فلما لحقوهم وجدوهم معسكرين، فترأى ابو الخطاب فيمن معه في وجوههم، فهزموهم، فتبعهم ابو الخطاب واصحابه يقتلونهم حتى دخلوا المدينة معهم، فحصلت المدينة لابي الخطاب، وذلك في سنه احدى واربعين ومائة من التاريخ.

فلما استولى ابو الخطاب على المدينة، استعمل عليها عبد الرحمن بن رستم.

وكان ابو الخطاب في حصاره المدينة قد امر اصحابه الا يفسدوا زرعا من زرعهم.

وحدث بعض اصحابنا ان شيخا من شيوخ القيروان بعث ابنا له يرتاد مزرعة كانت بقرب مناخ عسكر ابي الخطاب رضي الله عنه، فقال: اي بني اذهب وانظر ان كان قد بقي في مزرعتنا شيء. قال، فخرج الغلام الى المزرعة فوجدها كما كانت، لم يفسدوا فيها شيئا، فرجع الغلام الى ابيه فاخبره، فتعجب الناس من عدل ابي الخطاب رضي الله عنه. ومن سيرته وطاعة اصحابه له فيما يأمرهم به من الحقوق.

وقال الشيخ لمن كان بحضرته انما تشبهون دينكم بدين ابي الخطاب، واين مثل ابي الخطاب في عدله وفضله.

وبلغنا ان امرأتين خرجتا من مدينة القيروان حين هزم الله اهلها على يد ابي الخطاب، فنظرت واحدة منها الى القتلى مزملين في ثيابهم، كأنهم رقود، فسمي ذلك الموضع رقاده الى يومنا هذا. فأمر ابو الخطاب اهل المدينة، اذ هزمهم، ان يخرجوا الى قتلاهم ليدفنوهم ، فتفقد ابو الخطاب القتلى، فوجد قتيلا مسلوبا، فامر ابو الخطاب مناديا ينادي في عسكره: من اخذ منكم من القتلى شيئا فليرده. فلما أيس ابو الخطاب منه دعا ان يفضحه الله ويظهره على اعين الناس، فأمر ابو الخطاب اصحابه

ان يركبوا ويجروا خيولهم بين يديه. وكان من اهل العسكر رجل من سدراته، فاجرى اهل العسكر خيولهم، فاجرى معهم.

قال، فانقطع حزام سراجه، فوقع وخرجت كساة سفارية تحت سرج فرسه. وقال بعضهم جبة حرير، فاخذه الامام، فحده، وقال انما نغزو بمن يغزى.

وبلغنا أن ابا الخطاب رضي الله عنه، حين هزمهم، احسن فيهم السيرة، فامر اصحابه الا يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح، فقال رجل من لواته، من عسكر ابي الخطاب، نأكل من اموالهم كفعلهم بغنائمنا. فقال ابو الخطاب، ان فعلنا كما فعلوا، فحقيق على الله ان يرفضنا ويدخلنا معهم جهنم، فنكون كما قال الله تعالى: «كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا ادركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار (10).

ثم ان ابا الخطاب توجه الى مدينة طرابلس وقد استعمل على القيروان عبد الرحمن بن رستم، رضى الله عنه وولاه على ما والاها من المدن، واستعمل عبد الرحمن بن رستم على كتامة رجلا منهم يقال له عبد الله بن عقيبة.

ثم ان الرجل المحدود من سرقة الثوب. توجه مغضبا بما فعل معه ابو الخطاب الى ارض المشرق،قاصدا الى بغداد. يريد ابا جعفر المنصور (11) فلما وصل الى بغداد، وقف على بابه سنة لا يؤذن له (خلالها) بالدخول ولا بالانصراف.

فلما كان عند رأس الحول، أذن له ابو جعفر المنصور، ودخل عليه وخلا معه، فسأله عن حاجته، فقال له، حاجتي ان تنفذ معي عسكراً الى ناحية المغرب، فأمر ابو جعفر بالاستعداد للمسير الى ارض المغرب، فانفذ جيشا الى ناحية المغرب، وجعل عليه محمد بن الاشعث الخزاعي.

(1) عمرو بن العاص بن وائل السهمي. ابو عبد الله. فاتح مصر واحد كبار الساسة الدهاة في الدولة الاسلامية. كان من امراء الجيش في الشام في زمن عمر الذي ولاه فلسطين ثم مصر. ولما وقعت الفتنة اصطف عمرو في صف معاوية الذي ولاه مصر في سنة 38هـ. ولد في سنة 50 قبل الهجرة وتوفي في سنة 43هـ. راجع كتاب حسن ابراهيم حسن: تاريخ عمرو بن العاص. والمراجع التي احال اليها.

(2) عبد الله بن مسعود بن غافل الهزلي. ابو عبد الرحمن. من اكابر الصحابة ومن السابقين الى الاسلام كان مقربا من رسول الله (ص) ورفيقه في الاسفار وفي غزواته. ولي بعد وفاة النبي بيت المال في الكوفه. رويت عنه احاديث كثيرة. وله ترجمات عديدة يمكن مراجعة بعضها في الاصابة (ت4955) حلية الاولياء (124/1) تاريخ الخميس (257/2).

(3) هو عبد الاعلى بن السمح المعافري الحميري اليمني. ابو الخطاب (ستأتي ترجمة ابي زكرياء له). زعيم ديني على المذهب الاباضي. وقائد عسكر شجاع محنك ومن اهل الرأي. ولاه حملة العلم على انفسهم بناء على امر ابي عبيدة. للقيام بالدعوة سرا ثم الظهور بعدما تشتد شوكتهم. وعقب ظهور الدعوة ثار ابو الخطاب واستولى على طرابلس الغرب على غفلة من اهلها في سنة 141هـ. وانفتح امامه طريق افريقية في سنة 141هـ. وبعدما هزم ورفجومه دانت له القيروان التي جعل عبد الرحمن بن رستم. اخد حملة العلم. عاملا عليها. وقد قتل ابو الخطاب في معركة فاجأه فيها جيش العباسيين في «سرت» في سنة 144هـ. وكان عدد جيشه يتراوح بين 12 و14 الف مقاتل. راجع سيرته في سير الشماخي (ص123ـ132) الكامل (316/5) العبر (112/6) الاستقصا (57955/1)البيان (70/1 و82) مرآة الجنان (293/1) وانظر تفاصيل مبايعة ابي الخطاب وحروبه ايضا في طبقات الدرجيني (22/2ـ35) الاباضية في موكب التاريخ (49/1ـ54).

(4) راجع عن معافر بن يعفر. العبر (256/2) النويري في نهاية الارب (303/2) معجم البلدان (472/2) عمر كحاله. معجم قبائل العرب (1115/3).

(5) تعتبر رواية ابي زكرياء عن الرستميين. وعن عبد الرحمن بصفة خاصة. من ادق واقدم واوثق الروايات التي وصلت الينا (ونحن يجب الا يغيب عن اذهاننا ان ابا زكرياء كان يكتب تاريخا لا يفصله عن عصره سوى ما يقرب من قرن من الزمن). ومع ذلك يمكن مقارنة هذه الرواية بالاصابة (ترجمة 5110) سيرالشماخي (ص138) الازهار الرياضيه (84/2) البسكري (ص68) البيان (196/1) الكامل (50/3) طبقات الدرجيني (الفهرست) تاريخ ابن خلدون (ط. دوسلان 154/1) ابن الصغير (ط. A. De Motylinski (ص9ـ10). البرادي. كتاب الـــــــــــجواهر.

Basset (R), les sanctuaires de Djebel Nefousa, Journal Asiatique, 1899, T.II).

ومقاله. «بنو رستم في دائرة المعارف الاسلامية لجورج مارسي».

(6) هو مسلم بن ابي كريمه (ابو عبيدة) البصري. فقيه من كبار علماء الاباضية. اخذ اصول المذهب عن جابر بن زيد وصار مرجعا تشد اليه الرحال. وكان اعور. ويقول صاحب حاشية الجامع الصحيح انه روى ايضا (رواية تابع عن تابع) عن آنس بن مالك. وابي هريره. وابن عباس. وابي سعيد الخدري وعن عائشة. ويقول الشماخي انه تعلم العلوم وعلمها واصبح ممن «يشار اليهم بالاصابع بين اقرانه.. وقد اعترف له بقصب السبق في العلوم». ووصفه الدرجيني الذي يعتبره ضمن علماء الطبقة الثالثة (100ـ150هـ) بانه كان عالما بالكلام وحاجج واصل بن عطاء المعتزلي وغلبه. توفي في نحو سنة 145 راجع سيرته في سير الشماخي (ص83ـ88) سلم العامه (ص6) حاشية الجامع الصحيح (ص6ـ7) لسان الميزان (32/6) طبقات الدرجيني (238/2ـ246). الاباضية في موكب التاريخ (89/1ـ103).

(7) قارن الشماخي (ص142) والدرجيني (21/1) راجع الاباضية في موكب التاريخ (13/3ـ16).

(8) راجع تفاصيل اخرى عن الاحداث التي تتصل بدور هذين الشخصين في سير الشماخي (ص125ـ126).

ولم تجد احدا يدفع عنها. فلما بلغ ابا الخطاب. رضى الله عنه ما حل بها واستغاثتها بمعاشر المسلمين. ولم تجد احدا يدفع عنها. قال ابو الخطاب مجيبا لها: لبيك يا اختاه!

فعند ذلك امر ابو الخطاب رضى الله عنه مناديه بالنفير.

وذكر بعض اصحابنا ان امرأة من اهل القيروان ظلمها ورفجومه. وصاحت من القيروان: يا ابا الخطاب اغثني! فمد الله في صوتها. وسمعها ابو الخطاب رضي الله عنه من مدينة طرابلس. فقال مجيبا لها: لبيك يا أختاه!

فعند ذلك امر بالنفير. فعسكر على طرف المدينة. حتى اجتمع اليه من اصحابه جموع كثيرة.

ثم ان ابا الخطاب . رضى الله عنه. خرج بمن اجتمع من اصحابه. وتبعه عبد الرحمن بن رستم. رضى الله عنه. فخرجوا في سنة قحلة ذات قحط وجوع وجدب. فامرهم الله فيها بالجراد. فاذا نزلوا نزل عليهم. واذا ارتحلوا. ارتحل معهم.

وبلغنا ان ابا الخطاب. رضي الله عنه. لما خرج. امر مناديه. فنادى. ايها الناس! من كان له ابوان كبيران او (اب) واحد. فليرجع. ومن كانت له عروس قريب العهد بها. فليرجع. ومن كانت له غروس صغار. فليرجع. ومن اراد منكم الرجوع. فليرجع بليل. فلما جنهم الليل. رجعت طائفة من عسكره.

فلما كان بالغداة. امر خيلا تقطع وراءه. فوجد اثر الناس قد رجعوا. فامر مناديه. فنادى. وامرهم ان لا يرجعوا الا بالليل. فلما جنهم الليل. رجعت طائفة .

(9) قارن عن وفاة عاصم السدراتي. سير الشماخي(ص128ـ129)وطبقات الدرجيني (28/1ـ29) تسمية شيوخ نفوسه (ص21). تعليق (73ص77).

(10) قارن عن هذه الاحداث. العبر (190/4) البيان (61/1ـ71) الكامل (311/5ـ317) اليعقوبي (385/2ـ386).

(11) عبد الله بن محمد بن على بن العباس. ثاني (ابوالعباس) الخلفاء العباسيين ولد في الحميمة في سنة 95هـ . وهو والد الخلفاء العباسيين جميعا. عرف ابوجعفر برعايته للعلوم والفلسفة. وكان هو نفسه عارفا بالفقه والادب. ومن آثاره بناء مدينة بغداد التي امر بتخطيطها في سنة 145هـ. وجعلنا عاصمة الخلافة عوضا عن الهاشمية التي بناها السفاح. وقد مات ابوجعفر في اراضي مكة سنه158هـ. راجع سيرته في البدء والتاريخ (90/6) تاريخ الخميس (324/2) اليعقوبي (100/3) مروج الذهب (180/2ـ194) الكامل (172/5و6/6) الطبري (292/9ـ322).



سير ابن الاشعث (1) الى افريقية

وذكر بعض اصحابنا ان عدة العسكر خمسون الفا، وقال بعضهم بل سبعون الفا، وجعل على طائفة من العسكر رجلا دون ابن الاشعث وامره ان يطيع ابن الاشعث. فتوجه ابن الاشعث من المشرق قاصدا الى ابي الخطاب.

فلما فصل عنه عسكره من مصر، ارسل عيونه الى عسكر ابي الخطاب، وبعث ابو الخطاب عيونه، فصارت العيون تختلف الى الفريقين بكل ما حدث فيهما. فقد (عاد) عيون ابن الاشعث من عسكر ابي الخطاب، فسألهم عن اخبار ابي الخطاب، وقالوا نجمل ام نفسر؟ فقال لهم، بل اجملوا، فقالوا رأينا رهبانا بالليل اسرابا بالنهار، يتمنون لقاءك، كما يتمنى المريض لقاء الطبيب. لو زنى صاحبهم لرجموه، ولو سرق لقطعوه. وخيلهم من نتاجهم، ليست لهم بيت مال يرزفون منه، وانما معاشهم من كسب ايديهم.

فلما وصفوا لابن الاشعث من اخبار ابي الخطاب واصحابه، رحمة الله عليهم ما وصفوا من ذلك، استشار العامل المأمور له بالطاعة بالرجوع، فأبى له ذلك. ولما رأى ابن الاشعث ذلك تخوف من افتراق الكلمة، عمد الى الرجال من عسكره، فاعطاهم هيئة المسافرين، واعطاهم كتابا يأتون به على لسان ابي جعفر المنصور ، فأمرهم ابن الاشعث ان يتنحوا عن العسكر، فاذا كان اوان الضحى، اقبلوا وكأنهم جاؤا من المشرق من عند ابي جعفر، من بغداد.

فلما كان الوقت الذي امرهم فيه بالاقبال الى العسكر، اقبلوا، فابتدرهم الناس من كل نواحي العسكر، واتوا بهم محمد بن الاشعث الخزاعي واعطوا له كتابا فقرأه ابن الاشعث وامر الناس بالرجوع، واظهر لهم ان ابا جعفر يأمره بذلك، ويقول انه قد ظهر بأرضنا ما نحن احوج اليه (العسكر) مما انتم فيه.

فرجع ابن الاشعث وكره صاحبه الرجوع. فلما رآه ابن الاشعث كذلك ارسل اليه، فامر به فقتل، فخيل الى الناس ان ابا جعفر بذلك، فضم الى نفسه العسكرين.

ثم ان ابن الاشعث كر راجعا الى المشرق وتباطأ في مسيره، وقرب المراحل والعيون تختلف بالاخبار (ل) كلا الفريقين. فاذا ارتحل ابن الاشعث من اول النهار (ارتحل) من اول النهار. فاذا انتصف النهار نزل. فاذا كان بالغداة ارتحل، والعيون التي لابي الخطاب، كلما رأوا ابن الاشعث، رجعت طائفة منهم مرحلة. وابن الاشعث، كلما ارتحل مرحلة، امر خيلا تقطع الاثر من خلفه، ان كان بقي في عسكره من عيون ابي الخطاب شيء ام لا. وعيون ابن الاشعث في عسكر ابي الخطاب مقيمة.

فلما وصلت عيون ابي الخطاب اليه من عسكر ابن الاشعث تخبره برجوعه، وقد اجتمع علي ابن الخطاب قريب من سبعين الفا، ابتدره الناس بالرجوع الى منازلهم ومواطنهم، وذلك في زمان الحصاد.

فقال لهم ابو الخطاب، يا قوم، ان العرب اصحاب مكر وخداع، فلا تفترقوا عن ملككم، حتى تستيقنوا برجوع القوم، فغلبته العامة، فأذن لهم ابو الخطاب، رحمه الله، فسار كل الى منزله ووطنه، فتفرقوا عن أبي الخطاب، وكل ذلك (على مرأى من) عيون ابن الاشعث مع ابي الخطاب، فلما تفرقت جنوده وجموعه، اسرعت العيون السير الى صاحبهم يخبرونه بافتراق العسكر عن ابي الخطاب، فكر ابن الاشعث راجع يطوي المراحل طيا، فلم يشعر بهم ابو الخطاب حتى غشيت عساكره حيز طرابلس، بعد رجوع ابي الخطاب الى مدينة.

فقال ابو الخطاب، ان العدو قد غشي حريمي ولا يسعني ان اقعد ولا أدافع عن رعيتي. فهذا ما اقول لكم: ان العرب اصحاب مكر وغدر وخداع ونكر.

قال ففرق ابو الخطاب رسله في البلدان التي وليها يستنفرهم ويستمدهم. وارسل الى عبد الرحمن بن رستم يستنفره ويستمده ويستحشده.

فامر ابو الخطاب اصحابه بالخروج، واشار عليه بعضهم بالاقامة حتى يأتيه امداده من عماله ورعيته، فأبى عليهم وقال لا يسعني المقام بعد دخولهم حريمي ورعيتي الا ان ارد ظلمهم، او الحق بالله.

قال فخرج ابو الخطاب فيمن حضر من اصحابه ومن كان بقرب المدينة من نفوسة وهوارة وجريشه وسائر البربر، يريد محمد بن الاشعث الخزاعي، فلقيه بتاورغا، وكان بينها وبين المدينة مسيرة ثمانية ايام، فيما قيل، والله اعلم.

(1) محمد بن الاشعث بن عقبه الخزاعي. كان احد كبار القواد في خلافة ابي جعفر. وقد وجهه الخليفة الى المغرب عقب هزيمة جيش ابي الاحوص العجلي في بداية ثورة ابي الخطاب. وقد دخل ابن الاشعث القيروان في سنة 146. واستقر له الامر في افريقية حتى ثار عليه عيسى بن عجلان على رأس جماعة من قواد الجيش واخرجوه في سنة 148هـ. وقد مات في غزف بلاد الروم سنة 67هـ. راجع سيرته في الولاة والقضاة (ص108) دول الاسلام للذهبي (78/1) الجمهرة (ص241) النجوم الزاهرة (346/1) الكامل (317/5 و318).

مقتل ابي الخطاب واصحابه رضى الله عنهم

حدث غير واحد من اصحابنا ان ابا الخطاب لما سمع باقبال ابن الاشعث اليه، خرج، فيمن خرج معه من البربر، فاغذ السير الى ابن الاشعث، فوجده ابو الخطاب، وقد سبقه الى الماء ونزل عليه.

فقال ابن الاشعث لاصحابه، ان نزل ابو الخطاب ومن معه فاستراحوا وسقوا كرعهم، واستقوا، فانكم لا تقدرون لهم على شيء، والا، فانتم اقدر عسيء منهم عليكم. وقد بدأت (المعركة بين) الفريقين بموضع يقال له تورغا بقرب مدينة طرابلس على مسيرة اربعة ايام. فيما قيل، والله اعلم.

فلما وصلهم ابو الخطاب، تاقت نفوسهم الى لقائهم والجهاد في سبيل الله، والناس على بصائرهم، ولاقوهم، وابو الخطاب في قلة وابن الاشعث واصحابه في كثرة، فاسرع القتل في اصحاب ابي الخطاب، وكان بينهم قتال شديد، فصار الرجال في الصفين (1) كالحيطان.

ولم يبرح ابو الخطاب ، رحمه الله، بقلة من معه من المسلمين، حتى استشهدوا. و(قد) استشهد معه اربعة عشر الفا فيما ذكر بعض الرواة. وذكر اخرون اثني عشر الفا، ولم يفلت من عسكره الا اليسير، فتسامعت رعيته بمقتله، فهربوا الى الجبال ولجأوا الى الحصون المنيعة والقلاع العالية.

وبلغنا ان عبد الرحمن بن رستم، لما وصلت رسل الامام ابي الخطاب اليه يستنفره، اسرع السير، فادركه (خبر) مقتل ابي الخطاب ومن معه من المسلمين،بمدينة قابس، فافترقت عساكره، ومر مستخفيا حتى دخل القيروان.

فلما سمع عبد الرحمن بن حبيب بمصاب ابي الخطاب ومن معه من المسلمين، بافتراق عساكره، ثار في مدينة القيروان، وطلب عبد الرحمن بن رستم، فلم يصبه، ولم يقدر عليه، فما زال يبحث عن اخباره ويتكشف عن اثاره حتى ظفر به، فابتدر رجل من اهل المدينة من اصحاب عبد الرحمن بن رستم الى عبد الرحمن بن ابي حبيب، فشفع فيه، فقال ايها الامير، لي اليك حاجة.

فقال له ابن حبيب، حوائجك كلها مقضية، الا عبد الرحمن ابن رستم.
فقال له الرجل القروي، ان لم اسألك في عبد الرحمن ابن رستم ففيمن اسألك؟

قال، فتركه له ابن حبيب.

وبلغنا ان عبد الرحمن بن رستم رضي الله عنه، قال في عبد الرحمن بن حبيب، قبل ذلك، وقد ارادوا استعماله في بعض امور المسلمين، قال:

يا معشر المسلمين، لا تولوا عبد الرحمن بن حبيب امور المسلمين، فانه ابليس الا ان عليه بشرة بني ادم، فحقدها عليه ابن حبيب.

فلما افترقت جنود ابي الخطاب وجنود ابن رستم، (2) جعل عليه ابن حبيب الطلب، حتى شفع فيه القروي .

خروج عبد الرحمن بن رستم من القيروان

وبلغنا ان عبد الرحمن بن رستم خرج من القيروان، هو وابنه، عبد الوهاب وعبد لهما، خائفين مستخفيين، فتوجهوا الى ارض المغرب، ولم يكن معهم الا فرس واحد، فمات لهم ببعض الطريق ودفنوه، مخافة ان يقتص اثرهم فيطمع فيهم من يتبعهم ويجتهد في طلبهم، ان علم بموت فرسهم، فسمي ذلك الموضع الفرس.

وقد ضعفت قوة الشيخ عبد الرحمن، فصار يحمله عبده تارة وابنه تارة (اخرى). فاذا حمله العبد، قال له عبد الوهاب ان ادركنا العدو، فلا تضعن ابي اذا لم يكونوا الا دون خمسمائة، او نحوها. فاذا اعيا العبد حمله عبد الوهاب، فقال له العبد مثل ذلك.

فلما وصلوا الى حوالي سوف اجج، وكان جبلا منيعا، تيممه عبد الرحمن وقصده والتجأ اليه.

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف عمن حدثه ان عبد الرحمن بن رستم لحقه بسوف اجج ستون شيخا من مشائخ الاباضية من طرابلس.

وتسامع ابن الاشعث بخبر عبد الرحمن واجتماع الناس عليه، (فـ) اقبل مجدا في طلبه، فاخبر انه في جبل منيع يقال له سوف اجج، فقصده حتى وصله، وحاصر عبد الرحمن بن رستم واحدق على عسكره في حصاره اياه، مخافة ان يفاجئهم عبد الرحمن ومن معه من المسلمين ويطرق عليهم بليل. فأطال المقام تحته، فوخم عسكر ابن الاشعث ووقع فيه الجدري، فمات منهم بشر كثير وجمع ابن الاشعث اصحابه وقال لهم ان هؤلاء القوم في جبل منيع يقال له سوف اجج لا يدخله الا دارع او مدجج، ماذا ترون؟

فأشار عليه بعضهم بالاقامة تحتهم، واشار عليه اخرون بالارتحال عنهم، فأخذ برأي الذين اشاروا عليه بالارتحال، فأرتحل الى مدينة القيروان، وقد أيس من (ادراك) عبد الرحمن واصحابه، ودخلها وتحصن فيها.

(1) في الاصل كلمة غير مفهومة شكلها: تنهد.
(2) في الاصل كلمة زائدة: ولذلك.

ولاية أبي حاتم (1) رضى الله عنه وأرضاه

وحدث غير واحد من اصحابنا ان ابا حاتم يعقوب ابن لبيب الملزوزي (2) ولي مدينة طرابلس في رجب سنة خمس واربعين ومائة، ومكث فيها اربع سنين، وكانت ولايته، ولاية الدفاع، وطلب الحق، وكان يرسل بما جمع من الصدقات للامام عبد الرحمن بن رستم، قبل ان يتولى عبد الرحمن ولاية الظهور.

وسبب ولاية ابي حاتم ان جماعة من المسلمين من بقية اصحاب ابي الخطاب لما انسوا من انفسهم من حيز طرابلس قوة بعد ابي الخطاب. وكان لهم عدة، اظهروا عن انفسهم انهم يريدون الاجتماع على امر امرأة مسلمة، وكان زوجها رجل سوء ساءت سيرته اليها، فاظهروا الاجتماع لشأنها وهم يريدون الخروج على جند طرابلس وعامل ابي جعفر، كما فعل اصحاب ابي الخطاب اول مرة حتى ولوه، فسمع باجتماعهم عامل المدينة، مدينة طرابلس، فاخرج اليهم خمسمائة فارس، وجعل عليها عاملا.

فلما وصلتهم تلك الخيل، قال لهم عاملها، اجيبوا الطاعة لامير المؤمنين. فقالوا اجبنا الطاعة لامير المؤمنين، يعنون عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ويريد العامل ابا جعفر.

قال، فرجعت الخيل الى عامل الجند بمدينة طرابلس، فاخبروه الخبر، ان القوم قد اجابوا الطاعة لامير المؤمنين فلم يقنعه ذلك منهم.

ثم ان جميع من ينظر اليه من خيار المسلمين اجتمعوا ليلتهم تلك، فاتفقوا على عقد الولاية لابي حاتم، ولاية الدفاع، فعقدوها له من ليلتهم.

فلما اصبحوا، خرج اليهم عامل الجند بسيفه وبخيل عظيمة، فلما اتاهم، قال لهم، اجيبوا الطاعة لامير المؤمنين. قالوا، اجبنا الطاعة لامير المؤمنين. قال لهم، اجيبوا الطاعة لامير المؤمنين ابي جعفر. فقالوا له، عليك لعنة الله وعلى ابي كافر معك، يعنون ابا جعفر، وكان ابو جعفر يلقب بأبي الدوانيق. ثم ان عامل الجند ناصبهم القتال وناجزهم اياه، فاقتتلوا قتالا شديدا، فهزمهم ابو حاتم ومن معه من المسلمين، واكثرهم من البربر، وهم الذين كانوا مع ابي الخطاب، (وساروا) حتى دخلوا مدينة طرابلس، وقتلوا منهم بشرا كثيرا.

وبلغنا ان ابا حاتم لما هزم الله على يده العدو، كان معه من عوام البربر من لم يعود النظر في امور الدين، غير انهم سلموا لامر المسلمين واحكامهم، وعمدوا الى اسلاب المقتولين، فاخذوها وانتزعوا ثيابهم، فغضب

ابو حاتم في ذات الله بفعلهم ذلك، فقال لهم: ليس من سيرة المسلمين، اذا قتلوا من بغي عليهم من اهل التوحيد، وكفى الله مؤنتهم،ان يطلبوا من انهزم او يجهزوا (3) على جريحهم، ولا ان ينتزعوا ثيابهم، ولكن يقال لهم، اذا انهزموا،وكفى الله الملسمين مؤنتهم، ارجعوا الى قتلاكم وادفنوهم وخذوا ثيابهم. والان، ان لم تردوا ما اخذتم من امتعتهم، فقد اعتزلت اموركم وتركت ولايتكم وبرئت منها اليكم.

فلما سمعوا ذلك منه، اطاعوه وردوا اسلاب المقتولين.

وقد دخل يوما ابو حاتم، رحمه الله، مدينة طرابلس، مع هزيمتهم، فاقام ما شاء الله، ثم نادى بالخروج الى افريقية.

وبلغنا انه خرج اليه جيش من افريقية، فتلقاهم ابو حاتم ببعض الطريق، فقاتلهم، فهزمهم الله، فاحسن فيهم السيرة، وامر الا يتبع مدبرهم، ولا يجهز (4) على جريحهم،ولا تؤخذ اسلاب المقتولين منهم. وقد تقدم الى الناس في ذلك ونهاهم عليه. فلما قدم مدينة القيروان، حاصر اهلها سنة، وطال على اهلها الحصار، فالقوا اليه بأيديهم، فأذعنوا له بالطاعة، الا ما كان من ابن الاشعث (5) فانه انحاز وانحجز في دار الامارة في بقية اصحابه الذين قدم بهم من ارض المشرق، فحاصره ابو حاتم سنة اخرى بعد دخوله المدينة، فاجلى ابو حاتم من بها من بقية جند ابن الاشعث، فأعطى لكل خمسة منهم (29) قربة وخشبة يحملون عليها قربتهم، واعطاهم خنجرا يصلحون به نعالهم، واعطى لكل واحد من الخمسة رغيفا من خبز لزادهم، فتفرق اولئك الاسارى وانصرفوا الى المشرق.

وذكر بعض اصحابنا ان السدراتي المحدود من السرقة الذي جاء بالعسكر من ارض المشرق من عند ابي جعفر، ندم على ما فعل حين ظفر باخوانه واهل مذهبه عدوهم، فابادهم بايدي اعاديهم، (ف) عمد الى بقية الاسارى، فخرج معهم يريد ارض المشرق، فاظهر لهم انه يريد ان يردهم الى منازلهم ويوصلهم الى مواطنيهم، فأعمى بهم وأخذ بهم طريقا لم يكن به ماء، فاستهلكهم عن آخرهم، وهم في كثرة. والله اعلم أي ذلك كان.

(1) يعقوب بن حبيب الكندي بالولاء. ابو حاتم. الاباضي. ثار على رأس جمع كبير من البربر في سنة 151هـ. وهزم جيوش عمر بن حفص. امير افريقية. عند طرابلس. وحاصر القيروان. فقاتل عمر حتى قتل. وظل يغزو ويقتل في البلاد متخذا جبل نفوسة قاعدة. حتى سير اليه الخليفة يزيد بن حاتم على رأس جيش يبلغ عدد رجاله ستين الف مقاتل. مات ابو حاتم في سنة 155هـ. ورواية ابي زكرياء تضيف كثيرا من التفاصيل والمعلومات المعروفة عن هذه الاحداث. قارن المنهل العذب (55/1 وما يلها).

(2) في الاصل: لبيد الملزوزي.

(3) في الاصل: ولا يجيروا.

(4) في الاصل: ولا يجاز

(5) الصواب ما ذكرناه في الهامش السابق من ان الذي حاصره ابو حاتم هو عمر بن حفص الذي قتله ثوار ابي حاتم في سنة 154هـ. واما ابن الاشعث. فقد مات. كما سبق ان اوردناه. في سنة 148هـ. ولمن يريد المزيد من التفاصيل عن هذه الاحداث. مراجعة الكامل (5/598ـ600) البيان (1/76) العبر (4/192) الاستقصاء (1/58) سير الشماخي (ص2ـ13) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص186ـ188).



ذكر وقعة مغمداس (1)

وبلغنا ان ابا حاتم سمع بطوالع اقبلت من المشرق فخرج من مدينة طرابلس، فتلقاهم بموضع يقال له مغمداس، وهو على مسيرة ثمانية أيام من مدينة طرابلس، فلما وصلهم ابو حتم لاقوه (2)، فاقتتلوا قتالا شديدا، فهزم الله له العدو. ومنحهم اكتافهم، فقتل منهم ستة عشر الف.

وبلغنا ان رجلا من اهل الحضر نظر الى رجل من اهل الدعوة فقال له الحضري، ما تفسير تاورغا، يذكره مقتل ابي الخطاب رضى الله عنه، ويعيره بذلك، وكان صاحبنا فطنا حاذقا، فاجابه، فقال: تفسيرها: مغمداس، فيه اربعة اكداس، في كل كدس اربعة الاف رأيتها. ثم ان ابا حاتم لما قتلهم رجع الى مدينة طرابلس وحسنت حالته بها.

(1) ذكر البكري مغمداس وقال انه يبعد بمرحلة عن قصر حسان وبمرحلة عن سرت (ص7). وهذا المكان. بدون شك. هو الذي يذكره الادريسي باسم قصر مغداش (ص 134) ويقول انه يبعد عن سرت بمجرى ونصف. وهذا التحريف لا بد وان يكون ناجما عن سقوط الميم. لان الكلمة وردت بحرف الشين المعجمة في فتوح مصر لابن عبد الحكم (ص149). ولربما كان هذا هو المكان الذي اورده ياقوت في معجم البلدان (5/158) باسم «معمراش» واكتفى بالقول بانه «موضع بالمغرب» (وهو نفس التعريف الذي اورده صاحب مراصد الاطلاع). ومغمداس هو ايضا رسم ابن خلدون والشماخي. والجدير بالذكر ان المستشرق الرحالة بارث (Barth) حاول التعرف عن مغمداس في مرسى الزعفران التي تقع على مسيرة يوم من سرت في شرق طرابلس(راجع: Vandrungen.T.I. (p.375) وهذا التعرف قد اكده المستشرق ليوسكي (Lewiski) البولندي في دراسته القيمة عن الاباضية المعنونة Etudes abadites (I/55)

(2) في الاصل: صافوه.

مقتل ابي حاتم وأصحابه، رضى الله عنهم

وبلغنا ان ابا حاتم لما تمكن في مدينة طرابلس، دست الكتب بقية اهل المشرق من طوالعهم والمخالفين من اهل مدينة القيروان الى ابي جعفر ببغداد يشكون ابا حاتم، وانفد الى ابي حاتم جيشا كبيرا واستعمل عليه يزيد بن حاتم الازدي.

قال، فلما انفصل يزيد بن حاتم من مصر بعسكره، وسمع ابو حاتم بخبره، جمع اصحابه ومن ولي عليه من القبائل من نفوسه وهوارة وحريشة واخلاط البربر، فحظهم على الجهاد ورغبهم في الاستشهاد. ثم ان يزيد بن حاتم، لما قرب من حزي طرابلس، خرج اليه ابو حاتم ومن تبعه من المسلمين الى موضع يقال له جنى، فمدت قبيلة من البربر من هوارة يقال لها مليلة يزيد بن حاتم، فسأل ابو حاتم عمن اعان عليه من البربر، ومن كان مع يزيد، فقالوا له ليس معه خلا مليلة. فقال ابو حاتم، اللهم ذل مليلة، فبلغت فيهم دعوة ابي حاتم، فاستجاب الله فيهم. وكذلك كانوا من (بين) سائر البربر.

وبلغنا ان الموضع الذي كانت فيه معركتهم يتضىء من كل ليلة خميس ويبصر ضياؤه من مكان بعيد، او قد سطع في الهواء وامتد صاعدا. وقد ذكر بعض اصحابنا ممن في عصرنا هذا انه رآه وهو نور ساطع وضياء عظيم.

وحدث يعقوب بن يوسف الياجراني الملقب بابي منصور انه مر به صاحب له وقد سكنا بجبال ذلك الموضع في احياء من البربر، فجاز به يعقوب وصاحبه بليل مظلم وقصدا ذلك الموضع. فلما وصلاه، وجدا مكان معركتهم في مطمئن من الارض، فشقاها، فاستبان اثر الهوام الصغار بالليل البهيم لما فيه من الضياء الساطع.

فلما خرجا منه دخلا في ظلمة عظيمة، التفتا وراءهما، فاذا الضياء والنور ساطع في الهواء والظلمة تحفه من جوانبه، فصارا يدعوان الله تعالى حتى توسطا مكان المعركة.

وكان يعقوب بن يوسف رجلا شجاعا شديد المراس (1) قوي الطبيعة لا يهتز لشيء من خور.

(1) في الاصل: المرة.

امامة عبد الرحمن بن رستم (ض)

وحدث غير واحد من اصحابنا ان عبد الرحمن بن رستم رضي الله عنه، ولي بتاهرت سنة ستين ومائة، وذكر بعض اصحابنا انه انما ولي على رأس اثنين وستين (ومائة) سنة. والله اعلم اي التاريخين انفذ.

وسبب ولايته ان جماعة المسلمين اتفقوا ان ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حرزا وحصنا للاسلام، فارسلوا الروافد في الارض، فرجعوا فدلوهم على تاهرت، فاتفق جمهور المسلمين مع اهل تاهرت القديمة على اشياء معلومة ان يأخذوها من غلتها.

وقد كانت قبل ذلك غياظا عامرة بالوحوش والسباع والهوام. فلما اتفقوا على عمارتها، امروا مناديا ينادي، الى من بها من الوحوش والسباع: ان اخرجوا، فأنا اردنا عمارة هذه الارض، واجلوا لها ثلاثة ايام(1).

وبلغنا انهم رأوا بها وحشا تحمل اولادها في افواهها، خارجة منها، فكان ذلك مما رغبهم فيها وزادهم بصيرة في عمارتها وانشائها.

ثم انهم اطلقوا فيها النيران، واحرقت النيران ما عليها من اشجار.

وقد عمدوا الى اصول تلك الاشجار ودوحها فغسلوها فصاروا يدفنون الحيس تحت اصول تلك الاشجار (2). فلما جنهم الليل طرقت الخنازير تلك الاشجار، فصاروا يحفرونها حتى اتت على اخرها، حيث شمت ريح ذلك الحيس. فلما اصبحوا، وجدوها كلها مقتلعة على وجه الارض ثم انهم عمدوا الى مكان فاصلحوه لصلاتهم، فلما أرادوا ان يبنوها انتخبوا اربعة امكنة واقترعوا عليها ايها يجعلونه للمسجد الجامع،فوقعت قرعتهم على المكان الاول الذي اصلحوه للصلاة، فبنوا المسجد الجامع، فاخذوا في انشائها وعمارتها، فجعلوها ديارا وقصورا (3).

ثم ان جماعة من المسلمين من اهل النظر منهم، وجدوا في انفسهم قوة وانسوا طاقة، فارادوا التولية، فنظروا في عامة القبائل، فوجدوا في كل قبيلة رأسا او رأسين، كل يصلحون للامارة، فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم ان عبد الرحمن ابن رستم الفارسي، رضى الله عنه ممن لا تجهلون فضله، وهو احد الخمسة الحاملين للعلم، وعامل الامام ابي الخطاب رضى الله عنه.

وقد عرض عليه المسلمون الامامة قبل تولية ابي الخطاب، فاعرض عنها ودفعها عن نفسه، ولم يردها، ولا سيما وانه ليست له قبيلة تمنعه اذا تغير وتبدل.

وقالوا اذا رأيتم ان تولوه امور المسلمين، فافعلوا، فاتفق رأيهم جميعا على توليته ومبايعته، فبايعوه على الامامة بكتاب الله وسنة رسوله،

صلى الله عليه وسلم، وآثار الخلفاء الراشدين المهتدين، فقبل عبد الرحمن امانتهم (4) واحسن السيرة في امامته (5) ولم ينقم عليه احد في حكومة ولا في خصومة، ولم يكن على يديه افتراق الاباضية يومئذ. كلها مجتمعة مؤتلفة (6) لم يثر منها ثائر.

وبلغنا ان الوالي على اهل عمان في امامة عبد الرحمن، رجل يقال له الوارث، وابو عبيدة، رحمه الله، حي. وفي امامة عبد الرحمن توفي.

ثم ان عبد الرحمن اتصلت اخباره الى اهل البصرة من اهل دعوة المسلمين، فبعثوا اليه بثلاثة احمال مالا.

فلما وصلت الرسل الى تاهرت، صاروا يسألون عن دار الامارة وقد كانوا خلفوا احمالهم خارجا. فلما نعتت لهم الدار، قصدوا نحوها، فاذا الامام رضي الله عنه فوق البيت يعمل السقوف والعبد تحته يناوله الطين، فسألوا العبد ان يأذن لهم، وقد ايقن العبد ان الامام سمع كلامهم، اخرهم قليلا، فنزل عن الحائط وغسل الطين عن جسده، فأذن لهم فسلموا عليه، فرد عليهم، فوضع لهم شيئا من خبز مفتت، وعصر عليه عسكة.

فلما اكلوه، استأذنوه ان يتناجوا عنه، فاذن لهم، فتناجوا عنه فيما بينهم، واجمع رأيهم على انهم راضون عنه، فاتفقوا ان يدفعوا له المال.

فلما وصلت الجمال الى عبد الرحمن، شاور اصحابه فيها، فأشاروا عليه ان يأخذها فيبثها في فقراء المسلمين و(في شراء) السلاح والعدة (7) ففعل، رحمه الله ذلك، بمحضر تلك الرسل، فلما رجعت الرسل الى المشرق، اخبروا اهل دعوتهم بعدل عبد الرحمن وفضله وورعه (فـ) بعثوا له باموال اكثر من الاول (8) .

فلما وصلت الى عبد الرحمن، شاور اصحابه، فقالوا له: رأيك امير المؤمنين، فلما ردوا الرأي اليه، قال لهم: اما اذا اردتم الينا رأيها، فرأيي فيها ان ترجع الى اربابها، فهم احوج اليها منا، وقد استغنينا وقوينا، فشق ذلك على الرسل، وليس عليهم بد من طاعة امامهم، فردوها الى المشرق، فعجبوا من زهادته في الدنيا ورغبته في الآخرة، فاقروا بأمامته وواصلوه بكتبهم ووصاياهم.

ثم ان تاهرت كانت حرزا وحصنا لجماعة المسلمين وسميت بام العسكر، عسكر المبارك. فلما حضرت الوفاة عبد الرحمن، رضى الله عنه، جعلها شورى في سبعة نفر (9) صنيع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، احدهم، مسعود الاندلسي، وكان رجلا فاضلا، فقيها ورعا من شيوخ المسلمين، ومنهم ابو قدامة يزيد بن فندين اليفراني (ورجل) يقال له عمران (10)

بن مروان الاندلسي، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن، وابو الموفق، سعدوس بن عطية، وسكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سدمان.

(1) هذه القصة نفسها يرويها عدد من المؤرخين. وفي مقدمتهم ابن عبد الحكم. لدى ذكرهم لبناء مدينة القيروان.

(2) وقع اضطراب في هذه الجملة في الاصل فجاءت كما يلي: «ما عليها من اشجار واصول تلك الاشجار ودوحها وعمدوا الى حيس فغسلوه فلثوه فصاروا يدفنون تحت تلك الاشجار». والحيس. معجنون من تمر وسويق من المسلمين.

(3) راجع عن بناء تاهرت الرستمية البيان (196/1) البكري (ص66ـ69) اليعقوبي (ط. دوخويه. ص14) تاريخ ابن الصغير (الفهرست) الازهار الرياضية (6/2ـ45) معجم البلدان (7/2ـ9) ابن حوقل (ص86و93) البكري (ص66ـ68) الادريسي (ص87ـ88) الاستبصا (ص66) القزويني (ص169) الاباضية في موكب التاريخ (الفهرست). وكذلك مقالة جورج مارسي. مادة «تاهرت» في دائرة المعارف الاسلامية.

(4) جاء في تاريخ ابن الصغير في معرض الحديث عن تولية عبد الرحمن (ص9): «ثم نهضوا اليه باجمعهم وقالوا يا عبد الرحمن: رضيك الامام (ابو الخطاب) في ابتدائنا ونحن الان نرضى بك ونقدمك على انفسنا. فقد علمت انه لا يصلح امرنا الا امام نلجأ اليه في امورنا ونحكم عنده فيما ينوب من اسبابنا. فقال لهم: ان اعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه. قبلت ذلك منكم. فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك». قارن العبر (121/6).

(5) في الاصل : في امانته.

(6) في الاصل : مؤلفة.

(7) في تاريخ ابن الصغير: «اشاروا عليه ان يجعل منه ثلثا في الكراع وثلثا في السلاح. وثلثا في فقراء الناس» (ص11ـ12). وفي ازهار الرياض: «ثم شرع الامام في شراء الكراع والسلاح. وقوى بيت مال المسلمين بالذخائر الحربية ومهمات الدفاع الوقتية. وتقوى الضعيف وانتعش الفقير» (ص87).

(8) يذكر صاحب ازهار الرياض ان هذه الاموال بلغت عشرة احمال. راجع تفاصيل اخرى في هذا المصدر (ص90ـ91).

(9) في الاصل ستة نفر. وقد صححنا سبعة ووضعنا «ورجل» بين قوسين. حتى تتسق الرواية مع ما اورده الشماخي (ص145) وصاحب ازهار الرياض (ص99). واما الدرجيني الذي نقل رواية أبي زكرياء. فقد ذكر ان لجنة الشورى تتكون من ستة نفر (46/1) ولكنه اهمل ذكر مصعب ابن سدمان. وقد فات محقق الطبقات ان يقوم بمقارنة نصه بالنصين الاخرين ويثبت هذا الاسم بين قوسين ان كان محذوفا في المخطوط.

(10) في الاصل: عثمان. وقد صححنا عمران اعتماد اعلى الشماخي وسليمان الباروني. واما الدرجيني. فقد اهمل هذا الاسم الاول وذكر صاحبه باسم مروان الاندلسي.

ولاية عبد الوهاب بن عبد الرحمن

فلما مات عبد الرحمن بن رستم ، رضي الله عنه وغفر له، اجتمع اهل الشورى على من يولونه امور المسلمين فتدافع بعضهم الى بعض،الا ان عامة المسلمين مالت انفسهم الى اثنين منهم، احدهما مسعود الاندلسي والاخر عبد الوهاب رضي الله عنه. فبعض المسلمين ارادوا تولية مسعود وبعضهم اراد تولية عبد الوهاب، فمكثوا حوالي شهر يديرون الرأي فيما بينهم.

ثم ان العامة مالت الى مسعود فبادروه ليبايعوه، فهرب لهم واستخفا. وابتدروا عبد الوهاب فلما سمع مسعود بتركهم لمبايعتهم له وارادتهم مبايعة عبد الوهاب رضى الله عنه خرج مبادرا ليكون اول من يبايع عبد الوهاب هو.

وكان ابو قدامة حين لم تمل اعين الناس اليه ولم تنصرف قلوب المسلمين لديه، ورأى انه قد خلا منها،اراد تولية عبد الوهاب وقال: هو اقرب منا رحما من غيره، ولعل ذلك ان يعطفه علينا، لان ام عبد الوهاب يفرانية ، فرجوا فيه ان يؤثرهم في الامور لانه ابن اختهم. فقام ابو قدامة في نفر من اصحابه، فابوا الا مبايعة عبد الوهاب، للمناسبة التي بينهم، فطمعوا فيه ان يؤثرهم على غيرهم، ولكن تخوفت انفسهم من جهته.

فلما اراد الناس مبايعة عبدالوهاب رضيالله عنه،تقدم مسعود الاندلسي ليبايعه فتكلم يزيد بن فندين واصحابه، فقالوا نبايعه بشرط الا يقضي دون جماعة معلومه.

فقال لهم مسعود، ما علمنا من امور الامامة شرطا غير ان تحكم فينابكتاب الله تعالى وسنة نبيه، عليه السلام، وأثار الصالحين قبله. فترك ابن فندين واصحابه الشرط، حين رد عليهم المسلمون، فتقدم مسعود، فبايع عبد الوهاب رضي الله عنه، وبايع الناس بعد ذلك بيعةعامة(1) فحملوه الى دار الامامة، فلم يختلف عن بيعته احد، ولم ينقم عليه احد في امور حكومة ولا في خصومه، حتى نجم ابن فندين واصحابه.

(1) الارجح ان عبد الوهاب تولى الامامة بعد وفاة ابيه (بنحوشهر) في سنة 171 هـ. على ان المؤرخين يختلفون في هذه القضية. والشائع بينهم هو ان امامة عبد الوهاب دامت ٤٠ سنة. باعتبار انه تولى الملك في سنة 168 هـ وتوفي في سنة 208 هـ . وقد اورد ابن الاثير خبرا مؤداه ان عبد الوهاب سار على رأس البربر في جمع عظم في سنة 196 م الى طرابلس وحاصرها ودام حصاره لها حتى وفاة ابراهيم بن الاغلب (الذي مات في تلك السنة) ثم صالحه عبد الله (ابنه) الاغلبي. وهذا الخبر الذي يدل على ان عبد الوهاب كان حيا في سنة 196 هـ. ردده الشماخي. ولكن ابن عذارى

(الذي يسمى عبد الوهاب عبد الوارث) يقول ان امامته دامت عشرين سنة ويذكر ان الامام توفي في سنة 188 هـ: اي انه تولى الامامة في سنة 168 هـ. وهذا التاريخ لبدء ولاية عبد الوهاب. هو الذي اعتمده كل من جورج مارسي وزمباو في معجم الانساب والاسر الحاكمة (وكلاهما ذكر ان عبد الوهاب مات في سنة ٢٠٨ هـ). على ان سليمان الباروني يصحح رواية ابن غذارى فيقول «والصحيح ان ولايته كانت في سنة 171 هـ تقريبا. ومدتهجا 19 سنة فوفاته تكون في سنة 190 هـ تقريبا». راجع عن عهد عبد الوهاب : السير للشماخي (144 ـ 163) طبقات الدرجيني (2/47 - 72) الازهار الرياضية (2 / 100 ـ 165) الكامل (6 / 270) العبر (4 / 194) البيان (1 ـ 197) معجم الانساب (ص 100) سلم العامة (ص 12 ـ 14) البسكرى (ص 66 ـ 68) تاريخ ابن الصغير المالكي (ص 16 ـ 23) البرادى في كتاب الجواهر. تاريخ الجزائر (2/23) مقاله جورج مارشي (بنو رستم) في دائرة المعارف الاسلامية : وكذلك Basset (R), les Sanctuaires de Djebel Nafousa

ولنفس المؤلف (المجلة الآسيويةج1899/2)

Etude sur la Zanata de Ourqla et de Oued Rir, Publication de la Faculté des Lettres, Alger



اول افتراق الاباضية

مع ان طائفة تنتحل اسم الاباضية، يقال لها العمرانية، لم تجمعنا وإياهم الكلمة من اول، وزعموا انهم اباضية، وكثيرا ما يسندون مذهبهم الى عبد الله ابن مسعود، رضى الله عنه، فهم تبعة عيسى بن عمير وسنذكر مذهبهم ان شاء الله والرد عليهم فيما خالفوا فيه اهل الحق. ثم بعد ذلك (نتحدث عن) افتراق الاباضية (ومذاهبهم) واحدا بعد واحد، فنرد على كل فرقة منهم ما خالفت فيه اهل الحق، ونفرد كتابا نجمع فيه مقالاتهم، ان شاء الله.

سبب افتراق الاباضية (1)

فاما سبب افتراق الاباضية، فقد اخبر به غير واحد من اصحابنا، وذلك ان عبد الوهاب، رضي الله عنه، لما ولي امور المسلمين وكانت رغبته في اهل الخير واستعمال اهل العلم والبصيرة من الدين في امور المسلمين، فعمد الى رجال ليست لهم رغبة في الولايات، فولاهم الامور.

فلما نظر يزيد بن فندين واصحابه الى ما فعل، وقد خالفت فيه الرجعية، تغيرت قلوبهم وتنكرت صدورهم، وساءت ظنونهم وسقط في ايديهم ما آثروا من تولية عبد الوهاب، فاخذوا في العلل، وقالوا انما كانت ولاية عبد الوهاب على الشرط الايقضي أمرا دون جماعة معلومة، فرجعوا الى ما عيب عنهم اول مرة، فأفشوه عند الجهال ومن ليست له بصيرة بأمور الدين، فصاروا يستنزلونهم عن بصائرهم، فكثر القال والقيل في البلد. ويقولون انه حابا (2) بعض الناس علينا وولاهم الامور دوننا، ونحن اولى بالامور ممن ولاه على الناس، لانه انما كانت ولايته على ايدينا.

وكان مما يقولونه للجهلة من الناس انه لا تجوز تولية رجل اذا كان في جماعة المسلمين من هو اعلم منه. فاختلط قولهم وتفاقم امرهم، وكثر التنازع، تارة يقولون لا تصلح ولاية رجل، اذا كان في جماعة المسلمين (3) من هو اعلم منه، وتارة يقولون بل كانت ولايته على الشرط.

ثم ان جماعة المسلمين اصطلح امرهم مع يزيد بن فندين واصحابه ان يضعوا اوزار الحرب حتى يراسلوا اخوانهم بالمشرق، ويكف بعضهم عن بعض، فما اجابوهم به اخذوه.

وبعثوا رسولين ، فتوجه الرسولان الى المشرق. فلما وصلا الى مصر، وجدا بها شعيب بن المعروف وشيعته (4) فاخبراه بموت عبد الرحمن بن رستم رضى الله عنه، واستخلاف الناس ابنه عبد الوهاب، وخروج ابن

فندين عليه وادعائه الشرط في امامة عبد الوهاب، وما زخرف (به) من الاباطيل.

قال، فلما سمع شعيب بن المعروف ذلك من الرسولين، خلا بطائفة من اصحابه، منهم ابو المتوكل، واتفقوا على المسير الى تاهرت.

ثم ان الرسولين توجها الى مكة فوجدا فيها ابا عمرو الربيع بن حبيب (5) رضى الله عنه في جماعة من اصحابنا منهم ابو غسان مخلد بن العمود (6) الغساني، فاخبرهم الرسولان فيما قدما فيه من ارسال اصحابهم اليهم من اهل المغرب، وبموت عبد الرحمن وتولية عبد الوهاب وخروج ابن فندين عليه وادعائه العلل، ودفعا لهم كتب اخوانهم من اهل المغرب، فقرءوها وفهموا ما كتبوا فيها اليهم، فاجتمع من بها من المسلمين على ان يردوا الجواب، فلم يألوا جهدا، فكتبوا اليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، اما بعد، يا اخواننا، قد بلغنا ما كان (من) قبلكم وفهمنا ما كتبتمونا من امر الشرط في الامامة الا يقضي امر دون جماعة معلومة. فالامامة صحيحة، والشرط باطل. فلو صح في الامامة شرط، لما قام لله حق ولا اقيم له حد، ولتعطلت الحدود وبطلت الاحكام، ولضاع الحق. والجماعة يتعذر اتفاقها على ان الامام ان قدم اليه سارق، لا يصيب ان يقيم عليه الحد، فيقطع يده، حتى تحضر الجماعة التي ذكروا، او زنى احد فلا يرجم ولا يجلد، حتى تحضر الجماعة، ولا يجاهد الامام عدوا، ولا ينهي عن فساد الا بحضرة الجماعة المعلومة. فالامامة صحيحة والشرط باطل.

واما ما ذكرتم من تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو اعلم منه، فذلك جائز اذا كان في القناعة والفضل بمنزلة حسنة. وقد ولي ابو بكر الصديق، رضى الله عنه، وزيد بن ثابت (7) افرض منه، وعلي بن ابي طالب (ض) اقضى منه، ومعاذ بن جبل (8) رضى الله عنه اعلم منه.

وهذا ليس فيه اختلاف لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم»، افرضكم زيد، واقضاكم علي واقراكم ابي (9) واعلم امتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل». وقوله، صلى الله عليه وسلم، «معاذ بن جبل سيد العلماء». فردوا الجواب باثبات ولاية عبد الوهاب ، وابطال الشرط وتخطئة من انتحل الشرط.

وذكروا ان الامامة لا تبطل الا بحدث في الاسلام، بعد الاعذار والانذار منهم، والاصرار والاعتبار من امامهم، فحينئذ، يزول من الامامة.

ثم ان شعيبا، حين جاز عليه الرسولان بمصر، عزم على المسير الى تاهرت، فخرج في نفر من اصحابه بغير مشورة مشائخ مصر، طمعا في الامارة. وقد كان بها لجماعة المسلمين مشائخ ذوو فضل وعلم وورع.

وقد نهاه بعضهم عن الخروج الى تاهرت، فقالوا له، كيف تقدم الى بلد اختلف اهله؟ولم يشتغل بهم، واستعجل، هو واصحابه، طمعا في الامور، فمضوا مستعجلين حتى اظنوا رواحلهم فصاروا يسوقونها سوقا.

وحكي عنهم انهم وصلوا من مصر الى تاهرت في عشرين يوما.

فلما وصل شعيب واصحابه الى تاهرت، دخل على الامام، ولم يكن له بد من الدخول عليه، فسأله الامام، رضى الله عنه، عن امام وليى بشرط الا يقضي امرا دون جماعة معلومة؟ فأجابه شعيب ان الامامة صحيحة، والشرط باطل.

وسأله ايضا، هل يجوز تولية رجل وفي جماعة المسلمين من هو اعلم منه؟

فاجابه بجواز ذلك. ثم ان شعيبا خرج وتوجه نحو يزيد بن فندين واصحابه، فاطمعوه في الامور،فندم على فتواه للامام عبد الوهاب، رضي الله عنه، فبدا له فوز (10) ابن فندين واصحابه على الامام رضي الله عنه. فخرج من كان ينظر اليه من النكار من المدينة الى المنازل التي بجبال المدينة، فصاروا يجتمعون ويتناجون، فلذلك، سموا «النجوية»(11).

ثم بعد ذلك، اجتمعوا بكدية بجبال المدينة، فاظهروا انكار امامة عبد الوهاب، فسموا «النُكار»، وسموا «الشغبية» لادخالهم في الاسلام الشغب، وسموا «الملحدة»، حين الحدوا في اسماء الله تعالى، والذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون»، وسموا «النكاث» لنكثهم بيعة الامام بغير حدث.

وبلغنا انهم كانوا يدخلون المدينة بالجماعات، فتكلم بعض المسلمين الى الامام ان ينهاهم عن ذلك، ولم يشتغلوا به . فكلمهم في خروجهم من المدينة الى المنازل، فقالوا هذه مدينتنا، وتلك منازلنا، فان عصينا في خروجنا من المدينة، فليخبرنا الامام بذلك فنترك. قال فتركهم الامام، ثم بعد ذلك صاروا يدخلون المدينة بالسلاح، فكلم بعض المسلمين ان ينهاهم عن ذلك، فنهاهم الامام عن إمساكهم السلاح. وان اثمنا من امساكنا السلاح، فليخبرنا بذلك الامام، فنترك.

قال فتركهم الامام وامر اهل المدينة بامساك السلاح مخافة عليهم من الغدر بهم.

وبلغنا ان نفرا منهم، اجتمعوا على غدر الامام رضى الله عنه، فاداروا امرهم بينهم، فقالوا كيف لنا بالوصول الى قتله، فلم يتجه لهم ذلك. ثم ان رجلا منهم قال لهم: هل لكم في رأيي؟ ان تأخذوا تابوتا وتجعلوني فيه وتمضون بالتابوت اليه، كأنكم مختصمون عليه وتمتنعون من الاتفاق عليه وان يجعل في يد احدكم دون غيره. فاذا صرتم الى ذلك، فقولوا له لا

نرضى ان نضعه عند احد سواك، فاتفق رأيهم على ذلك.

وعمدوا الى التابوت فادخلوا (الرجل) فيه، ومعه سيفه، وكان التابوت مغلقا من داخل، واقبلوا بالتابوت الى الامام عبد الوهاب رضى الله عنه، على اتفاقهم الاول، وهم يتنازعون عليه حتى اظهروا من انفسهم (انهم) يتجاسرون ويقع الشر بينهم.

فلما وصلوا الى الامام، تكلم متكلم، فقال يا أمير المؤمنين، افصل بين هؤلاء القوم، وانزع هذا التابوت من ايديهم جميعا، حتى تصلح بينهم، ويزول الشر الذي بينهم، فقال القوم باجمعهم، صدق لك، يا مير المؤمنين ولسنا نثق بأحد ان نضعه عنده الا أنت، فضعه لنا عندك، حتى نتفق.

فلما رأى الامام منهم ذلك، وخاف ان يقع الشر بينهم، قال لهم: احملوا تابوتكم الى الموضع الذي آمركم ان تضعوه فيه.

قال، فلما حملوه، ونظر اليهم الامام مثقلين بحمل التابوت، استرابهم. ثم ان الامام عبد الوهاب، تأمل التابوت فوجده مقفلا من داخله، فكان ذلك مما زاده ريبة فيهم، وظن انهم ارادوا به المكر والغدر. وقد كانوا اشترطوا عليه الا يضعه الا في بيت ينام فيه، فلما وضعوه، خرجوا من عنده مستبشرين فرحين، وظنوا انهم يظفرون بحاجتهم. فخيبهم الله، وكانوا اهل مكر وخداع وخبث النفوس.

وبلغنا انهم اتفقوا مع صاحبهم انه اذا قتل الامام، ان يؤذن لصلاة الصبح، عند طلوع الفجر. فاذا سمعوا اذانه، وهم يعرفون صوته، يبادرون الى دار الامام عبد الوهاب رضى الله عنه. وان لم يؤذن، عرفوا ان صاحبهم لم يظفر بحاجتهم.

فلما جاء الليل، اشتغل الامام رضى الله عنه في صلاته. فلما فرغ منها وفرغ من حوائج اهل بيته، وكانت عادته، اذا فرغ منها ان يأخذ كتابا فيقرأ فيه.

فلما كانت تلك الليلة، عمد الامام رضى الله عنه الى زق منفوخ، فوضعه على فراشه، فوضع عليه ملحفة بيضاء، فلما قضى حاجته من قراءة كتابه وجاء الوقت الذي يرقد فيه، اخذ المصباح فأوقده، والحف عليه غطاء بسترة، وتنحى الى جانب البيت، وأقبل على الصلاة حيث لا يسمع به ولا يراه من كان في التابوت.

فلما هدأ صوت الامام عن صاحب التابوت، وظن ان الامام قد رقد، فتح التابوت وخرج منه، فنظر في البيت يمينا وشمالا، فلم ير شيئا، الا بياضا من ناحية البيت، فظن انه الامام، فقصده وبيده السيف مستلا، والامام، رضى الله عنه يبصره. فلما وصل الى فراش الامام، ضرب بالسيف على الزق، فظن انه قتل الامام، وانما اصاب الزق منفوخا.

فلما سمع الامام ضربه بالسيف، نزع الغطاء عن المصباح واستضاء البيت، فقصده وضربه الامام بالسيف، فقده نصفين، فأخذه ولفه في ثيابه ورده في تابوته، فبات القوم متململين ينتظرون متى تكون الصيحة على الامام عبد الوهاب رضى الله عنه او يؤذن صاحبهم. فلما كان بالغد، اجتمعوا فتساءلوا فيما بينهم، فقال بعضهم لبعض: هل سمعتم عن الامام او عن صاحبكم شيئا؟ فقالوا: لا!

فقال بعضهم لبعض: امضوا بنا لنأخذ تابوتنا، ونقول له قد اتفقنا عليه واصطلحنا.

قال، فاقبلوا الى الامام، رضى الله عنه، وقالوا له، اعطنا تابوتنا، فقد اتفقنا عليه.

قال، فقال لهم الامام، امضوا الى الموضع الذي وضعتم فيه تابوتكم، فخذوه، فمضوا معه، حتى دخلوا البيت، فوجدوا تابوتهم في الموضع الذي وضعوه فيه، فحملوه. فلما وصلوا الى مأمنهم، فتحوا تابوتهم، فوجدوا صاحبهم قتيلا مقدودا نصفين، فخيب الله سعيهم، واظهر بغيهم واخلف ظنهم، فخرجوا من المدينة خوفا من صنيعهم من المسلمين.



ثورة ابن فندين (12)

ثم ان شعيب بن المعروف (13) تكلم الى يزيد بن فندين واصحابه، فقال لهم، ماذا تنتظرون بهم؟ فبادروا القوم واستغفلوهم ولا تتربصوا بهم، يريد الامام ورعيته. وانما قال ذلك مخافة ان يأتي الجواب من المشرق، فتكون عليهم الحجة، ولانه علم ان الصواب (هو) ما افتى به اولا، ثم رجع عنه حين اطمعوه في الامور.

وكان ابن فندين واصحابه ينتظرون متى تكون لهم الفرصة او يجدون من اهل المدينة غرة. وقد امر الامام عبد الوهاب رضي الله عنه جماعة المسلمين ان يمسكوا السلاح، فكانوا كذلك الى ان خرج الامام عبد الوهاب رضى الله عنه ذات يوم الى بعض حاجته ، فبادر يزيد بن فندين واصحابه، اهل المدينة واستغفلوهم حين سمعوا بخروج الامام من المدينة ليدخلوها عليهم، على غفلة من اهلها، فقامت الصيحة في المدينة، فابتدرهم اهل المدينة من كل مكان، فصادف ذلك افلح واخته تظفر رأسه، وقد ظفرت له شق رأسه وبقى الشق الاخر لم يظفر، فاخذ سلاحه، فابتدرهم فوجدهم على باب المدينة، وقد كادوا يدخلون، فوقفلهم افلح على بابها، فنشب احدى رجليه في الصفا فسلخ رجله الى العرقوب، وصار يتقي بدرقته ويضربونه حتى لم يجد في درقته ما يتقي به، فرمى بها، فعمد الى باب المدينة، فاقتلعه، فصار يتقي به، فتمالك اهل المدينة. ويزيد بن فندين، مقابل افلح بن عبد الوهاب على باب المدينة، وعلى رأسه بيضتان يضرب الناس يمينا وشمالا، فقصده افلح، فضربه على ام رأسه بالسيف فقده والبيضتين والرأس، ونشب السيف في عمود الباب، باب المدينة، فخر ابن فندين صريعا، فاحس افلح بن عبد الوهاب، رضي الله عنه، في يده بعض الشدة حين ضربه، فظن ان ذلك كله (من صلابة) رأسه، فقال له: ما اقوى رأسك يا بربر (ي)، يا مشؤوم.

فلما نظر اليه اصحابه قتيلا صريعا، ولوا منهزمين، فقتل منهم جماعة المسلمين مقتلة عظيمة، فيها اثنا عشر الف قتيل.

وبلغنا ان دم القتلى جرى على باب المدينة كالسيل من كثرة القتلى.

ثم ان اهل المدينة اجتمعوا بعدد كثير على ان يردوا الباب كما كان اولا، فلم يقدروا عليه، فقالوا لافلح، اردد ما نزعت! فقال ردوا غيظي انفا اردده لكم!

ثم ان الامام عبد الوهاب، رضى الله عنه، رجع من بعض حوائجه، فوجد على باب المدينة مقتلة عظيمة، فاخبره اهل المدينة خبر ابن فندين واصحابه، فأمرهم بالقتلى فجمعوا ما أمكنهم، فصلى عليهم رجاء في الصلح، وطمعا في العافية لعامة المسلمين من بقية اصحاب ابن فندين.

ثم ان شعيب بن المعروف، هرب، حين انهزم القوم، الى مدينة طرابلس، فاظهر فيها الخلاف للامام والبراءة منه، واستقبل الحجاج بذلك، واتصل ذلك الى الربيع بن حبيب، رضى الله عنه، وجماعة المسمين بارض المشرق فتبرءوا من شعيب و(من) يزيد بن فندين وأصحابهما الذين قتلوا معه ومن كان على سبيلهم، الا من تاب.

وكان الربيع بن حبيب، رضى الله عنه، يقول في مجلسه: عبد الوهاب امامنا وتقينا وامام المسلمين اجمعين. ويظهر البراءة من شعيب ويزيد بن فندين، فقيل له، كيف تبرأ من شعيب بغير حدث؟ فقال: وأي حدث اعظم من براءته. من عبد الوهاب، امير المؤمنين. فعند ذلك يقول، عبد الوهاب امامنا وتقينا وامام المسلمين اجمعين.

ثم ان بقية اصحاب ابن فندين الذين لم يصابوا يوم قتل، بقيت في انفسهم حزازات وضغائن، فتنحوا ناحية من المدينة واجتمعوا بربوة، او كدية، فسميت كدية النكار، ثم ان الرسولين الذين توجها نحو المشرق قدما الى تاهرت وقد تقدمت من يزيد بن فندين واصحابه الواقعة، فاجتمع اهل المدينة على جواب اخوانهم من اهل المشرق، فاخذوا الكتب فقرءوها، فوجدوا فيها تخطئة ابن فندين واصحابه، واثبات ولاية عبد الوهاب، رضى الله عنه، فمكثوا في ذلك حينا.

وبلغنا ان ميمون بن عبد الوهاب قتل بليل ومزق لحمه وقطع اربا اربا. فلما اصبح، وجده اهل المدينة على تلك الحالة قتيلا، فأتاه الامام عبد الوهاب، رضى الله عنه، فلما نظر اليه، قال، اي بني، اجتمعت فيك ثلاث: قول قائل، ويل لمن مرت الخيل بكسائه، وويح لمن اصيب بليل، وقول القائل، اذا امسست ابن السلطان بسوء، فامسه مسا عنيفا (14). فأخذ عبد الوهاب ابنه فجهزه وكفنه ودفنه، ولم يدر من قتله.

ثم انه خرج ابن لميمون بن عبد الوهاب ساعيا، فلما وصل الى النكار، نادوه: يابن المهدور دمه، فرجع الى جده عبد الوهاب، فاخبره، فاستقصا عبد الوهاب، رضى الله عنه في قتل ابنه. فلما صح عنده ان النكار، هم الذين قتلوا ابنه، انفد اليهم جيشا، فجعل عليه ابنا لميمون فخرج اليهم على مسيرة ايام في المدينة، فصادفهم مجتمعين على عدتهم، منتظرين له، فصادفوه، فقاتلهم فهزمهم الله له، فقتل منهم عددا كبيرا

وقصر الناس عن تعدادهم، وقالوا في أي اسم اقل عددا من هؤلاء المقتولين، فوجدوه (اسم) هارون، فحسبوا كم اسم هارون اصيب فوجدوا ثلاثمائة هارون قتيلا. فأوهن الله شوكتهم واضعف قوتهم.

وكان بيت الرستميين بيت العلم في فنونه من الاصول، والفقه، والتفسير، وعلم اختلاف الناس، وعلم النحو والاعراب والفصاحة وعلم النجوم.

وبلغنا ان بعضهم قال، معاذ الله ان تكون عندنا امة لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر.

وبلغنا ان عبد الوهاب، رضي الله عنه، سمر ذات ليلة، هو واخوه، يتعلما مسائل الفرائض، فلم يصبح عليهما الا وهما يورثان اهل المشرق واهل المغرب. وكانا في سمرهما يقدان مصباحا يجعل له عبد الوهاب الفتائل من عمامته حتى اتى عليها.

وذكر بعض اصحابنا ان عبد الوهاب بعث الف دينار الى اخوانه من اهل المشرق بالبصرة ان يشتروا له بها الكتب. فلما وصلهم الالف، اجتمعوا واتفقوا ان يشتروا بها رقا ويجعلوا من انفسهم الحبر والاقلام وعولة الكتاب، واخذوا في النسخ، فنسخوا له اربعين حملا من كتب، فبعثوا بها اليه. فلما جاءته، نشرها وقرأها حتى اتى على اخرها باجمعها فقال، الحمد لله، ليست منها مسألة ليست عندي الا مسألتين، لو سئلت عنهما مقستهما الى نظائرهما من المسائل لصادفت ما ذكره في الكتاب.

(1) تختلف رواية ابي زكرياء عن رواية ابن الصغير التي هي اقدم. اختلافا كبيرا بشأن الشقاق الأول في صفوف الأباضية . راجع تاريخ الائمة (ص 17 ـ 20) . والشقاق في صفوف الأباضية انما هو تفتت جديد في مذهب الخوارج الذين ينقسمون الى عدة طوائف ينضوي كل منها تحت لواء معين . ومع ذلك . فان الخوارج . بوجه عام . يتفقون في نظرية الخلافة التي يرون ان تكون باختيار حر من المسلمين . وفي نظرية اعتبار العمل (الصلاة والصوم الخ .) جزء من الايمان . ويلبغ عدد طوائف الخوارج نحو عشر طوائف تختلف كل واحدة منها عن الأخرى في تعاليمها . ومن اهمها الاباضية والنجدات والازارقة والصفرية (اتباع زيد بن الأصفر) التي لا يختلف اتباعها كثيرا عن الأزارقة في تعصبهم واستباحتهم لبعض المحرمات .

(2) في الاصل: حاما.

(3) يجب ان نتذكر ان أبا زكرياء يستعمل دائما في كتاب السير كلمة «جماعة المسلمين»واعتبارها مرادفة لجماعة الاباضية.

(4) قارن ما ذكره كل من الشماخي الذي اخذ كثيرا من عناصر روايته من أبي زكرياء بشأن هذه السفارة ورحلة شعيب الى تيهرت طمعا في الولاية (السير. ص148 وما يليها) وازهار الرياض الذي يشتمل على تفاصيل او في (2ـ106 وما يليها).

(5) هو الربيع بن حبيب الازدي الفراهيدي ترجم له الشماخي ولكنه لم يذكر سنة ميلاده ولا تاريخ

وفاته، وقد وصفه بانه «طود المذهب الاشم، وبحر العلوم» (ص102ـ103). له كتاب الجامع الصحيح (طبع بمطبعته الازهار البارونية في سنة 1326هـ، مع حاشية لعبد الله بن احمد السالمي). وقد ذكر السالمي في حاشيته (1/3ـ5) انه صحب ابا عبيدة ونزل البصرة ثم انتقل الى عمان وسكن غضفان. وقد ادرك الربيع بن حبيب جابر بن زيد، وهو شاب، وكان يروى عن ضمام عن جابر ابن زيد عن ابن عباس. راجع ايضا، طبقات الدرجيني (2/213ـ242ـ243ـ 271ـ278).

(6) كذا في الاصل.

(7)زيد بن ثابت بن الضحاك الانصاري الخزرجي؛ من اكابر الصحابة، كان كاتب الوحي. ولد بمكة وهاجر مع النبي (ص) وهو صبي. وقد كان امام الفقه والقضاء والفتوى في المدينة بحيث ان ابن عباس كان يزوره في بيته. وهو الذي كتب المصحف لعثمان. توفي سنة 45هـ. راجع غاية النهاية (1/296). صفوة الصفوة (1 / 294)

(8) معاذ بن جبل بن عمرو الانصاري الخزرجي، ابو عبد الرحمن؛ صحابي جليل، كان اعلم الناس بالحلال والحرام. شهد عددا من الوقائع، ومن بينها بدر واحد والخندق كما شارك في غزو الشام. وقد كان واحدا من الستة الذين جمعوا القرآن كما رويت عنه احاديث كثيرة. راجع سيرته في طبقات ابن سعد (ترجمه 8039) اسد الغابة(4/376) حلية الاولياء (1/228).

(9) كذا في الاصل.

(10) في الاصل: فوازرا.

(11) قارن سير الشماخي (ص150) وطبقات الدرجيني (1/51 وما يليها)

(12) قارن رواية ابي زكرياء عن ثورة ابن فندين بما ذكره الدرجيني (الذي اقتبس كثيرا من ابي زكرياء)، في الطبقات (1/48 وما يليها) والشماخي في السير (ص146 وما يليها) والباروني في ازهار الرياض (2/102 وما يليها).

(13) ورد هذا الاسم بالرسمين: ابن المعروف، وابن المعرف.. ولم استطع التحقق من الرسم الصحيح.

(14) وقع ابو عبيدة البكر في اضطراب كبير حين تعرض لذكر الائمة الرستميين بعد عبد الرحمن، فزعم ان ميمون «ابن عبد الرحمن (كذا) بن عبد الوهاب، كان صاحب تاهرت... ومضى فقال ان ميمون كان «رأس الاباضية وامامهم، وامام الصفر... والواصلية، وكان يسلم عليه بالخلافة» راجع كتاب المغرب (ص67). ونحن لا نعرف شيئا عن ميمون قبل هذه المعركة التي قتل فيها. ولكنه لا يوجد من بين المؤرخين الاباضيين منْ يذكر انه تولى الامامة. وهو، بالتأكيد، لم يتولها قبل ابيه، حيث ان الاجماع تام بان عبد الوهاب هو الذي خلف والده عبد الرحمن في الامامة. هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فأن الائمة الاباضيين لا يحملون لقب الخليفة. ثم ان الاباضية والصفرية فرقتان متميزتان وقد انفصلتا منذ بداية تاريخ الخوارج، وذلك من الناحية السياسية والعقيدية معا، ولم يكن من الممكن ان يكون امام الاباضية اماما للصفرية. وهذا يقال ايضا على وجه التقريب عن علاقات الواصلية والاباضية، وقد دلت الاحداث التي ذهب ميمون نفسه ضحيتها على بعد الهوة التي تفصل بين الفرقتين.

محاربة الواصلية (1) للامام رضى الله عنه

وحدث غير واحد من اصحابنا ان الامام عبد الوهاب رضى الله عنه، لما اوهن الله على يده كلمة النكار، واورثهم الخزي والعار، تحركت الواصلية بعض الحركة، وهم قوم من البربر اكثرهم (من) قبائل زناته. وذلك حين احسوا ببعض الفرقة في الاباضية وارادوا ان ينتهزوا بعض الفرصة، فبلغ الامام ذلك، فاعتذر اليهم مرة، بعد مرة، وقد نشأ اذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع عظيم، بطل لا يقاوم له شيء، وهو ابن سيدهم وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة يذب عن مذهبه، وقد جرت بينه وبين الامام مناظرات كثيرة، وكان شديد المعارضة، حديد العارضة. فتكاثفت كلمة الواصلية واجتمعوا من كل نقب وجازوا من كل اوب، فانحازوا عن تاهرت، واخذوا عن جبالها، وهم اصحاب العمود، واظهروا مخالفة الامام، رضى الله عنه ، فاعتذر اليهم، وخرج اليهم بعساكر كثيرة، فقاتلهم مرة بعد مرة، وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة. لا يدرك احدا الا قتله، ولا يبارزه احد الا قتله. و(كان) لذلك الفتى اب يحرضه عند القتال، ويقول له: «اقدم، اي بنى»!

فلما رأى الامام رضى الله عنه ذلك، وان حربهم جد (2) ارسل الى جبل نفوسه يستمدهم ان يبعثوا اليه جيشا نجيبا، يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة. فلما وصلت رسل الامام، رضى الله عنه الى جبل نفوسه، ائتمروا على من يرسلونه للامام، رضى الله عنه، واتفق رأيهم جميعا على ان يبعثوا له باربعة نفر: احدهم مهدي، والاخر، ايوب بن العباس، والثالث، محمد ابن يانس، والرابع لم يبلغنا اسمه، وقد قيل ان اسمه ابو محمد، فارس، فارسل اليهم عامل عبد الوهاب على نفوسه، فلما اتاهم رسول العامل، توجهوا نحوه، وقال لهم ان امير المؤمنين احتاج اليكم في امور وانا منفذكم اليه، فكونوا على هيئة السفر.

وبلغنا ان النفر تساءلوا فيما بينهم، فقال لهم مهدي: اما انا، فلا يغلبني مخالف في مناظرة الا ان ركنت في دين الله. فقال لهم محمد بن يانس: اما انا، فقد اخذت تفسير القرآن كله من الثقات، وعلمته عنهم، الا حرفا واحدا، او حرفين، فان اضطررت اجد مخرجا.

قال واخذ النفر الاربعة في هيئة السفر، فخرجوا من جبل نفوسة، متوجهين الى تاهرت، فلما انفصلوا من الجبل، طلبهم محمد بن يانس (3) ان يدعوه ان يكون خادمهم فابوا عليه، والح عليهم في الطلب، فاجابوه الى ذلك، فاذا ارتحلوا نهارهم ونزلوا عند الليل، عمد محمد بن يانس الى خيلهم، فيعلفها، فيأخذ في صنع طعامهم، فاذا طعموا وناموا، اقبل على الصلاة راكعا وساجدا، حتى يطلع عليه الفجر. وكان صائما نهاره، قائما ليله فكان ذلك دأبه ودأبهم. فلما رأوه متماديا على ذلك، اشفقوا عليه، وشق عليهم ذلك، فطلبوا اليه ان يرفق بنفسه ولا يحملها فوق طاقتها، وان يترك بعض ما يعمل في السفر ويأخذ غفوة بالليل. فأبى لهم، فعزموا عليه ان يترك والا طلبوا من يخدمهم غيره.

فلما رأى جدهم وعزمهم، وخاف ان يمنعوه خدمتهم، ويخدمهم غيره. قال لهم، انا افعل ما اردتم، ولكن على شرط ان تدعوني اركع ركعتين لا ازيد عليهما بعد، ان شاء الله.

فلما سمعوا منه ذلك، طابت نفوسهم بذلك، وسرهم، وظنوا انهم اصابوا حاجتهم.

فلما كانت الليلة المقبلة ، وقد فرغ من خدمتهم ، قام الى الركعتين (اللتين) ووعدهم (4) الا يزيد عليهما شيئا ، فقرأ في الركعة الاولى نصف القرآن ، وفي الركعة الثانية النصف الآخر ، وطلع عليه الصبح .

فلما كان الغد ، شق على اصحابه ما فعل اكثر من اول مرة وبلغ فيهم ذلك ، وطلبوا اليه ان يرجع كما كان اول مرة ، لان ذلك ارفق به واروح مما التجأ اليه .

وبلغنا انهم رقدوا ذات ليلة، اذ انتبه احدهم من منامه، فنظر الى ابن يانس قائما يصلي، وكانت ليلة ممطرة ذات ريح (5) وقر، فسمع طرف كسوة ابن يانس يضرب بها الريح، فتصوت، فقال، ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثلك يا بن يانس، فستصيبك بها الوحشة.

وبلغنا ان الامام لما سمع بخروجهم من جبل نفوسه واقبالهم اليه وقربهم منه، كلم عبيدة، وقال من بشرني منكم بقدوم (اهل) نفوسه، فهو حر. وكانت العبيد، اذا طلعت الشمس خرجوا من المدينة، ينظرون يمينا وشمالا، وكان للامام ، رضى الله عنه عبد اعرج، لا يستطيع النهوض مع جملة العبيد، فعمد الى سور المدينة فرقى عليه، فلزمه، وقعد عليه، فكانت حال العبيد، كما ذكرنا، يخرجون كل يوم ينتظرون قدوم (اهل) نفوسة.

فلما كان ذات يوم، رأت عبيد الامام،. رضى الله عنه (اهل) نفوسه وقد اقبلوا، فتبادروا الى الامام وتسابقوا اليه ليخبروه بقدومهم (ف) نطر اليه الاعرج بعيدا،فقام وصاح الى الامام واخبره بقدومهم وبشره بهم، فخرج

حرا، فجاء اصحابه بعد ذلك فوجدوه قد سبقهم بالبشارة الى الامام، رضى الله عنه، فقالوا قد فاز بها الاعرج.

فلما وصل النفر النفوسيون الى مدينة تاهرت واخبر الامام بقدومهم، وانهم كانوا اربعة نفر، ساءه ذلك، وكان ينتظر قدوم العسكر، فادخلوا على الامام رضى الله عنه، فاستخبرهم عن احوالهم، وسأل كل واحد منهم لما يصلح له. فأمر الامام، رضى الله عنه بادخالهم في دار الضيافة واجراء الضيافة عليهم وعلف دوابهم.

وبلغنا ان الامام، رضى الله عنه، اجل قبل ذلك للمعتزلة في اللقاء، اجلا قبل قدومهم. فلما قدموا، قال لهم عبد الوهاب: الخروج. قال النفر النفر النفوسيون: «دعنا يا امير المؤمنين حتى تستريح دوابنا، فأنها قد اخذ منها السير واتعبها السفر».

وبلغنا ان الامام، رضى الله عنه، ادخلهم ذات مرة، فسألهم. فقال له مهدي (6): «اما انا يا امير المؤمنين، فقد كفيتك امر المبارزة، ان شاء الله».

وقال محمد بن يانس: «اما انا، يا امير المؤمنين، فقد كفيتك فنون التفاسير، ان شاء الله».

فقال الامام لمهدي: «انه جرى بيني وبين هذا المعتزلي المنتحل للمناظرة وجوه منها اريد ان اعرضها عليك».

فقال مهدي: «افعل ، يا مير المؤمنين».

قال، فساق الحديث مما جرى بينه وبين المعتزلي من الكلام حتى اتمه فاذا(بـ)زغ المعتزلي، وحاد عن الجواب، قال مهدي للامام، رضي الله عنه، يا امير المؤمنين : «ها هنا ذهب لك بالحجة وحاد عن المحجة» حتى اطلع الامام، رضي الله عنه على جميع ما ليس فيه المعتزلة عليه ومواضع يسرق له فيها السؤال ويحيد فيها عن الجواب.

وبلغنا ان مهدي حين كان بتاهرت، خرج ذات مرة عن اصحابه فتغيب عنهم ولم يدروا اين توجه. فلما جنهم الليل، وقرب عشاؤهم، انتظروا حتى ايسوا منه واكلوا حاجاتهم وافضلوا له عشاءه، فكانوا كذلك اذا اقبل اليهم مهدي، فقالوا له، اين تغيبت؟ ومن اين جئت وقد برد عشاؤك، فقال لهم اني رددت الى دين الله سبعين (7) عالما من اهل الخلاف في غيبوبتي عنكم.

قال، فتقدم الى عشائه، فصادف عجينا عجنوه لغذائهم فكشف عنه فصار يأكل، فلما كاد يشبع، قال لاصحابه، كان عشاءكم الليلة لم يطبخ ولم يطب، وقد وجدت فيه طعم العجين.

قال بعضهم، لعلك انما صادفت عجين غذائنا. قال ففتشوا فوجدوا العجين هو الذي صادف.

وقال لهم مهدي، حمدت الله على ثلاث: واحدة انني اذا قدم الي الطعام ما أبالي أي طعام كان، فاني اقضي منه حاجتي. والثانية، اذا اخذت غفوة من النوم، اجتزيت بها. والثالثة، لست اتخوف مخالفا على نفسي ان يغلبني في حجة الا ان ركنت في دين الله.

ثم ان الامام، رضى الله عنه، بعث الى رئيس المعتزلة وسيدهم بانه سيخرج اليهم في اليوم الفلاني، وضرب لهم اجلا. فلما كان ذلك اليوم، وقد ساءت ظنون المعتزلة وانتفخت اسحارهم عماذا ينجلي لهم من نفوسه، وكانوا في غمة مطلخمة.

قال ايوب بن العباس (8) يا مير المؤمنين، ان فرسي اتعبه السفر، فلو امر لنا امير المؤمنين بخيل نركبها. فامر الامام، رضى الله عنه ايوب ان يدخل في دار الدواب، فيأخذ منه فرسا يعجبه فدخل، فاذا نظر الى فرس اعجبته هئته، اخذ بناصيتها فجذبه جذبة فاقتلعت رجلاه وكاد ان يسقط على رأسه بين يديه، فكان كذلك حتى اتى على آخرها ولم يعجبه منها شيء منها.فقال ايوب بن العباس للامام،اجمع علي فرسي يا مير المؤمنين، فان عهدي به احسن الي من غيره.

فامر الامام رضى الله عنه ان يؤتى بفرسه جذبه ايوب جذبة بقدر ما يقوم عليه فيقلع للفرس رأسه وينقلع من الهواء ولم يقدر له على شيء، فتأمل ايوب فرسه فوجده وبه الحفا، فأمر باحراق الرمل وتسخينه فاتمر به، فجعله في بيت، فوضعه فيه، فادخل فرسه في البيت، فجعل له ذلك ثلاثة ايام. فلما كان بعد ثلاثة ايام، امر الامام الناس بالخروج فخرجوا.

والتقى العسكران والناس ينظرون الى ايوب ويتعجبون به لما سمعوا من شجاعته ونجدته، وانه لا يلقى شجاعا الا قتله.

فاعتذر الامام الى المعتزلة ودعاهم الى ترك ما به ضلوا، فاعذر اليهم في الحجة ، فأبوا الا مناصبته، فسألوا المناظرة .

ثم ان الامام، رضى الله عنه، امر بالصفوف، فصفت، والواصلية قد صفت صفوفها، فخرج مهدي للمناظرة بين الصفين ومن معه من اصحابه وجماعة المسلمين فخرج معهم الامام بوجوه اصحابه، فخرج الفتى المناظر من المعتزلة ووجوه المعتزلة معه، فقال مهدي لمحمد ابن يانس، اخرج اليه فناظره. فقال له ابن يانس، بل اخرج اليه انت، ولست بأعلم مني ولكني تخوفت اذا خرجت اليه العرق الذي (يتصبب) (9) من قبل يانس.

قال، فخرج مهدي وتقدم الى الفتى المعتزلي، وقد كان قبل ذلك اسلمته

نفسه وظنت به الظنون، فارسل الى مهدي في سر من اصحابه يقول له اني اذا ناظرتك وغلبتني اريد ان تستر علي، وان غلبتك سترت عليك، وليس فينا احد يدري لمن الدائرة على صاحبه.

فاتفق مهدي مع اصحابه انه اذ غلبت المعتزلي، ان علامة غلبته له ان ينزع شاشيته عن رأسه ويضعها تحت ركبته.

ثم انهما جرت بينهما وجوه من المناظرة والناس يعلمون ما يقولان، فلم يفلح احدهما على صاحبه. ثم انهما دخلا في فنون العلم، فخفى ذلك عمن حضرهما، غير ان الامام يعلم ما يقولان، حتى صار كلامهما عند جماعة من حضرهما كالصفق بين الحجرين عند الامام وعند غيره، فما كان بأوشك ان غلبه مهدي.

فلما غلبه، اخذ الشاشية فنزعها عن رأسه وجعلها تحت ركبته، وكان ذلك امارة بينه وبين اصحابه، اذا غلب المعتزلي، فكبر اصحاب مهدي لغلبة مهدي عليه.

فلما نظر اليه المعتزلي وما فعل، قال غدرتني يا مهدي. فلما افترقا من المناظرة، وقد افلح عليهم مهدي، خرج الفتى المعروف بالشجاعة من المعتزلة، فطلب المبارزة.

فأخذ ايوب بن العباس في هيئة الخروج اليه فجذب فرسه حتى استوى بين الصفين، فأراد ركوبه حيث يراه الفريقان، فتجاهل في ركوبه، فضحك منه عامة الفريقين وازدرته اعينهم. فقال لهم ابو الفتى الشجاع من المعتزلة، هيهات! الان جاء من يقتل ابني. أولا ترى فرسه حين ركبه كيف ادلى، ولا يفعل الفرس ذلك الا تحت الفارس الحاذق.

فخرج (ايوب) الى الفتى، فاقتتلا مليا وتضاربا قليلا، فحمل عليه ايوب بن العباس، فضربه فقتله.

وذكر بعض اصحابنا انه طعنه فشقه برمحه (10) فلما رأت (الواصلية) ابن رئيسها وعميدها وفارسها الذي يحمي عنها صريعا، ولوا منهزمين، بعدما حمي الوطيس واشتدت الحرب واستمر القتل في المعتزلة.

وكان افلح بن الامام يضرب على ناحية وايوب ابن العباس، يضرب على ناحية اخرى. وكان سيف ايوب ابن العباس ليس له الا حد واحد. وقيل شبران مما يلي المقبض، وليس له حد من ناحية واحدة، ولعله اذا عيي جعله على عاتقه (11).

فلما امعن اهل العسكر في قتل الواصلية وأثخن، وضعت الحرب اوزارها ولم يكد يفلت من المعتزلة الا اليسير، صار المسلمون يعدون من اصابه افلح ابن الامام، رضى الله عنه، ومن اصابه ايوب بن العباس، فوجدوا

احدهم اكثر قتلا بقتيل واحد، وقد ذكر انه افلح. وذكر بعض اصحابنا ان قتلى افلح عدتها اربعمائة قتيل (12).

وذكر بعض اصحابنا ان احدهما (كان) يضرب على ناحية واحدة، والاخر يضرب على الناحيتين، والله أعلم اي منهما.

وبلغنا ان المعتزلة حين انهزموا كان المسلمون في ساقتهم وان ايوب بن العباس، نظر الى شيء واقف كهيئة رجل في حومة العسكر، في نقيع الحجاج، فخاله رجلا، فضربه بسيفه فيمن ضربه واحس في يده حين ضربه شدة. فلما رجع قال لاصحابه، اني ضربت شيئا قويا، ولست ادري ما هو، فتصفحوا من القتلى، فوجدوه عمودا واقفا. فلما مسوه بايديهم، وقع من ضرب ايوب له بالسيف، (5) فصار نصفين.

ثم بعد ذلك بزمان، ارسلت المعتزلة الى ايوب بن العباس ان يأتيها، بعد ما فعل فيها الافاعيل، فاراد المسير اليهم، فمنعه عامة المسلمين من ذلك، وابى عليهم الا المسير، وخوفوه من الغدر، فلم يشتغل بهم.

قال، فسار ايوب بن العباس حتى وصل الى بعض احيائهم، تيممه، فابتدره اهل الحي وانزلوه في خص ورحبوا به.

فلما جنهم الليل، قربوا له عشاءه، وهي قَصْعَة كبيرة عليها شاة لحم ورطب من لبن، فأكل القصعة كلها وانتقى عظام الشاة، عظما عظما حتى اتى على اخرها، وشرب الوطب كله من اللبن، ولم يفضل شيئا.

ثم انه عمد الى الركاز الاوسط من الخص، فاتكأ عليه، فاخذ في قراءة القرآن، حتى اصبح. فلما اصبح عليه الصباح، صلى صلاة الصبح بوضوء العشاء الاخيرة، ولم ينتقض عليه الوضوء.

فلما طلعت الشمس، امرهم ايوب ان يقربوا له فرسه، وقد اتفقوا ان يغدروا به. فلما ركب فرسه، تكلم متكلمهم، فقال، يا ايوب، ان فتيان الحي ارادوا ان تلاعبهم على فرسك.

فقال له ايوب: اجل!

ثم ان فتيان الحي ركبوا خيولهم، واخذوا قضبانا يترامون بها. وكان فيهم رجل ذو نجدة وشجاعة فتكفل لهم بغدر ايوب.

فلاعبهم ايوب قليلا، فلم يشعر الا والرجل خلفه، فشد عليه بالرمح، فتغافل عنه ايوب حين علم به.

فلما اراد ان يضربه، اتقى ايوب ضربته، فشد عليهم ايوب، فقتل منهم ثمانية وحمل عليهم مرة اخرى، فقتل منهم ثمانية اخرى، فصاح الى نساء الحي: هل يكفيكن ام ازيدكن؟ فقلن له: يكفينا!

قال فتوجه ايوب بن العباس. وبلغنا انه جاز بواد فوجد فيه سبعا ولبوة واشبالهما، فشد عليهم بالسيف، وقطع حين ضرب رجلي الاسد

ورجلي للبؤة، فتركهما يزحفان ويحبوان فجاز بحي من احياء البربر، فنادى: يا اهل الحي! من اراد منكم اللحم فليمض الى الوادي عند السدرة، فابتدر اهل الحي فوجدوا بها سبعا ولبؤه يحبوان ومعهما اشبالهما. فمن يأكل المكروه، طفق يأكل.

وذكر بعض اصحابنا ان مهدي كان مشتغلا بأمر الاخرة كثيرا تاركا للدنيا، وكان ابن خالته مشتغلا بالدنيا ولم يعرض لعلم الآخرة.

وبلغنا ان الامام، رضى الله عنه، اختصم اليه مهدي وابن خالته بتاهرت، فقال ابن خالته، يا امير المؤمنين ان هذا، يريد مهدي، قد ضيع دنيا حتى كاد ذلك يضر بآخرته.

فقال مهدي، يا امير المؤمنين ان ابن خالتي هذا اشتغل بامر دنياه حتى كاد يضر ذلك بآخرته، فلم يرد لهم الامام جوابا.

فلما توجه الامام، رضى الله عنه الى جبل نفوسة، قصد الى دار مهدي، فوجدهادار عابد زاهد، ليست له في الدنيا رغبة ولا همة، وقد اضر بالامام، رضى الله عنه المطر، فلم يصب عند مهدي ما يقي عنه المطر.

ثم ان ابن خالة مهدي، قال لمهدي، دعه يسكن عندي،فهو انفع للامير واحسن.

قال، فخرج الامام متوجها الى داره، ومعه مهدي، فلما وصل الى الدار، وجدها دار مترف من نعمة قد انبسطت عليه الدنيا، فدخل صاحب الدار الى المخزن، فاستخرج لهم ثيابا جديدة لم ينلها المطر ولم يبتلها. فكساهم اياها، وفرش لهم فراشا ووطاء حسنا وامر بالاطعمة فقربت ووسع عليهم الخير واوقد لهم النيران، فرفع الامام رأسه الى مهدي، فقال، عليك الحجة يا مهدي، ورد لهما جواب مخاصمتهما بتاهرت.

وبلغنا ان مهدي خطب امرأة بجبل نفوسه فمضت المرأة الى شيخ من شيوخ نفوسه، تستشيره في امرها. فقال لها الشيخ، اما مهدي، فرجل عبادة ورغبة في الاخرة، وهو من اهل الصلاح، ولها تلمة مئتا جلواخ، بعيني واسعة، لها سد فوق سد قد انهدت وانهدمت جسورها لا يقدر على سدها واصلاحها الا قبيلة من الناس. فاذا تزوجته، فاظنن الاشد الا بتراب تنقليه على رأسك. فرجعت المرأة، فتزوجها مهدي. ومكث الشيخ زمانا ثم اراد زيارتها في منزلها، فاتاها، فوجدها ليست به، فسأل عنها، فاخبر بموضعها، فتوجه نحوها، فوجدها تنقل التراب على رأسها للتلعة، فتذكر قوله لها.

(1) الواصلية هي مذهب واصل بن عطاء الغزال (80ـ171هـ٠) من ائمة البلاغة وعلم الكلام. وطائفته من المعتزلة. ولقد نشرت الواصلية المناضلة مذهب الاعتزال في مختلف انحاء العالم الاسلامي. حيث

بعث واصل بعدد من رجاله الى اليمن والجزيرة وارمينية والمغرب الخ. لاذاعة المذهب. فاجابه خلق كثير. ولد واصل بن عطاء بالمدينة ونشأ بالبصرة. وقد كان ممن بايع لمحمد بن عبد الله بن الحسن.

وفيما يتعلق بانتشار الواصلية في منطقة تيهرت. فقد ذكر ابو عبيد البكري ان مجمع الواصلية قرب المدينة يبلغ نحو ثلاثين الفا يسكنون «في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها». ولواصل بن عطاء عدد من المؤلفات منها: «المنزلة بين المنزلتين» و«اصناف المرجئة (طبقات اهل العلم والجهل)

وفي واصل واتباعه يقول صفوان الانصاري. شاعر المعتزلة:

له خلف شعب الصين في كل ثغرة
الى سوسها الاقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر
يصيبون فصل القول في كل منطق
كما طبقت في العظم مدية جازر
تراهم كان الطير فوق رؤوسهم
على عمة معروفة في العشائر
وسيماهم معروفة في وجوههم
وفي المشي حجاجا وفوق الاباعر
وفي ركعة تأتي على الليل كله
وظاهر قول في مثال الضمائر

راجع عن واصل ومذهبه. وفيات الاعيان (11-7/6) معجم البلدان (9-7/2) امالى المرتضي (113/1) وفيات الوفيات (317/2) تاريخ الاسلام للذهبي (113/5) مرأة الجنان (274/1) لسان الميزان (214/6) مروج الذهب (298/2) ضحى الاسلام (93-92/3).

(2) في الاصل: وان جربهم مجدا.

(3) ابو المنيب محمد بن يانس. وصفه الشماخي في السير بانه «المجاهد لنفسه المطيع لربه. ذو المناقب الشهيرة. والمآثر الكريمة (ص165-166). وكذلك ترجم له الدرجيني في الطبقات. وهو يصنفه ضمن علماء الطبقة الخامسة (200-250هـ). وقال عنه انه ممن «سمع العلم وسمع عنه». الطبقات (296/2-299). راجع ايضا. الاباضية في موكب التاريخ (17/3-25).

(4) في الاصل: وعدلهم

(5) في الاصل كلمة غير مقروؤة بالشكل التالي: وصر

(6) مهدي النفوسي الويغوي. ترجم له الشماخي في السير وقال عنه انه «المقوم في علم الجدال الذي له اليد العليا في البرهان والاستدلال» (ص170-172). ووصفه الدرجيني بانه «المقدم في علم البيان والاستدلال». الطبقات (313/2-314) راجع ايضا. الاباضية في موكب التاريخ (26/3-31).

(7) في الترجمة: تسعون. ولربما كان سبب التحريف مرجعه الى النقاط حيث ان تسعين وسبعين كلمتان متشابهتان في الشكل.

(8) قارن عن ايوب بن العباس سير الشماخي (ص165) وطبقات الدرجيني (63/1)

(9) في الاصل: الذي في.

(10) في الاصل: في رمحه.

(11) تدل الأوصاف التي وصلت الينا للسيف الذي كان البربر يستعملونه في العصور الوسطى أنه كان طويلا ومستقيما وذا حدين وهو يشبه الى حد بعيد (وربما كان من بقايا نمطه) السيف الطوارقي

المشهور. والذين يعرفون هذا السيف يلاحظون بصفة خاصة صغر مقبضه وطول الحد الذي يفصل بين السيف والمقبض. مما يذكر من بعيد بالصليب. الامر الذي استدل به بعض الباحثين بتسرع على.... توغل المسيحية في بلاد البربر في العصور القديمة حتى وصلت الى قلب الصحراء. وهو، كما لا نحتاج الى تبيينه. استنتاج واه. وذلك كانت بعض هذه السيوف تستورد من البلدان المسيحيةومنها اسبانيا والمانيا. هذا من جهة. ومن جهة اخرى. فان بلاد البربر التي كانت تصنع السيف ذا الحدين. قد اعتمدت ايضا السيف ذا الحد الواحد الذي تسمح متانة ظهره بتسديد ضربة قوية الى العدو. ومقبض هذا السيف لا اثر فيه للصليب المزعوم.وسيف ايوب بن العباس من النوع الاخير. كما نرى.

(12) تقدير عدد قتلى افلح غير وارد في الترجمة.



محاصرة الامام رضى الله عنه لمدينة طرابلس (1)

وحدث غير واحد من اصحابنا ان الامام عبد الوهاب، رضى الله عنه، اراد المسير الى الحج، فأخذ في هيئة السفر، فمضى متوجها(2) الى جبل(3) دمر (4) فجاز بها، فاستعمل عليهم رجلا يقال له فقداراب. وللامام بها مصلى في موضع يقال له تلاليت، وفي محراب المصلى بلاط يتكىء عليها الامام، رضى الله عنه، كقعدته، فيستوى رأسه ورأس البلاطة، فهي اليوم، تبلغ الواقف منا الى الصدر.

ثم توجه الى جبل نفوسه وقد عزم على المسير الى الحج فاجتمعت عليه جموع نفوسه، فاخبرهم بمراده للمسير الى الحج، فقالوا له، يا مير المؤمنين، لسنا ندعك ان تمضي مخافة عليك من المسودة ان يأخذوك ويحبسوك، فتتعطل امور المسلمين وحدود الله. ولو اصبنا ان يقتلوك، فنولي بعدك رجلا من المسلمين، ما بالينا، ولهان ذلك علينا من ان تعطل حدود الله واحكامه.

قال، فارسل الامام، رضي الله عنه الى اخوانه من اهل المشرق، وكان المقدم في ذلك العصر، في الفضل والورع والعلم، ابو عمرو الربيع بن حبيب، رضى الله عنه، وابن عباد. فلما وصلت الرسل الى المشرق والى الربيع وابن عباد، اجابه الربيع، بأن من كان مثلك في العناء لامور المسلمين وتحمل امانتهم وخاف على نفسه من المسودة ان يبعث لحجه وهو حي.

فقال ابن عباد، من كان مثلك على الصفة المذكورة من العناء لامور السلمين، فليس عليه حج، لان امان الطريق من الشروط التي يجب بها الحج على من استطاعه.

فمكث الامام، رضى الله عنه منتظرا لرسوله ان يقدم عليه من ارض المشرق. فلما قدمت الرسل بجواب (عن) مسألته، اخذوا، بقول الربيع بن حبيب، فارسل بمال ليحجج به عليه، فمكث في جبل نفوسه (5) في تلك المرة، فيما بلغنا سبع سنين، يتعلمون عنده مسائل الصلاة، وبقي منها ابواب لم يذكروها.

ثم ان الامام، حين ارسل الى المشرق، توجه بمن اطاعه من الناس الى اهل حيز طرابلس وجبل نفوسة، وعامة من بجبالهم من البربر وغيرهم، يريد حصار مدينة طرابلس، ومكث عليها زمنا محاصرا لها، وكان بينه وبين اهل المدينة قتال شديد، وفيه استشهد مهدي .

وبلغنا انه لما قتلوه قطعوا رأسه، فاذا قالوا له انهزم المسلمون ، انقبض وجهه وتعبس، واذا قالوا له انهزم المسودة انشرح وجهه وتبسم.

ثم ان الامام.. رضى الله عنه، اذا ارادوا ان يتناجوا على كيد العدو، خرج سرهم، وكان ينتقص ممن يتناجون معه، ثم خرج سرهم ايضا، وكان ذلك دأبه حتى لا يبقى الا هو ووزيره، مزور بن عمران، فقال لهم ارفعوا (الحصار، فانا) لا احاصر المدينة برجل واحد، ثم توجه راجعا الى جبل نفوسة، وقد أيس من فتح المدينة، فمكث بالجبل حينا. وكان الامام اعطي من العلم والحلم والاحتمال والصبر والعناية بامور المسلمين كثيرا.

وبلغنا انه اختصم اليه رجلان بجبل نفوسة، فاسترد المدعي عليه، فامتنع وابى من رد الجواب، فقال النفوسي، ماذا يقول هذا الحضري، يريد الامام، رضى الله عنه. فقال الامام لجلسائه، هل هاهنا ابن مغطير؟ فقالوا لا.

فقال الامام للخصمين الاجل غدا. فلما كان بالغد، استمسك المدعي بالمدعى عليه، فامتنع ايضا من رد الجواب، كما فعل اول مرة.

فقال الامام لجلسائه، هل ها هنا ابن مغطير؟ قالوا لا. فقال، الاجل غدا. فلما كان اليوم الثالث، كذلك، قال لهم الاجل غدا.

فلما كان اليوم الرابع حضر الخصمان، واستمسك المدعى بالمدعي عليه، فاسترده الامام الجواب، فامتنع، وقال، ماذا يقول هذا الحضري، فقال الامام لجلسائه، هل هاهنا ابن مغطير؟ وكان ابن مغطير قاعدا في طرف الناس (9) مستغشيا بثيابه، فلم يتم الامام قوله الا وثب ابن مغطير على الرجل، فوطئه بركبته، والرجل يصيح ويقول: ادركني يا مير المؤمنين ! فامر الامام، رضى الله عنه،بتركه فاسترد الجواب، فرده، وحكم بينهم، ولم يضجر بطول سخافة الرجل.

(1) قارن عن محاصرة الامام لطرابلس. طبقات الدرجيني (1/65ـ66) وسير الشماخي (ص196) وازهار الرياض (2/144ـ146).

(2) جبل ولاية طرابلس. وهو يشكل الطرف الغربي للسلسلة التي تمتد من جنوب هذه المدينة حتى قابس.

ذكر الادريسي ان المسافة التي تفصل بين جبل نفوسه وجبل دمر تبلغ «ثلاثة مراحل في رمال متصلة». وقال انه تسكن في اطراف هذا الجبال قبائل من البربر يسمون رهانه. «ينتجون الابل ويركبون امضاها واسرعها». وهذه المناطق تتصل من الجنوب بودان. راجع. المغرب وارض السودان (ص133).

(3) ورد في الترجمة: مع زوجته.

(4) في الترجمة مدرار.

(5) اشتهر جبل نفوسه الذي يمتد من الشمال الى الجنوب على نحو ثلاثة ايام. بانه معقل الاباضية منذ عهد علي بن ابي طالب (ض) وقت انصراف الخوارج عنه بمن سلم معهم من اهل نهروان. وكذلك اشتهر الجبل بمياهه الجارية وغياضه الوارفة الظلال وباشجار الفاكهة. من الكروم والتين وغير ذلك، وبمزارعه التي تصلح فيها زراعة الشعير بصفة خاصة، بحيث يقول ابن حوقل ومن بعده ياقوت، انه «اذا اخبز كان اطيب طعما من خبز الحنطة». وقد تركزت روح المقاومة للسلطان في هذه المناطق البعيدة عن الطرق المطروقة في عدد من القرى التي كان اشهرها قريتان: شروس (او سروس) وجادوا. وذلك بالاضافة الى نفزاوه وقسطيلية. المدينتين اللتين تعتبر كل منهما مركز اشعاع خاص لعلوم الدين على المذهب الاباضي. والجدير بالاشارة ان فتح جبل نفوسه الذي كانت تسكنه نصارى قد تم في عهد عمرو بن العاص الذي اضطر الى وقف فتوحه عند هذا الحد. بناء على اوامر من امير المؤمنين عمر ابن الخطاب ض. راجع عن جبل نفوسه. ابن حوقل (ص92-93) الادريسي (ص105-106) البكري (الفهرست) معجم البلدان (5/296-297) ورحلة التجاني (الفهرست) وكذلك Basset (R). les sanctuaires du Djebel Nafousa; Xavier de Planhol. Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam. p. 143 et 154; تسمية شيوخ جبل نفوسه وقراهم. تحقيق وترجمة: Lewicki (T)

(6) ترجم له الشماخي وقال عنه انه كان «شيخا فاضلا فقيها مفتيا وكان ممن اخذ عن ابي عبيده مسلم. ثم قدم بعده الخمسة المذكورون. فانتقل عن الفتيا وقال اني اخذت عن ابي عبيدة ولم يجرر لي المأخوذ به عنده من الاقوال». راجع كتاب السير (ص143). وكذلك Etudes Ibadites (I/ 92-93) المصدر المذكور



الافتراق الثاني بين الاباضية (1)

حدث اكثر اصحابنا ان الامام، رضى الله عنه، لما اراد التوجه الى تاهرت، اجتمع اليه جوامع اهل طرابلس وطالبوه ان يولي عليهم رجلا. فاراد الامام، رضى الله عنه، تولية بعض وزرائه عليهم، ولم يحبوا ذلك. واراد الامام، رضى الله عنه، ان يولي عليهم وزيره، السمح بن عبد الاعلى، رضى الله عنهما، وطلبوه اليه، لما رأوا من محبة الامام له وايثاره له وحسن شأنه عليه، وهو ابن امامهم، ابي الخطاب (2) رضى الله عنه، قبل ذلك.

فلما علم الامام، رضى الله عنه، مرادهم في السمح، كره مفارقته واراد مؤازرته (له)، وقال، يا معشر المسلمين، انكم قد علمتم ان السمح وزيري واحب الناس الي، وانصحهم، ولن اريد مفارقته. فاذا اردتم ان استعمله عليكم، فاني قد آثرتكم على نفسي واستعملته عليكم، ووادعهم الامام، رضى الله عنه، وتوجه يريد تاهرت، والسمح على حيز طرابلس. فاحسن فيهم السيرة واعدل في حكمه، فذلل اهله واصلحهم، مقرا بامامة عبد الوهاب، رضى الله عنه.

فلما حضرت الوفاة السمح، اجتمع اليه وجوه اصحابه وقد استعمل في طرابلس وحيزها عمالا كثيرة تحته، فقالوا له، وصنا، وامرنا بأمرك، رحمك الله، فانا مطيعوك في حياتك وبعد مماتك، وانك لن تألونا رشدا، جزاك الله عنا وعن الاسلام خيرا.

فقال لهم السمح، اوصيكم ونفسي بتقوى الله والاتباع لما امركم به، والانتهاء عما زجركم عنه، وطاعة امامكم عبد الوهاب، رضى الله عنه وتأييده، ما دام مستقيما عز الحق الذي عليه سلفكم، وجاهدوا من خالفه، وتوفي، رحمه الله، وغفر له.

فلما توفي السمح، رحمة الله عليه، بلغ (الامر في الناس موته مبلغا عظيما وترك ولدا يقال له خلف، وقد بلغ حب الناس لسمح غاية عظيمة بحسن سيرته وعظم درجته، فائتمرت العامة من الناس، ممن ليس له علم في الدين ولا تمييز في امور المسلمين، ان يولوا على انفسهم خلف ابن السمح، وظنوا ان ذلك اوفق لامير المؤمنين، رضى الله عنه من فعلهم، فرد ذلك عليهم من له علم في الدين وبصيرة، وقال: ليس ينبغي ان تسبقوا امامكم الى شيء من اموركم.

وقال بعضهم، نوليه على انفسنا، فان رضى بذلك امير المؤمنين، والا عزلناه عن انفسنا، فأبى عليهم من ذلك اهل الصلاح منهم:

ابو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي (3) رضى الله عنه، وابو الحسن، ايـوب، عامل الامام، رضى الله عنه، على جبل نفوسه، ووجوه من ينظر اليهم من اهل دعوة المسلمين: فابت العامة الا ان يولوه (خلف) على انفسهم. فولوه ، وبعثوا كتابا الى الامام، رضى الله عنه بتاهرت، بنعي عامله، السمح، واستخلافهم ابنه خلفا. فقالوا، ان رضى امير المؤمنين بفعلنا، والا تركناه وعزلناه عن امورنا.

فلما وصلت الامام كتب اهل طرابلس، بوفاة عامله السمح، وتولية بعض الناس ابنه خلفا، ورد اهل الخير ذلك عليهم، ، كتب الامام، رضى الله عنه جواب مكاتبتهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، اما بعد، فاني آمركم بتقوى الله العظيم والاتباع لما امركم به، والانتهاء كما نهاكم عنه. فقد بلغني ما كاتبتموني به من وفاة السمح واستخلاف البعض خلفا، ورد (اهل) الخير ذلك. فان من ولى خلفا بغير رضا امامه، فقد اخطا سيرة المسلمين، ومن ابى من توليته، فقد اصاب. فاذا اتاكم كتابي هذا، فليرجع كل عامل استعمله السمح الى عمله الذي ولي عليه الاخلف بن السمح، فحتى يأتيه امري، وتوبوا الى ربكم وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون».

فلما وصل كتاب الامام الى طرابلس، اجتمع اهلها عليه، فقرؤوه، واصابوا به تخطئة من ولى خلفا وتصويب من توقف عن توليته، وامر الامام بكل عامل ان يرجع الى عمله، الا خلف بن السمح، فكتبوا اليه، رضى الله عنه مرة ثانية، يطلبون ان يجيز لهم ما فعلوا من توليتهم خلفا. وكتب الامام اليهم كتابا ان ما سألوه من تجويز فعلهم، لا يسعه ذلك فيما بينه وبين الله. «ولو وسعني ذلك، لفعلته لكم»، وان يتوبوا من فعلهم ذلك. فأرسل الامام الى خلف، افرده فيه، يأمره بتقوى الله والاعتزال لامور المسلمين والكف عنها، وحرم على من يدفع له صدقات من ماله، فحرم عليه اخذها حتى يعتزل امور المسلمين.

ثم ان الامام، رضى الله عنه، اجتهد في النظر لامور المسلمين بغاية الاجتهاد، فارسل كتابا الى الخاصة من جماعة المسلمين الذين كانوا في طرابلس، وكتابا اخر فيه استعمال خلف، وامرهم ان يدفعوا له الكتاب الاول الذي فيه عزل خلف. فان قرأه واعتزل عن امور المسلمين وكف عنها واطاع امامه، ولم تكن له رغبة في الامور.ان يدفعوا له الكتاب الثاني الذي فيه توليته، وان ابى، الاعتزال ان يتركوه في غيه وزيغه، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

فلما وصلت كتب الامام، رضى الله عنه، الى طرابلس، دفعوا لخلف بن السمح الكتاب الذي فيه عزله، فلما قرأه وفهمه، اعتز واستكبر، وابى من الاعتزال، وتمادى على تولية الجهال (له)، فتركه المسلمون في غيه وزيغه(4).

واما الذين ولوه، فلما وصلهم كتاب الامام، رضى الله عنه، وحرم عليهم فعلهم والاقامة عليه وانه لا يسعه ان يجيز لهم ما فعلوه، وينهاهم ان يدفعوا صدقات (من) اموالهم، فلم يقنعهم ذلك، ولم يرضوا به، اجتمعوا وارسلوا كتابا الى المشرق، الى ابي سفيان محبوب بن الرحيل، وهو اذذاك، رأس الدعوة والمقدم في المشرق، بعد انقراض طبقة الربيع بن حبيب، وابن غسان (5) مخلد بن العمر، وابي المهاجر، وابي ايوب بن وائل.

فلما وصلت الكتب الى ابي سفيان محبوب بن الرحيل (6) رضى الله عنه، كتب اليهم بجواب كتبهم، بتخطئة من ولى خلفا، واصابة من لم يوليه، وامرهم باتباع امامهم، عبد الوهاب، رضى الله عنه.

فلما وصل جواب محبوب اليهم، تركوه ولم يشتغلوا به، حين لم يوافقهم ما اجاب (به و) اخذوا في العلل. وزعموا ان عبد الوهاب، رضى الله عنه، ليس بامامهم، بغير حدث ولا بدعة، وزعموا ان امامهم، خلف، بعد سؤالهم الامام ان يجوز لهم ما فعلوا من توليته، وزعموا ان الحوزات منقطعة عن عبد الوهاب، وانه في حزوة ، وهم في حوزة اخرى، فلم يكن بيننا وبينهم مسائل، الا الاقرار بامامة عبد الوهاب، رضى الله عنه. وسنذكر قولهم والرد عليهم في كتاب «افتراق الاباضية» ان شاء الله.

(1) تختلف رواية ابن صغير اختلافا كبيرا عن رواية ابي زكرياء بشأن الشقاق الثاني الذي وقع في صفوف الاباضية. راجع تاريخ الائمة (ص20ـ23).

(2) من علماء النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. صنفه سليمان الباروني ضمن علماء الطبقة الرابعة. كان وزيرا للامام عبد الوهاب وكان يقوم بالتدريس ويعقد الحلقات راجع عنه طبقات الدرجيني(ص67/1وما يليها) سير الشماخي (ص163) الازهار الرياضية (147/2) الاباضية في موكب التاريخ (77/1).

(3) احد العلماء الخمسة المعروفين بحملة العلم. قارن ما ذكره الدرجيني في الطبقات (21/1) والشماخي في السير (ص124و142). انظر كذلك. الاباضية في موكب التاريخ (17/3ـ25).

(4) قارن بشأن الشقاق الذي ظهر بين الامام عبد الوهاب وانصار خلف بن السمح. سير الشماخي (ص88 وما يليها) ازهار الرياض (148/2 وما يليها). واما رواية الدرجيني (68/1ـ69) فهي لا تعدو كونها اقتباسا لما ذكره ابو زكرياء.

(5) في الاصل: ابو حسان.

(6) قارن عن ابي سفيان محبوب بن الرحيل. طبقات الدرجيني (70/1) وسير الشماخي (ص495).

استعمال ابي عبيدة عبد الحميد (1) (ض) ومحاربة خلف الحبيب بن الطيب

ذكر غير واحد من اصحابنا، ان عامل عبد الوهاب، رضى الله عنه، ابو الحسن بن ايوب، ادركته منيتة، وهو احد العمال الذين انكروا على خلف ما صنع، فارسلت نفوسه الى الامام، رضى الله عنه، يخبرونه بوفاة عامله وان يستعمل عليهم عاملا. فارسل الامام اليهم ان يختاروا افضلهم واولاهم بامور المسلمين، يسمونه له، (ف) يستعمله عليهم.

فراجعوا الامام ثانية الا يصلح لهذا الامر احد الا ابو عبيدة عبد الحميد، رجل من اهل اجناون ، فارسل اليهم الامام، رضى الله عنه ان يولوه على انفسهم، برأيه وامره، فاجتمعت جموع نفوسه حين بلغتها وصية الامام وامره لهم، فارسلوا الى ابي عبيدة، فقالوا له ان امير المؤمنين امرنا بتوليتك على انفسنا واستعمالك علينا لتقضي بيننا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام وآثار الصالحين.

فلما سمع ابو عبيدة منهم ذلك قال: «انا ضعيف، انا ضعيف، فلست اقدر على القيام بامور المسلمين». فراسلت نفوسة الامام مرة اخرى في شأنه واخبروه، بقوله، «انا ضعيف». فارسل اليهم الامام، رضى الله عنه كتابا يأمرهم باستعماله، وحلف لهم بالله، بالعربية، و«برديو» بالحضرية وابيكيش بالبربرية (2) لا اقلد امور المسلمين الا رجلا يقول، «انا ضعيف، انا ضعيف».

وكتب الامام الى ابي عبيدة يأمره بالدخول في امور المسلمين، ويقول له: «ان كنت ضعيفا في المال، فبيت مال المسلمين تغنيك، وان كنت ضعيفا في البدن، فادخل في امور المسلمين، يقوى الله بدنك، وان كنت ضعيفا في العلم، فعليك بابي زكرياء يصلتين التوكيتي (3).

فلما ورد على نفوسه كتاب الامام، رضى الله عنه، اجتمعوا، فارسلوا الى ابي عبيدة، فقالوا له: «لا يسعك الا الدخول في امور المسلمين وطاعة امامك». فقال لهم: «امهلوني حتى استشير عجوزا».

فمضى ابو عبيدة ، متوجها الى عجوز معروفة بالعلم والأدب والورع ، فأتاها ، فقال ، ان امير المؤمنين بعث الي يريد استعمالي على الجبل ، فماذا ترين لي وتشيرين به علي ؟

فقالت: هل كان في جماعة نفوسة من هو افضل منك واحزم؟فقال لها: اما في امور الرجال، فلا.

قالت: ادخل اذا في امور المسلمين لئلا يفسخ الله عظامك في نار جهنم!

قال فاتى ابو عبيدة الى جماعة المسلمين من نفوسه، فانعم لهم في الدخول في امورهم، فولوه على انفسهم.

فقال بعضهم لبعض امضوا بنا لنزور وقاية احسن من عمائمنا!

فلما ولي ابو عبيدة عبد الحميد، احسن السيرة في جميع اموره.

اما ابو زكرياء الذي ذكرناه، فقد بلغنا عنه (كثير) من الفضل والورع.

وبلغنا ان رجلا من اصحابنا من اهل المشرق، اقبل من المشرق يريد زيارة اهل الدعوة، فجاز بالجبل وتفحص اهله وتأملهم وتوجه الى الامام بتاهرت. فلما وصلها تصفح اهلها وتفرسهم. وسأله اهل تاهرت عن الجبل ونفوسه، فقال: «الجبل، هو ابو زكرياء، وابو زكرياء هو الجبل. واما ابو مرداس (ف) مثل الغزال، نفسي، نفسي . واما ابو العباس، ففتى مقرعيني».

فلما رجع من تاهرت الى الجبل، سأله نفوسة عن اهل تاهرت، فقال: «ليس بها الا الامام، ووزيره، يعني الامام عبد الوهاب ووزيره، مزور بن عمران».

وبلغنا ان ابا مرداس (4) اشتغل في امر آخرته، فضاع (عليه) امر دنياه. و(قد) كان فقيرا، فارس ذات مرة رجلا يخطب عليه امرأة، فطاف الرجل بالجبل يطلب ويخطب له، ولم يجد امرأة، الا واحدة مجنونة، فاخبرها ان ابا مرداس ارسله يخطب عليه، فاجابته الى نفسها، فاتاه، فاخبره خبرها، فقال له ابو مرداس تزوجها علي حين اختارتني.

قال فتزوجها عليه الرجل، فمكث معها ابو مرداس دهرا، فكانت بعد ذلك من افضل نساء نفوسه واحسنهن وارفعهن ذكرا.

فلما سمع خلف بن السمح بتولية الامام ، رضي الله عنه ، ابا عبيدة ، اشمخر واستكبر ، وهيجه ذلك ، ودس اللصوص والغارات على اهل الدعوة ، دعوة المسلمين من رعية ابي عبيدة .

ثم ان ابا عبيدة بعث اليه يامره ان يكف عن رعيته امر الغارات، فاذا انتحل ما انتحل من امر الخلافة لامامه، فليكف عن جماعة المسلمين الغارات.

وابى خلف ذلك ولم يشتغل به، وارسل ابو عبيدة الى الامام، رضى الله عنه يخبره ويقول له: «ان خلف بن السمح اشتد علينا بالغارات والعساكر، فاذن لي يا امير المؤمنين في دفاعه».

قال، فرد عليه الامام، رضى الله عنه، الجواب بالملاطفة والملاينة ما قدروا عليها. فان فاجأهم فاليدفعوا عن انفسهم.

ثم انهم مكثوا كذلك برهة من الدهر، فادركت الامام، رضى الله عنه منيته، فتوفي، رحمه الله وقدس روحه وبرد ضريحه.

(1) قارن عن ابي عبيده الجناوني طبقات الدرجيني (70/1 وما يليها) وسير الشماخي (ص79 وما يليها) ازهار الرياض (152-155) وانظر كذلك الاباضية في موكب التاريخ (89/1-103)

(2) راجع عن اسماء الآلة باللغة البربرية

De Motylinski (A), le nom Berbère de Dieu, Revue Africaine, 1905 (p. 141-8)
Marçais (G), Les Dieux des abadites et des Barghwata, Ḥesp. XXII (1936).

وكلمة «بريديو» قد تكون تحريفا من النساخ بزيادة الراء لكلمة «ديو» اللاتينية فتكون «Par Dieu» ونحن نتذكر ان اللغة اللاتينية كانت لا تزال مستعملة في بعض الأوساط بشيوع في المدن في هذا العهد.

(3) ترجم له الشماخي. فقال. نقلا عن ابي العباس. «انه كان علماً لكل الفضائل. ومعلما لكل ناهل راجع السير (ص178). وقد ذكره الدرجيني الذي ينقل رواية ابي زكرياء بحذافيرها باسم ابي زكرياء اللالوتي. قارن ازهار الرياض (153/2). وقد صنفه الباروني ضمن علماء الطبقة الخامسة. واما صاحب الاباضية في موكب التاريخ. فيتحدث عنه باسم ابي زكرياء التكوتي (45/3-46).

(4) ابو مرداس معاصر لعاصم السدراتي : من علماء الصف الثاني من القرن الثاني للهجرة . لزم الامام عبد الوهاب طيلة بقائه في جبل نفوسه . وقد اشتهر بنقده الشديد ومحاسبة نفسه قبل محاسبة الناس . راجع اخباره في سير الشماخي (ص 174 - 175) . وانظر ايضا الاباضية في موكب التاريخ (3 / 37 - 44) . وكذلك المصدر المذكور Etudes Ibadites (I/ 66)



ولاية افلح بن عبد الوهاب (1)

ثم ان جماعة المسلمين بتاهرت، لما توفي عبد الوهاب بتاهرت، وقد الم بهم بجبال تاهرت من العدو كثير، ابتدروا ابنه افلح، رضى الله عنه، فولوه على انفسهم من يومهم ذلك، وكان ميمون النقية، فسكن الله به البلاد ووقى به العباد.

فلما اتصلت الاخبار الى ابي عبيدة بموت الامام رضي الله عنه، كتب الى الامام افلح، رضى الله عنه، يستشيره في امر خلف ويستأذنه في الدفاع، فأمره افلح بما امره به ابوه عبد الوهاب، رضى الله عنه، من الرفق واللطف واللين، ما لم يفاجئوه.

فلما بلغت خلف وفاة الامام وولاية ابنه، احتمى لذلك وانف منه وانحاز بمن معه الى موضع يقال له تيمتى (2) فسلط الغارات على من كان على طاعة الامام، رضى الله عنه، فصاروا يأخذون الاموال وينهبون الديار ويقتلون الرجال، وقد قتل عدة من اصحابه غلطا في حريم ابي عبيدة وحيزه، وحسبوهم من عسكر ابي عبيدة.

ثم انه استمال كثيرا من الناس من اجل ان ما قبله من الارض خصبت وتربعت وجدب ما قبل ابي عبيدة، رحمه الله، فكانوا معه، طلبا لمعاشهم ورغبة في الدنيا، وكانوا معه على رأيه وبدعته. ثم انه خرج بعسكره يريد ابا عبيدة ومن معه من المسلمين، حين ابصرهم في قلة. وكان هو في كثرة، ليستأصل شافتهم.

فسمع باخباره عبد الحميد، فامر اصحابه بالخروج، فخرجوا، فعسكروا بعيدا من الجبل.

فلما قرب عسكر خلف من عسكر ابي عبيدة، ارسل خلف رعيلا من خيل نحو اربعمائة، فارسل فيهم اخوته ومواليه وعبيده، فلم يشعر بهم عبد الحميد حتى غشيه ومن معه نهارا، هو واصحابه، معسكرين في حيزهم وحريمهم.

فلما رأى ابو عبيدة ذلك، قدم الى اصحابه الا ينالوهم بمكروه وان يكفوا عنهم حتى يعلموا ما يريدون. فكف عنهم عبد الحميد واصحابه حتى هجمت تلك الخيل على قرية كانت بحيال عسكر ابي عبيدة تسمى ايدرف في حيز عبد الحميد وحريمه وطاعته، فوضعوا ايديهم في النهب واكل الاموال، وقتلوا من قدروا عليه، فيما بين العسكر والمنزل.

وبلغنا ان تلك الخيل اصابت نحوا من عشرة انفس من اصحاب ابي عبيدة. فلما استبان لعبد الحميد ظلمهم وبغيهم، امر اصحابه بمنابذة تلك

الخيل ومناصبتها. وناصبهم عبد الحميد واصحابه، فانهزموا وقتل منهم كثيرا، فأراد اصحاب عبد الحميد متابعتهم، فأبى لهم ذلك، فاحسن فيهم السيرة.

فلما رأى خلف هزيمتهم، رجع بعسكره الى الموضع الذي خرج منه، وهو تيمتى، وانحجز فيه. ورجع عبد الحميد الى منزله ووطنه، وامر اصحابه بالرجوع الى منازلهم، وظن ان القوم لا يريدون بعد ذلك بأسا.

ثم انه ارسل الى خلف، فقال له: «فأذ فعلت ما فعلت، فلماذا الحرب (3) كن في حيزك، واكون في حيزي». فابى ذلك خلف، وامر خلف اصحابه الا يفتروا عن الغارات على اهل طاعة ابي عبيدة ورعيته، وامرهم بنهب الاموال وقتل الانفس و(القيام بـ) ما قدروا عليه من الفساد.

ثم ان خلفا مكث بعد ذلك حوالي سنة، وقد اجتمع له عدد كثير، (و) خرج معسكرا، يريد ابا عبيدة ومن معه من المسلمين.

وامر ابو عبيدة بالخروج، فخرجوا، فعسكروا بعيدا عن الجبل، وليس معه من الناس الا القلة، ولكنهم اهل بصائر، يموتون على ما ابصروا، ولم يبالوا في قلة كانوا او في كثرة، مرادهم بين ايديهم.

وذكر بعض اصحابنا ان عدتهم سبعمائة، وذكر آخرون ان عددهم عدد اصحاب بدر من المسلمين، ثلاثمائة وثلاثة عشر. فاقبل خلف بمن معه من العساكر، وقد اعجبته نفسه، وكثرة من معه، ولم يعلم ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وعدد عسكر خلف اربعون الفا.

ثم ان خلفا ارسل الى ابي عبيدة رسولين بخلع ولاية افلح واثبات ولايته هو.

فلما قدم الرسولان على ابي عبيدة يدعوانه الى طاعة خلف، وخلع طاعة افلح، رضي الله عنه، حاججهما ابو عبيدة في امر الائمة وقال لهما: «فهل احدث الامام رضى الله عنه، او ابنه افلح، رضى الله عنهما حدثا، او امرا يحل لكما به خلع ولايتهما؟». واحتج عليهما بطاعة السمح لعبد الوهاب، رضى الله عنه حتى مات، فاعتلا بالحوزات وانقطاعها. وقال لهما ابو عبيدة ان السمح قد اقرّ بطاعته على افتراق الحوزات.

فقال احد الرسولين: «اننا نخاف ان لم تجب الى طاعة هذا الرجل، اراقة الدماء».

فقال له ابو عبيدة: «أيهما اعظم، اراقة الدماء، او ترك القيام بدين الله؟».

فقال له الرجل: «اراقة الدماء اعظم».

فقال ابو عبيدة: «لو كان الامر كما ذكرتم، ما افترق اصحاب النهر وغيرهم ولاذعنوا لطاعة الظلمة المسودة واصحاب النخيلة وابو بلال (4)

واصحابه، وعبد الله بن يحيى (5) وابو حمزة (6) واصحابهما، وابو الخطاب (7) ومن تبعه من المسلمين وابو حاتم (8) ومن تبعه، رضى الله عنهم اجمعين، حتى لا يجتمع منهم اثنان حتى اعد له من اسلاف المسلمين عددا كثيرا (9)، وانما اهرقت دمائهم على القيام بحق الله، ولم يتركوا القيام بحق الله مخافة اراقة الدماء، ولكنهم رغبوا في الجهاد والقتل في سبيل الله، فبذلوا مهجهم لاسنة السيوف، حتى ادركوا رضوان الله. فنحن على آثارهم، ان شاء الله، لا نبتغي به بدلا ولا عنهم حولا. فمن اراد غير الله، فالله يحكم بيننا وبينه بعدله وفضله وهو خير الحاكمين.

ثم ان ابا عبيدة قال للرسولين، اذا كان عندكم إهراقة الدماء اعظم من القيام بدين الله، فعلم يقتل الناس؟ ارجعوا الى صاحبكم، فقولوا له ان هذا يوم الخميس، دعونا (منه)، فاذا كان الغد، يوم الجمعة، ان شاء الله، نصوم لله تعالى، واطلع انا وخلف بن السمح وابو المنيب اسماعيل بن درار الغدامسي على شرف،فنبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، وان يفتح بيننا وبينكم وهو خير الفاتحين.

فهذا كله والخيل ثابرة غادية ورائحة على القرى التي وليها ابو عبيدة، تقطع الميرة وتطلب الغارة بمال تأكله او من تقتله.

فرجع الرسولان الى خلف، فاخبراه بما جرى بينهم (وبين ابي عبيدة) من الكلام، فأمر عساكره بالتهيء لملاقات ابي عبيدة.

فلما قرب العسكران وتراءى بعضهم من بعض، تقدم رجل ممن كان مع خلف بن السمح، وكان محاميا لجماعة المسلمين، ومن يشفق عليهم، فقال لابي عبيدة: «تنحَّ باصحابك الى سفح الجبل، فان تكن الدائرة لكم ادركتم ما رجوتم، وآمنتم ما خفتم، وان تكن عليكم، كنتم في حصن ولا يغرنكم ذلك».

فقال ابو عبيدة: «نصيحة نزعها الله من عدوه». فأمر اصحابه بالتنحي فاسندوا ظهرهم الى الجبل.

فلما تنحى ابو عبيدة الى الجبل، ظن خلف ان بهم جبنا وخورا عن القتال، (فـ) قدم سرعان خيله، وتبعهم بعساكره.

فلما غشيت الخيل ابا عبيدة ومن معه من المسلمين، دعى ابو عبيدة بماء الوضوء، فأمر رجلا، فجعلوا له سترا، فتوضأ وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى وابتهل اليه ان يفت شوكتهم، ثم قال: «يا من لم اعرض عنه منذ استقبلت امره، لا تفرق هذه العصابة على يده».

وبلغنا ان رجلا من عسكر خلف، تقدم الى رجل في طرف صف ابي عبيدة، فقال: ما الذي اوقفكم؟

فقال الرجل الذي في عسكر ابي عبيدة: وقفنا لذكر الله. فقال الخلفي:

ما بال السلاح؟ فقال له: للدفاع في سبيل الله. فقال له: من تدفعون؟ فقال: من بغى علينا.

فتكلم رجل اخر من عسكر ابي عبيدة الى صاحبه، فقال له: مالك بينت له الكلام؟ فقال له الرجل: طمعا في الصلح، ولتأخير بعض الشر، يا أخي.

ثم ان الصفين تدانيا بعضهم من بعض، وذلك، عشية الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة احدى عشرة ومائتين، بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتقوا فاقتتلوا قتالا شديدا، وكان في عسكر ابي عبيدة رجل شجاع، حاذق بالطعن، يقال له العباس، وهو ابو ايوب بن العباس (10) نظر اليه ابو عبيدة (وهو) يضرب في اعراض الخيل ويكشفها، يمينا وشمالا وقد حمى الميمنة والقلب والميسرة، فقال ابو عبيدة (11)، وقد ذكره، صار في عيني كالعقاب معصّم، لما أكلته النار، يريد العباس.

وقد ذكروا عن العباس ايضا انه ضرب رجلا بسيفه، فطير رأسه، فقال العباس للرأس حين طارت: «الى النار»! فقال له الرأس مجيبا: «ولبئس المصير»!! وكان ممن قد عرف بالنسك والعبادة قبل ذلك. وقال (العباس) جسد ادعو له بالجنة زمانا تأكله النار! انا لله وانا اليه راجعون.

وبلغنا ان رجلا من اصحاب ابي عبيدة، رمى في عسكر خلف بمزراق، فصادف رجلا، فخرج منه المزراق، وركل خلف الرجل، فخر صريعا، فبنوا بعد ذلك، في ذلك الموضع وجعلوه مصلى، وهو الى اليوم معروف، فاسرع القتل في عسكر خلف وانهزموا، وقتلت منهم مقتلة عظيمة.

وامر ابو عبيدة اصحابه ان لا يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح، فاحسن فيهم السيرة، احسن الله اليه، فانحاز عليه (12) خلف وبقية اصحابه الى تيمتي، فامر باخراج جميع من فيها من نفوسه وغيرهم، من اصحاب ابي عبيدة،

ولقد اخرج منهم كثيرا من اصحابه غلطا عليهم واجل لهم ثلاثة ايام. فمن وجد بعد ذلك فمهدور الدم والمال، ومن ليس له ذنب، على كره منهم، من منازلهم واوطانهم.

فلما هزمهم الله، افترق جل اصحابه عنه من نفوسه وغيرهم، فصاروا يأتون الى ابي عبيدة يتوبون ويقبل منهم توبتهم ويرجعون عن خلف.

وبلغنا ان رجلا ذا مجهود اتاه فيمن اتاه تائبا فقال له، تبت، يا ابا عبيدة. فقال له ابو عبيدة، قبلت عنك، تاب الله عليك. فاتاه رجل اخر ممن اتى الامر على عمد وعلم، فقال، تبت يا ابا عبيدة، ان لم يسدد بعد، يابن تجيمت، يريد باب التوبة، فاوهن الله شوكة خلف، ولم تسكن له بعد

ذلك حركة، حتى مات في زيفه وغيه، ثم من بعد ذلك، ابنه، ولم تسكن له حركة، ثم ان ابن خلف، انحاز الى جربة والتجأ اليها، وسنذكر حديثه وخبره ومنتهى امره، اذا نحن صرنا اليه، ان شاء الله.

ثم ان الامام افلح، رضى الله عنه، القى بيده يمينا وشمالا وتمكن في امامته، واطردت له الامور.

وبلغنا انه قعدت عليه اربع حلق يتعلمون عند فنون العلم، قبل ان يبلغ الحلم، وبلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما.

وذكروا عنه انه قعد ذات ليلة هو واخته، فقال لها، هلم نحسب ماذا يذبح في السوق غدا اولا، ان شاء الله، فحسب، فقال لها أفلح، ان اول ما يذبح في السوق بقره صفراء، في بطنها عجل ذو غرة في جبهته. فقالت له، صدقت هي البقرة الصفراء وفي بطنها عجل، غير ان الذي رأيته، هو طرف ذنبه ابيض تعممه على جبهته، فخلته ابيض الجبهة ذا غرة، وانما ذلك، طرف ذنبه.

ثم ان ابا عبيدة عبد الحميد ادركته منيته، فتوفي، رحمه الله. فاستعمل الامام، رضى الله عنه على نفوسة، العباس، وكان يرجو فيه الخير بدعوة الشيخ ابي عبيدة له، حين قال: «معصم، لا اكلته النار».

ولي، فاحسن السيرة، فكان على سبيل اصحابه حتى مات، رحمة الله عليه.

(1) بويع الامام افلح بن عبد الوهاب في اليوم الذي توفي فيه والده. وقد اشتهر الامام الثالث بالعدل والشجاعة وقوة الساعد. كما عرف بشغفه بالعلم والمداولة فيه ومساجلة العلماء. وقد وصفه الشماخي بقوله: «الامام التقي، العدل العالم الانجح، امير المؤمنين، افلح بن عبد الوهاب الذي تمسك بالحجة البيضاء والصراط الافيح». وذكر سليمان الباروني ان الامام افلح قد خلف عدة مؤلفات ورسائل واجوبة ونصائح ومواعظ وحكما كما كان اديبا ذا اقتدار على النظم». وقد امتاز عهد الامام افلح، خصوصا، بتوثيق علاقات تيهرت بعدد من ممالك افريقية السوداء، وفي مقدمتها، مملكة «كوكو» التي تبعد عن تيهرت بمسافة ثلاثة اشهر، وكانت القوافل التجارية تغدو وتروح اليها، خصوصا، من وارجلان. وكذلك قامت علاقات بين هذا الامام وبين خلفاء الاندلس الامويين. وتعرض ابن الصغير المالكي الذي كان معاصرا للدولة الرستمية ويكتب في تيهرت، لوصف عهد الامام افلح، فقال انه كان عهد ازدهار اقتصادي لم تعرف له البلاد من قبل مثيلا. فقد عمر المدينة (تيهرت) وبنى فيها القصور واتخذ لها بابا من حديد! «وعمرت معه الدنيا وكثرت الاموال والمستغلات، وأتته الرفاق والوفود من كل الامصار والآفاق بانواع التجارة، وتنافس الناس في البنيان، حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة، واجروا الانهار... وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الاموال بايديهم».

وقد توفي الامام افلح لتأثره من سجن ابنه، ابي اليقظان في بغداد، وذلك في سنة ٢٤٠هـ. فكانت مدة خلافته ستين سنة، على حد قول ابي زكرياء والدرجيني الذي ينقل عنه، او خمسين سنة، في رواية ابن الصغير. وهذا الخلاف يتصل بقضية تاريخ وفاة الامام عبد الوهاب التي استعرضنا مختلف الأقوال بشأنها في هامش سابق (راجع ص 55 ـ 56 هامش 1) . والى جانب المصادر

التي سبقت الاحالة اليها في ذلك الهامش. يمكن الاستفادة بصفة خاصة من المراجع التالية عن الامام افلح : سير الشماخي (ص 192 وما يليها) طبقات الدرجيني (54/1 ـ 55) و (72/2 ـ 83) تاريخ ابن الصغير (ص 23 ـ 31) الأزهار الرياضية (166/2 ـ 222) تاريخ الجزائر العام (23/2) الكامل (519/6) معجم اعلام الجزائر (ص 52)

(2) لم يتمكن احد من الباحثين الذين تعرضوا لهذا الموضوع من التعرف على قرية «تيمتى».

(3) في الاصل: فمايال الحرب.

(4) هو مرداس بن حُدير، ابو بلال. من كبار «الشراة». شهد صفين مع علي ولكنه انكر التحكم. وشهد النهروان وسجنه عبيد الله بن زياد بالكوفة. وقد كانت له مواقف معارضة مع زياد تعرض لها صاحب الطبقات بالتفصيل. واما موقفه مع عبيد الله بن زياد. فخلاصته ان ابا بلا هرب من السجن والتجأ مع ستة وثلاثين من اصحابه الى آسك. بالاهواز. واذاع في الناس انه لا يقاتل الا من قاتله وانهم لن يروعوا احدا ولن يأخذوا من الفيء الا اعطياتهم. وقد وجه اليهم عبيد الله بن زياد جيشا تعداده الفين. وجيش ابي بلال لا يتجاوز اربعين مقاتلا. فدخل الطرفان في معركة انتهت بهزيمة جيش الخليفة. وبعد ذلك وجه اليهم جيشا اخر بقيادة عباد بن اخضر (كذا في الطبقات. وفي رواية بن علقمة المازني). وبعد محاورات بين الطرفين اتفقا علي وقف القتال للصلاة. ولما القى ابو بلال واصحابه بسلاحهم وشرعوا في الصلاة. احاط بهم جيش عبيد الله وقتلهم غدرا عن اخرهم. وكان ذلك في سنة 61هـ. ومن رثاء ابي مرداس يقول عمران ابن قحطان:

يا عين أبكي لمرداس ومصرعه
يا ربَّ مرداس اجعلني كمرداس
تركتني هائما ابكي لمرزئتي
في منزل موحش من بعد ايناس
انكرت بعدك ما قد كنت اعرفه
يا رب مرداس اجعلني كمرداس

على ان «الشراة» انتقموا لابن مرداس واصحابه وقتلوا عبادا وابنه بعد ذلك.

راجع عن ابي بلال طبقات الدرجيني (214/2ـ223) سير الشماخي (ص66) الكامل (203/3 و38/4) الجمهرة (ص212) معجم البلدان (57/1) معجم ما استعجم (ص91) رغبة الامل (87/7ـ196).

(5) هو عبد الله بن يحيى بن عمر الكندي. ابو يحيى. الملقب بطالب الحق. امام اباضي من اليمن. خلع طاعة مروان ابن محمد وبويع له بالخلافة واستولى على صنعاء ومكة واشتد خطره وتبعه ابو حمزة. المختار وبلج بن عقبة وابو الحر علي ابن حصين ويحيى بن حرب وغيرهم. وقد وجه اليه الخليفة جيشا بقيادة عبد الملك بن محمد السعدي. ودخل في معركة مع ابي حمزة قتل فيها الاخير. ثم سار الى طالب الحق الذي خرج اليه من صنعاء ونشبت بين الطرفين معركة انتهت بمقتل طالب الحق. زعيم الثورة نفسه. وكان ذلك في سنة 130هـ. راجع عن هذه الثورة. طبقات الدرجيني (258/2ـوما يليها) اليعقوبي (77/3و78) الكامل (388/5ـ392) سير الشماخي (ص98 وما يليها) البداية والنهاية (36/10) دائرة المعارف الاسلامية (957/2).

(6) هو المختار بن عوف بن سليمان بن مالك الازدي البصري. ابو حمزة. ثائر اباضي من رجال طالب الحق الذي التقى به في سنة 128 وبايعه بالخلافة في حضرموت. وتوجه ابو حمزة من اليمن الى الشام لقتال مروان بن محمد. فاستولى على مكة في طريقه. ثم قاتله اهل المدينة في «قديد» وقتل منهم نحو سبعمائة. ثم واصل سيره في اتجاه الشام. ووجه مروان لمقاتلته جيشا تعداده اربعة الاف مقاتل. فالتقى الجمعان بوادي القرى فكانت الهزيمة من نصيب الخوارج فعاد ابو حمزة

ببقية جيشه الى مكة ولحق به جيش الخليفة ودخل الطرفان في معركة قتل فيها ابو حمزة في سنة (130هـ). راجع الدرجيني الذي ترجم لطالب الحق ولابي حمزه في فصل واحد (258/2 وما يليها) الشماخي (ص98 وما يليها) الكامل (388/5ـ392) البداية والنهاية (35/10) شذرات الذهب (177/1) تاريخ الطبري (حوادث سنة 130) مروج الذهب (230/5).

(7) راجع ترجمته اعلاه

(8) راجع ترجمته اعلاه

(9) كذا في الاصل. وقد صعب علي قراءة النص بتعديل بسيط. ولربما كان من الملائم ان نقرأه كما يلي: «حتى لا يجتمع (وراء احد) منهم الا واعد له من اسلاف المسلمين الخ». وقد قرأ ماسكري هذه الكلمة وترجمها كما يلي:

Deux de ces hommes suffiraient à représenter l'islamisme et la majorité des musulmans devraient les soutenir » (p.159)

(10) قارن عن العباس بن ايوب سير الشماخي الذي وصفه بانه «من اهل التقى والصلاح والاشتها في طرق الخير وسبل الرشاد... له اخبار في الشجاعة وسير الحروب» (ص165). وطبقات الدرجيني الذي ينقل ما اورده عنه ابو زكرياء (76/1). وسليمان الباروني في ازهار الرياض (172/2) الذي يقتبس هو ايضا ما ذكره ابو زكرياء.

(11) في الاصل: له.

(12) في الاصل: اليه.



الافتراق الثالث في الاباضية

حدث غير واحد من اصحابنا ان الامام، رضى الله عنه استعمل على قنطرارة ابا يونس، وسيم النفوسي (1) فولى قنطرارة وما والاها، فاحسن السيرة. وكان ابو يونس (2) اصله من نفوسه، فخرج من الجبال متوجها الى قنطرارة وكان سبب خروجه ان اماءه ، اذا خرجن الى المفحص ليحطبن، صرن يأخذن الحطب من اجنة الناس، فاذا أمطر في وقته، كانت المواضع التي يأخذن الحطب منها يتمكن فيها المطر. فيأخذ الماء (في الجريان) فتنهدم الجسور بذلك، فخرج خوفا من اتباعه، فولي بقنطرارة سنين عديدة.

وبلغنا عن ابي يونس انه طلع على الشرف الذي بنيت عليه قنطرارة، وهو يقول: لا فرار من الصدقة، والفار من الصدقة يؤذي. لا فرار من الصدقة، والفار يؤذّى، ويكرر ذلك حتى صعد الشرف.

وارسل ابنه، سعيد الى الامام، رضى الله عنه، ليتعلم عنده العلم، ومع سعيد، نفاث بن نصر يتعلمان عند الامام. فلما بلغا من العلوم ما قدر الله لهما، توجها نحو بلادهما، حتى توفي ابو يونس وسيم، والد سعيد، فاراد الامام، رضى الله عنه ان يستعمل على قنطراره، فاختبر الناس بذلك وميزهم، فوجد سعيدا لاحكام المسلمين اصلح، ولامور الدين احسن، ولحدود الله اصلب، فكتب سجلا باستعمال سعيد، فطواه وختم عليه بخاتمه، ولم يبين لهما العامل منهما، فدفع لهما السجل، فامرهما الا يفكا عن السجل حتى يأتيا الى بلدهما ويصلا الى قنطرارة.

فمضيا ، فلما كانا ببعض الطريق، استخف بنفاث الشره والخفة وسوء الخلق وحب الرئاسة وارادة الامارة، واستغفر سعيدا، فتخلف الى رحلهما، فقتش وراء المكتوب فوجه وفض خاتمه وفكه وقرأ الكتاب ليعلم من استعمله منهما، فوجد (أن) سعيدا هو العامل، فظنت نفسه الظنون، واضمر في قلبه الغش والعداوة، حيث لم يستعمله الامام.

فوصل سعيد الى قنطرارة، فولي واحسن السيرة واقام بحق الله فيها وله منبر وجمعه (3).

ثم ان نفاثا، لما وصل الى بلده، سئل عن الامام، فاظهر الطعن فيه. فقال، اضاع امر المسلمين، ويزيد في الخلقة ويلبس الطرطور ويخرج الى الصيد، ويصلي بالاشابر، فبلغ ذلك الامام، رضى الله عنه، وما يقوله فيه. فارسل اليه الامام ان يأتيه، فما نقمه عليه نقضه بين يديه، وان كان حقا، اعتبه الامام من نفسه، وان كان باطلا، فايه... ويواعده الامام بقوله «ايه».

فلما سمع نفاث بذلك، قال، «ايه» من السلطان، هو القتل. وله مسائل انتحلها لا اصل لها : منها الخطبة، زعم انها بدعة.

وسئل عن مسألة، فقيل له رجل مات وترك اخوته من الاب وبني اخوته من الاب والام. فقال بنو الاخوة من الاب والام اولى من الاخوة من الاب، فزاد ضلالا الى ضلاله.

وذكر المشائخ انه لو لم يفته الا هذه المسألة لكفر بها وحدها.

وبلغنا ان نفاثا له ابن اخت. فرأى ابن اخته ذلك ليلة رؤيا، فأتى الى نفاث فقصها عليه. فقال، رأيت رؤيا، فعبرها لي. رأيت رجلا جمع عرمة شعير، فرقى على رأسها سنور فوقف عليها. فقال له نفاث، ذلك رجل يجمع العلوم، فيستولي عليه الشيطان.

فقال له الفتى، ابن اخته، فانت هو، يا خالي!

وبلغنا انه دخل منزلا، فقصد الى رجل فلم يجده في منزله، فخرج، فجاء صاحب المنزل، فاخبره عياله بخبر نفاث، فأخذ دابة له فركبها وتبعه يريد ان يدركه ليكون على مذهبه، فجنه الليل فمشى حتى سمع صوته بليل مظلم وهو يقول: «ضللت واضللت، يا نفاث، يريد نفسه (وراح) يردد ذلك.

فلما سمع الرجل ذلك منه، قال، كيف لي باتباع رجل يقر على نفسه بالضلال، فرجع عنه وتركه.

وبلغنا انه اعطي في العلم منزلة عظيمة والفهم، ولكنه افسد ذلك كله بالحسد وحب الامور.

وذكروا عنه انه جاءته امرأة ذات مرة تستفتيه في مسألة، فقالت، ما تقول في بيض طاهر طبخ في ماء منجوس. فقال لها، قفي مكانك حتى اخرج اليك.

فقعدت المرأة ودخل الى الدار فاخذ بيضة ونيلا وجعله في قدر وماء، فطبخها حتى انضجها، فنزع فكسر منها، فوجد النيل قد سوّد القشرة وتغير داخل البيضة حتى صار كلون النيل، فعلم ان القشر لا يمنع النجس، فخرج الى المرأة، فقال لها ان البيضة قد نجست.

وبلغنا ان سعيدا خرج متوجها في اثر نفاث، وهو يجبل نفوسه، مخافة من يضل من الناس، فعمد سعيد الى دار يحال، فاخذ في بنيانها، وكان نفاث بناء عظيما. فاراد نفاث معونة سعيد في البنيان، وصار يبني له، ويجتمع الناس الى سعيد في حوائجهم، فاذا نصر سعيد الى الناس قد اجتمعوا عليه، وتخوف ان يتوهموا انه قد رضي على نفاث، صار يقول في ملاءٍ من الناس: فالى متى تترك كفرك يا نفاث، فيقول له نفاث: معاذ الله من الكفر، يا شيخ!

فاذا خلا سعيد باصحابه، قال ليس جزاء من يخدمني ويبني لي ان اشتمه في وجهه، وانما تخوفت من الفتنة على الناس. ولذلك فعلت ما فعلت، وانما جزاؤه الخبز واللحم.

وذكر بعض اصحابنا ان نفاثا توجه الى ارض المشرق، فلما وصل الى بغداد، مكث فيها زمانا وكان يستأنس برجل من اهل بغداد ويقعد معه في حانوته ويحدثه. فبينما هم كذلك، اذ سمع نفاث مناديا ينادي، فقال لصاحبه، ماذا (ينادي) المنادي؟

فقال له صاحب الحانوت، يقول من اجاب امير المؤمنين (في) مسألة، فله سؤله ومناه.

فقال له نفاث، انا اجيب امير المؤمنين (على) مسألته.

فقال له صاحب الحانوت، أسكت، لانه (سـ) يقطع رأسك ان لم تجب امير المؤمنين بعد تكلفك الجواب.

فقال له نفاث، اجيبه عن كل ما سأل.

فلما جاز اعوان السلطان على الحانوت، قال لهم (صاحبه)، ان هذا الرجل تكلف ان يجيب امير المؤمنين (على) سؤاله .

قال، فابتدر الاعوان الى نفاث، فاخذوه وحملوه ومضوا به الى دار الامارة، فاستأذنوا له على السلطان، فاذن لهم السلطان فدخله (عليه).

فلما مثل بين يدي السلطان، سلم سلام الامارة، فقربه السلطان وادناه فسأله عن احواله وبلده ونسبه ومولده، فقال نفاث، يا امير المؤمنين، انا رجل من البربر، والبربر ليس معهم ادب، فأريد ان تأذن لي ان اتكلم في مجلسك بما بدا لي.

فقال له السلطان، قل ما بدا لك.

ثم ان السلطان سأله عن مسألة، فاجابه (عنها) وزاد عليه السؤال، فكلما زاد عليه اجاب، وقد اجتمعت وجوه بغداد وفقهاؤها وعلماؤها، فطفقوا يسألونه عن العلم حتى عيوا، فلم يقدروا على شيء، فنظر اليه السلطان وتأمله مليا، وتعجب مما حوى من العلم، مع سخافته ونسبه، وقلة ادبه، فقال، نعم العسل في ظرف سوء. ففطن له نفاث فقال، وهو يعرض به، كما فعل (هو): نعم الرجل في نفر سوء، يريد ديوان جابر بن زيد، رضى الله عنه (4) الذي كان محصورا في الخزائن لا يستنفع به احد، واحتمى لذلك السلطان وغضب وانف من قوله، وتذكر عهده وامره له ان يتكلم في مجلسه ما يريد.

ثم ان السلطان قال له، سل حاجتك. فقال له نفاث، حاجتي ان تهب لي ديوان جابر بن زيد ان انسخه، فاجابه السلطان الى ذلك. فلما خرج نفاث قال للسلطان بعض وزرائه، وكيف يا امير المؤمنين عندك ديوان جابر بن

زيد وفي بلدك وخزائنك وتجود به لغيرك وتخرجه من مدينتك، على انه لا يوجد في شيء من البلدان سوى بلدك. او لا ترى ما فعل الرجل وما بلغ من العلوم على فقد ما يتعلمه منه، فكيف لو اصاب ديوان جابر بن زيد، رضى الله عنه.

فلما سمع السلطان ذلك من قولهم، ندم على وعده لنفاث نسخه، وقال للوزير، اني قد وعدت له ذلك، وما الحيلة، ومثلي لا ينبغي له ان يخلف وعده؟

فقال له الوزير، ارسل اليه، وقل له الديوان الذي وعدتك ان تنسخه (لك) فاختر أي يوم شئت من ايام السنة وليلته، فتنسخ فيه ما قدرت عليه، واما (بـ) غير ذلك، فلا تصيبه.

ففطن نفاث ان بعض وزراء السلطان طعنوا فيه عنده فقال نفاث للسلطان افعل يا مير المؤمنين.

ثم ان نفاثا اشترى دنانير حبرا من عفص وزاج وصمغ (5) وعمل احواضا فحصها بالجير والشيد وهيأ للحبر امكنة يمكن (معها) للوراقين الكتابة من اماكنهم.

فلما كان اطول يوم في السنة، امر مناديا في الناس: الا ان كل وراق كتب في يومه هذا فله دينار، وللملي نصف دينار، فابتدره الناس من كل مكان، فاتفق معهم.

فلما جاء اليوم الذي انتخبه للكتابة، اخذ الوراقون في الكتابة.

ولما كان عند غروب الشمس، امر مناديا ينادي: الا من يكتب لنا ليلته هذه بدينارين، وللملي دينار.

فابتدره الناس من كل جانب يكتبون، فما طلع عليه (النهار) الا وقد استكمل ديوان جابر بن زيد، رضى الله عنه، الا كتابا واحدا، وكمل عنده سبعة احمال، فدخل على السلطان يطلب اليه ان يدعه ان ينسخ ذلك الكتاب. فأبى عليه السلطان، فسأله ان يدعه يقرأ بين يديه مرة واحدة وعصه اياه، فقراه مرة واحدة، فحفظه،فقال للسلطان اني قد حفظته ظاهرا، وان اردت ان اتلوه عليك فعلت. فقال له السلطان، اتله علي. قال فاخذ في قراءته حتى اتمه.

ثم ان السلطان، جمع وجوه اصحابه ووزرائه، فقال لهم ان هذا الرجل قد غلبنا، فما ترك لنا من حيلة. واراه يريد الخروج بهذا الديوان، ولم اصب اليه سبيلا، فانظروا بما تحولون بينه وبين هذا الديوان، فافعلوا.

ثم ان السلطان قال لهم، اذا اراد التوجه الى بلده، فاني سأخرج اليه فاسأله، فان وقف لي في مسألة قتلته.

والا، فاسألوه عما قدرتم عليه، فمن وقف منكم في مسألته قتلناه.

فلما ازمع نفاث على المسير الى بلاده، خرج اليه السلطان فتلقاه في عدة من اصحابه. فلما وصلوا اليه وجدوه وقد اراد الركوب على بغلة له (و) قد وضع رجله في الركاب، فسأله السلطان عن مسألة، فطفق الناس يسألونه حتى قرب وقت الصلاة، فلم يقدر له على شيء.

قال، فتعرض نفاث لطريق، فاخذ غيره مخافة ان يتبعوه، فتوجه به الى مكة، ثم من مكة الى ارض المغرب.

فلما وصل الى حيز طرابلس، نظر الى ضعف اهل مذهبه وتمغصت نفسه وساء ظنه مخافة ان يصير الديوان الى اهل دعوة المسلمين، فأخذه فانتخب له موضعا، فحفر له فيه ودفنه، ولم يعرف موضعه الى يومنا هذا. وهذا كله حسد وبغي وسوء العاقبة. نعوذ بالله من حوادث الدهر وما يختلف به الليل والنهار.

وقال، ثم ان الامام افلح بن عبد الوهاب، رضى الله عنه مكث في امامته ستين سنة واليا، اماما حسن السيرة رؤوفا بالرعية، لا يخاف في الله لومة لائم، ثم توفي، رحمه الله، وولي من بعده ابنه ابو بكر.

وكان محمد بن افلح غائبا في ارض المشرق وقد دل بها عليه فاخذ وحبس حتى اطلقوه واحسنوا جائزته، فتوجه نحو بلاده، فلما ابتعد عنهم حسبوا لهفوجدوه ستكون له دولة لا محالة، فاخذوا في اثره يريدونه، فكان محمد ممن بلغ الغاية والنهاية في النجامة فحسب للوقت الذي يحسبون فيه فعلمها. فلما كانت تلك الساعة اخذ قصعة كبيرة فملأها ماء فدخلها فحسبوا له حين جاء الوقت الذي يحسبون فيه فوجدوه في الماء وظنوا انه قد دخل البحر ولا يقدرون له على شيء، فرجعوا عنه وتوجه محمد بن افلح، رضى الله عنه الى تاهرت، ومعه رجل من نفوسه رفيق له. فلما وصل الى تاهرت، وكان من أخيه ما كان من امر ابن عرفة (6) اعتزل محمد رضى الله عنه الفريقين من امر اخيه وابن عرفة، فلم يكن مع اخيه ولا مع غيره.

(1) قارن عن ابي يونس وسيم النفوسي ما ذكره الدرجيني في الطبقات (77/1) والشماخي في السير (ص195). وكلاهما يقتصر على ايراد المعلومات التي يقدمها ابو زكرياء.

(2) تقع قنطرارة على مسافة نحو 15 ميلا الى الشمال من «كباو» تحت سفح جبل. وتسمى الان «تيجى». وقد كانت قنطرارة مدينة متوسطة الرقعة تحيط بها جنات وحدائق وبساتين ترويها مياه غزيرة وكانت تنتج اجود الفواكه والتمور. وقد خربها ابراهيم بن الاغلب عقب وقعة «مانو» التي سيأتي ذكرها. وقنطراره الآن عبارة عن ينابيع المياه تسقي حقولا محدودة المساحة من اشجار النخيل. وبعد تخريب قنطرارة. انتقل من نجا من علمائها من معركة «مانو» الى تمصص التي تقع في جنوب «طمزين» والتي سيرد ذكرها في السطور التالية. راجع. الاباضية في موكب التاريخ (179/2-180).

(3) قارن قصة سعيد ونفاث في طبقات الدرجيني (77/1 وما يليها) وسير الشماخي (214 وما يليها) وكلاهما ينقل عناصرها الاساسية عن ابي زكرياء.

(4) جابر بن زيد الازدي. ابو الشعثاء ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر (اي سنة 21هـ.) ومات سنة 96هـ. في رواية الشماخي (وفي رواية اخرى سنة 93هـ.)؛ تابعي من اهل البصرة. واصله من عمان. وصفه الشماخي بانه «بحر العلم وسراج الدين. اصل المذهب واسه.... صاحب ابن عباس (ض) وكان اشهر من صحبه وقرأ عليه» وينقل الدرجيني عن اياس بن معاوية قوله: «لقد رأيت البصرة وما بها مفت غير جابر بن زيد» ويصنفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة الثانية (50-100هـ). وفي حاشية الجامع الصحيح. انه لما مات زيد وبلغ خبر وفاته آنس بن مالك. قال: «مات اعلم من على ظهر الارض» وفيه ان جابرا مات في سنة 93هـ. وذكر صاحب تذكرة الحفاظ قول عمرو ابن دينار: «ما رأيت احدا اعلم بالفتيا من جابر بن زيد. وكذلك روي عن ابن عباس قوله: «تسألوني عن شيء وفيكم جابر ابن زيد».وقد ذكر صاحب التذكرة ان جابرا توفي في سنة 93هـ. ولكنه اورد ايضا قولا للواقدي ولابن سعد بانه مات في سنه 103هـ. ونحن نلاحظ انه ان صح ما روى عن آنس بن مالك وما قاله عندما بلغته وفاة جابر ابن زيد. فلا بد وان يكون جابر قد توفي قبل سنة 93هـ. حيث ان هذه هي السنة التي توفي فيها آنس على اوثق الروايات (وفي رواية اخرى اوردها صاحب مرآة الجنان. ان آنس توفي سنة 90 وقيل في سنه 91. وقيل في سنة 92)هـ). راجع سيره جابر بن زيد في حاشية الجامع الصحيح على مسند الامام الربيع بن حبيب لاحمد السالمي(ص7-8) تذكره الحفاظ (72-73/1) تهذيب التهذيب (38/2) طبقات الدرجيني (205/2-214) سير الشماخي (ص71-70) حلية الاولياء (85/3) البداية والنهاية (93/9-95).

(5) انظر بشأن الفرق بين الحبر والصمغ والمداد لسان العرب. على التوالي (548/1-549) و(452/5-453) و (475/2)

(6) يجب عدم الخلط بين ابن عرفه هذا. وسميه محمد بن محمد بن عرفه. الفقيه التونسي. صاحب المختصر الكبير في الفقه والذي عاش في الفترة بين 716-803هـ .واماابن عرفه صاحب ابي بكر وضحيته. فان المؤرخين الاباضيين لا يتعرضون لمقتله الا بكثيرمن التحفظ والاحتشام. مثل ابي زكرياء. على ان سليمان الباروني خصص لهذا الحادث المهم في كتابه ازهار الرياض عدة صفحات (223/2-236). والغريب ان الدرجيني يورد خبر مقتل ابن عرفه بصيغه التشكك فيقول: «فوجد ابن غرفه قتيلا. فنسب الى ابي بكر». راجع الطبقات (83/2). انظر ايضا ابن الصغير المالكي الذي يقول ان «الامارة كانت بالاسم لابي بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة». تاريخ الائمة (ص31-39).وهذا الحادث يذكرنا بفتك هارون الرشيد بالبرامكة .



ولاية محمد بن أفلح رضى الله عنه (1)

حدث غير واحد من اصحابنا ان محمد بن أفلح اجتمع عليه عامة المسلمين فولوه على انفهسم، ولم يكن منهم في توليته اختلاف، وبلغ في العدل والفضل غاية عظيمة. وكانت نفوسة لا تعدل بولايته الا ولاية جده، عبد الرحمن، رضى الله عنهما.

وكانت نفوسه تجعل باب داره كالمسجد يسهرون حوله، طائفة يصلون، وطائفة يقرءون القرآن، وطائفة يتحدثون في فنون العلم.

ومكث في امامته اربعين سنة.حسن السيرة.اورع من في زمانه، فعاش حتى كبر سنه، ثم توفي، رضى الله عنه، وكان له في الرد على المخالفين كتبا كثيرة بليغة شافية، وقد ذكر انها قومت، فبلغت قيمتها سبعة عشر دينارا، والله اعلم، اي ذلك.



(1) هو محمد بن افلح بن عبد الوهاب. ابو اليقظان. والمعروف ان الذي تولى الامامة بعد افلح. هو ابنه. ابو بكر الذي اهمل ابو زكرياء ذكر ولايته تحرجا من فعلته واكتفى بذكر حادث غدره بابن عرفه. وقد تنازل ابو بكر لاخيه الذي كان بالمشرق عند وفاة ابيه عن الامامة بعدما ملك اقل من سنتين.

وصف الدرجيني محمد بن افلح بانه «بلغ الغاية في العدل والفضل والاقتداء بمن سلفه. فكانت نفوسة لا يعدلون ايامه وسيرته الا بأيام جده عبد الرحمن وسيرته. وذلك انهم اتخذوا مجلسه حينئذ كالمسجد. فطائفة يصلون. وطائفة يتذاكرون في فنون العلم» وذكر الشماخي ان ابا اليقظان الف كتبا كثيرة ووضع في الاستطاعة وحدها اربعين كتابا وقد دخل ابو اليقظان في معارك مع محمد بن مسالة. وهو امير اباضي مستقل عن تيهرت تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة. بعد الفتنة التي اعقبت مقتل ابن عرفه. وقد توفي ابو اليقظان في سنة 281هـ. بعدما ملك 27 سنة. راجع عن عهده وسيرته المصادر المذكورة. وبصفة خاصة. طبقات الدرجيني (84.83/2) سير الشماخي (ص221ـ222) سلم العامة (ص14 و43) البيان (197/1) الازهار الرياضية (265ـ236/2). ابن الصغير المالكي (ص41ـ50).

ولاية يوسف (1) بن محمد بن افلح رحمهم الله

فلما مات محمد بن افلح رضى الله عنه، ولي من بعده يوسف بن محمد، مكث في امامته اثنتي عشر سنة، وقد اطردت له الامور ولم ينقم عليه من رعيته احد. وكان الياس ابو منصور (2) عاملا له على جبل نفوسه ولابيه ولجده، وكان قاضي ابي منصور، عمروس بن فتح (3) رضى الله عنه. وكان عمروس عالما كبيرا، له كتابان في الاصول والفقه، وما مات حتى هم (4) ان يفرز بين مسائل النص ومسائل السنة ورأي المسلمين، وكان حافظا فاطنا حاضر الحجة.

وبلغنا عنه انه استمسك رجل برجل عنده، فاسترده عمروس جواب المدعى عليه، فسكت. قال فوطئه عمروس برجليه وعليهما خفاه، وابو منصور، الياس حاضر.

فقال له ابو منصور، عجلت على الرجل يا عمروس. قال، فجمع عمروس اصابع يده، فقال له، كم هذه، يا ابا منصور؟ فقال ابو منصور، خمسة. فقال له عمروس، لم اعجل، كما لم تعجل ايضا حين لم تأخذهم واحدا واحدا. حتى تأتي على آخرهم. فان لم تأذن لي بثلاث. فخذ خاتمك عني: بقتل الطاعن في دين المسلمين، ومانع الحق، والدال على عورات المسلمين.

وكان ابو منصورا فاضلا مستجاب الدعاء، وفي ذريته الولاية بنفوسه. وكان اذا خرج في عسكر ركب بغلته لا يتقي نبلا عن نفسه ولا على بغلته ولا يقع فيه ولا في بغلته واحدة ولا يبالي من الله لومة لائم.

وحدث يعقوب بن ابي يعقوب، رضى الله عنه، ان ابا منصور خرج في طلب و لد ابن خلف في اخر دولة الرستميين وقد هرب الى زواغه والتأمت عليه وارادوا منعه، وكانوا على مذهب ابيه، فسمعوا قوله، واطاعوه، وقبلوا دعوته الى ان رجعوا عنه، وسنذكر ذلك وكيف كان رجوعهم عنها، ان شاء الله.

قال، فسار ابو منصور ومن معه من نفوسه، فلما وصل الى ريصة، قرب طرابلس، وجد بها جماعة زواغة في عدد كبير قد اتحدوا (5) على ولد بن خلف، وارادوا منعه من ابي منصور، فتكلم شيخ كبير من شيوخ بني يهراسن، يقال له ابو سلمه، وقال، يا معشر زواغة، هل لكم في ثلاث ان تفعلوا واحدة منهن، الاولى ان تدعو تربة اريصه وتدخلوا جربة وتتحصنون فيها وتمنعون صاحبكم، والثانية ان ترسلوا الى تاهرت ان يستعمل عليكم عاملا فتخرجوا من طاعة نفوسه، والذل لهم. والثالثة ان

تدفعوا الي ولد خلف لاسير به الى نفوسه، وانا ضامن لكم وكفيل ان الا يجاوزوا فيه.

فلما اتم كلامه، تكلم رجل من زواغه فقال، ما اراد هذا اليهرساني الا ان يجلب (6) الوقيعة على الخليفة. فقال ابو سلمة، كيف قلت؟ فتكلم الى أبي سلمة رجل أُخر من زواغة، فقال، لا تسمع يا ابا سلمة، لا تسمع!

فقال له ابو سلمة لست اسمع، فجعل يده في الارض فقام.

ثم ان زواغة اجتمعوا على مناصبة ابي منصور، فلما وصلهم ابو منصور، ناجزهم القتال، فاقتتلوا اقتتالا شديدا، فانهزمت زواغة.

وكانت عامة ارض اريصة عامرة باشجار صغار كما غرست، وكانت عادتهم لمن اراد ان يغرس ارضا باغصان الاشجار، فيجعل لها الامكنة، فيغرسها في تلك الامكنة ويوصل ما بينها بحبال كبيرة او خيوط لئلا يفسدها الوحش والبهائم.

فلما هزمهم ابو منصور، تبعهم يقتلهم اينما وجدهم. واذا انتهوا الى تلك الجبال، ردتهم، فما استطاعوا جوازها، فوقها ولا تحتها، فقتل منهم ابو منصور عددا كبيرا، فرجع عنهم، ودخلت بقية زواغة جربة، والتجأ ولد ابن خلف الى رجل من زواغة وادخله في قصر من قصور جربة (7) يقال له «غرادية».

فَسار اليهم ابو منصور ومن معه من نفوسه. فلما قرب ابو منصور من جربة، ارسل رجلا من بني يهراسن الى الزواغي الذي مع ولد ابن خلف (و) ارسل معه مائة دينار صرفا، فدخل الرجل جربه.

فلما وصل الى الزواغي وهو معقل من بني مراية، سلم عليه، فصار يصافحه ويصب الدراهم من كمه الى الزواغي.فلما احس الزواغي بالدراهم، جعل يسأله عن احوال الشيخ ويقول له، لو أتيت الى اولادنا لدفعناهم اليك!

وكان أبو المنصور في مسيرته اذا حل وقت الصلاة نقر في طبله ويقف اول العسكر لآخره ويصلي بهم ركعتين فيرتحلون. وقدمها على (ثلاثة اميال) او ما يقرب من ذلك.

ثم ان الرجل الزواغي توجه الى ولد بن خلف. فقال له: انزل ايها الامير، فقد طالما أرملتْ نساء زواغه على يدك.

فقال له ولد بن يخلف ، ليتكم لم تسموني اميرا يامشؤومات بالبربرية، فانثهم، لانه رجل عربي لم يحسن البربرية. فدفعوه لابي منصور، فسار به، ولم يكن يومئذ في جربة حركة ولا قتال، فمضى به ابو منصور الى الجبل فسجنه به، وكان في سجنه الى ان نزلت عليهم مسألة قطع الرجل،

فاختلفوا فيها، فتوجهو نحوه . فسألوه عنها: من اين تقطع؟ ففاتهم انها تقطع دون العاقب.

فعند ذلك قال سجنوني ويسألوني. فذكر بعض اصحابنا انه رجع هذا الفتى الى مذهب اهل الحق وحسنت احواله، والله اعلم.

(1) بويع يوسف بن محمد بن افلح. ابو حاتم. بعد وفاة ابيه في سنة 281هـ. وقد كان يتولى الشؤون العامة في أمارة والده ومن المهام التي كان مكلفا في حياة واله. فيامه. على رأس جيش من زناته بحماية القوافل التي تقبل من الشرق او تقصد اليه حاملة الذهب ومختلف انواع البضائع. وقد اشتهر يوسف بالبشاشة والكرم والمروءةوالبر وكانت له سمعة شعبية عارمة. بحيث انه لم يكد يدفن ابوه حتى سارع الناس في الازقة الى المناداة بابي حاتم. يوسف. اماما. في الوقت الذي كان هو فيه يرافق القوافل. وذلك بدون وقوع التشاور التقليدي وقبل اجتماع رؤساء القبائل للنظر في الامر وقد كان من اكبر انصاره والمرشحين له للامامة محمد بن حماد. اخ الشاعر المشهور. فيما يرجح. وقد وصفه الشماخي بقوله: «الامام الماهر. والبحر الزاخر. العالم الذاكر. ابى حاتم الخ» وقال انه مكث في الامامة اربع عشرة سنة. فبعد ثورات وحروب مع عمه يعقوب ابن افلح الذى نادى به اهل تيهرت اماما وقتاما

استقر له ودام ملكه حتى قتله بنو اخيه (اليقظان) غيله في سنة 294هـ. راجع سيرة أبي حاتم في تاريخ ابن الصغير (ص50ـ53) و56ـ62) طبقات الدرجيني (2/265ـ291) البيان (1/179)سلم العامة (ص15ـ20) سير الشماخي (ص262) الازهار الرياضية (2/265ـ291) تاريخ الجزائر العام (2/24)

(2) وصف الشماخي ابا منصور بانه «حكم عدل وفيصل في القضاء فلم الشعث ورتق الفتوق ورقع الخروق.السير (ص318). راجع اخباره ايضا في طبقات الدرجيني (1/84 وما يليها) الازهار الرياضية (2/251ـ252) تسمية شيوخ نفوسه وقراهم (ص21 تعليق 29ص48).

(3) من علماء الاباضيين الذين قتلوا في وقعة مانو.وصفه الدرجيني بانه «بحر العلوم الزاخر المبرز. اول السبق. وهو الآخر. الضابط الحافظ. وهو المحتاط المحافظ. لم تشغله المجاهدة في الله عن دراسة العلوم».راجع ترجمته في الطبقات (2/320) سير الشماخي (225 وما يليها) انظر كذلك. الاباضية في موكب التاريخ (1/137ـ143).

(4) في الاصل: اهتم.

(5) في الاصل: تحدثوا.

(6) فى الاصل : يغلب.

(7) جزيرة بالبحر الابيض المتوسط تقع في خليج قابس. طولها من الشرق الى الغرب 36 ميلا. وعرضها من الشمال الى الجنوب 11 و16 ميلا. وتبلغ مساحتها 224 ميلا مربعا. ويفصل بينها وبين البر مضيق يبلغ اتساعه 40 ميلا. وتمتاز جربة باعتدال مناخها ودفء جوها في الشتاء وبتربتها الخصبة واشجارها الوفيرة. ولا سيما من التين والزيتون والنخيل والكروم. ويبلغ عدد سكانها حاليا 61500 نسمة. وهم من البربر الذين يحتفظون بلغتهم الاصلية التي تشبه لغة جبال زواوه والريف المغربي. وذلك عدا اقلية من العرب الذين ينتمون الى قبيلة حازم واولاد مبتول. وجربة التي يذكرها الحسن بن محمد الوزان باسم Gerbo . ومرمول باسم Gelves كانت معروفة في العصور القديمة باسم «منيكس» (Menix). وقد كانت الجزيرة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر مركز القرصنة البربرية. واتخذها عروج في اوائل القرن التالي. قاعدة لاعماله في البحر الابيض المتوسط. وهي. تعتبر. الى جانب جبل نفوسه. ووادي ميزاب. من

القواعد الكبرى في المغرب للمذهب الاباضي. راجع عن جغرافية الجزيرة وتاريخها. البكري الذي قال عنها انها كثيرة الذهب (ص85) الادريسي (127-128) كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص145) الحسن بن محمد الوزان (ط. شيغرز 176/2) رحلة التجاني (ص121-129). وكذلك محمد ابو راس بن احمد الناصر: ومن المصادر الاروبية

Kayser Description et Histoire de Djerba, Tunis, 1884
Guérin (V), Voyage archéologique dans la Régence de Tunis, 1860 ;
Mas Latrie, Traités de Paix et de Commerce, p. 158 ;
Brulat (A), Monographie de l'île de Djerba, 1885 ;
Laffitte et Servonnet, Le Golfe de Gabès, 1881, Tunis, 1888 ;
Bossoutrot, Documents pour servir à l'Histoire de Djerba, Revue Tunisienne, 1903 ;
Gendre, L'île de Djerba, Revue Tunisienne, 1907 et 1908.



وقعة مانوا وانقراض الامامة (1).

حدث غير واحد من اصحابنا ان نفوسة بلغت في التأييد لسلطان الرستميين بارض تاهرت مبلغا عظيما، لم يبلغه غيرهم في مغربنا هذا، فلذلك قال الامام: انما قام هذا الدين بسيوف نفوسه واموال مزاته.

واتصلت اخبار نفوسه الى من كان بالمشرق من ائمة المسودة يدس اليهم بالكتب من كان بالقيروان ومدينة طرابلس ويخبرهم ان قيام دولة الفرس بتاهرت تضر بهم. وكان ذلك على عهد المتوكل ببغداد من بني العباس.

فلما تواردت (2) الكتب والاخبار اليه، انفد الى المغرب عسكرا وجعل عليه ابراهيم بن احمد من بني الاغلب (3) فسار ابراهيم نحو المغرب بعسكره.

فلما قرب من طرابلس، سمع بخبر نفوسه الجبل، فاجتمعوا، فاتفق رأيهم الا يتركوه وما يريد الى الجواز الى تاهرت، دون ان يناصبوه.

قال فاتصل ذلك به من قولهم وعزمهم على منعه دون الوصول الى تاهرت، فوجه اليهم: ان اتركوا لي ساحل البحر مقدار نشر عمامة لاجوز فيه، انا ومن معي فابوا له ذلك.

قال، فلما رأى ابراهيم ان ليس (له) الا الرجوع الى المشرق او مناصبتهم، تهيأ للقائهم، وعزم على محاربتهم. فقال لاصحابه، خذوا عدتكم وشمروا انفسكم، وجوزوا على الساحل، ولاتتعرضوا لهؤلاء القوم، فان هم تركونا وطريقنا، والا ناصبناهم.

فوصل ذلك الى نفوسة، فقال بعضهم لبعض: دعو هذا الرجل ولا تتعرضوا له بشيء، فأبى جمهور المسلمين ذلك وكان سعيد بن أبي يونس رضى الله عنه، فيمن قال لهم، لا تتعرضوا له.

فقال له بعضهم اشتقت الى (المحافظة) على قنطرارة ولم ترد الموت.

فقال لهم، يا قوم، ليس بي ما تذكرون وما تقولون، ولكنني خفت ان تذبح البقرة فيتبعها عجلها، يعني بالبقرة. الجبل وبالعجل، قنطرارة.

ثم انهم خرجوا فتوجهوا نحو الفاسق فقاتلوه بالموضع المعروف بمانوا، وهو قصر من قصور الاولين على سحل البحر، فاقتتلوا فيه قتالا شديدا، فلم يذكر انه رأى مثله في ذلك العصر بارض المغرب، فطلب رجل من عسكر المسودة المبارزة الى عسكر المسلمين، فلم يبارزه احد الا قتله. فاراد الخروج اليه أفلح بن العباس، فأبى له اصحابه ذلك، وكان اذ

ذلك هو واليهم العام عليهم، فأبى الا الخروج اليه فخرج اليه فبارزه فقتله افلح فاشتد القتال بينهم واسرع القتل في الفريقين، فكثر القتلى والجرحى في نفوسه حتى هموا بالانهزام، فتهدم الرجال في الصفين كالحيطان.

فلما رأى ذلك واليهم افلح بن العباس، امر صاحب البند ان يحفر له في الارض ويوقفه كي لا ينهزم على البند احد، فأبى له صاحب البند ذلك. ثم اقتتلوا مليا، فرجع اليه، فقال: «احفر للبند»، فأبى عليه، ثم ابى له الا الحفر. فقال له صاحب البند: «مسكته عند جدك، فلم يقل ذلك، ومسكته عند ابيك، ولم يقل لي ذلك. (ان) حفرت له، حفر الله لك».

فحفر للبند ووقفه، فولى افلح مدبرا وتركهم يلوذون بالبند، ولم يستجيزوا ان ينهزموا والبند واقف حتى قتل منهم بشر كثير.

وقد كان افلح، فيما بلغنا، كره خروجهم الى الفاسق وقتالهم اياه، فلذلك فعل بهم ما فعل.

ثم ان رجلا من ذوي البصائر في الدين، نظر الى البند واقفا والناس يصرعون حوله، فقال ان امرك قد انتهك بالله وقصد نحو البند فضربه بسيفه فوقع.

فلما رأى من بقي من المسلمين ان البند قد وقع، انهزموا وولوا مدبرين، فافلت من افلت منهم.

وبلغنا عن ثقاة اهل دعوتنا من اهل الجبل ان عدد قتلاهم اثنا عشر ألفا. اربعة الاف من نفوسه، وثمانية (آلاف) ممن كان معهم من البربر وغيرهم، وفيهم اربعمائة عالم فقيه، فيما ذكروا.

وبلغنا ان عمروس بن فتح كان في آخر المعركة يحمي الناس ويذود عنهم، ولم يقدروا عليه، وكان على فرس سابق. فلما اعجزهم واتعبهم، عمدوا الى حبال فنصبوها له واضطروه اليها، فعثر به الفرس، فأخذوه اسيرا، ومضوا به الى الفاسق، فسألوه ان يستعفيه ليعفيه، فقال لهم كلمة لا تسمعها مني، ولكن اسألك في سراويلي هذا، لا تكشفوني منه، فأخذوا يقطعونه بالحديد من انامله، فلما وصلوا الى عضده، استشهد، رحمه الله.

وقد كانت بعض نسوة نفوسه حين خرجوا، خرجن معهم، فأخذن، فكانت فيهم اخت عمروس بن فتح فتخوفت عليهن الفتنة من قبل الظلمة والفجرة، فأمرت ان تستخلف كل واحدة منهن عن نفسها من يزوجها لمن ارادها بسوء، وكانت عالمة فقيهة.

ثم ان بقية نفوسه رجعوا الى الجبل وتحصنوا فيه واشتوروا في عزل افلح بن العباس وتولية ابن عم له، فاتفق رأيهم كلهم على عزله الا ما كان من ابي معروف وغيره، فانه ابى لهم من عزله، خشية الاختلاف، ولم يبق

من علمائهم وفقهائهم الا ابو القاسم البغطوري (4) وعبد الله بن الخير (5) وهما اللذان يفتيان لاهل الجبل، في نوازلهم من تلك الوقعة، ولولاهما لعطلت (الفتوى) الى يوم القيامة.

ثم ان نفوسة غزت فتح بن العباس وولوا مكانه ابن عمه. فلما علم بذلك افلح، وقد كان معه رجل ممن يحاميه، غضب وتحامى وقام يريد (ه). فقال افلح: احمني، فقال له الرجل، لا اقدر ان احميك (6) فقاله، احمل لي ولو حلي. فلما سمع بذلك ابو معروف وتخوف الفتنة، توجه اليه، فوجده في حالته تلك، فنهاه عن الفرقة والاختلاف وامره بالصبر، فسمع منه افلح وقبل قوله واطمأن اليه حين قال لنفوسه لا تعزلوه، وترك افلح الاختلاف ومكث ابن عم افلح حوالى ثلاثة اشهر، فلم يحسن شيئا فتركوه ورجع الناس الى افلح.

وحدث غير واحد من اصحابنا ان الصفين لما افترقوا بمانوا وجنهم الليل، جاء رجل من عسكر الفاسق ابراهيم بن احمد، الى اخ له مات في المعركة ليحمله ويدفنه.

فلما وصل الى الصفين ورفع اخاه على دابته، نظر الى شخص كهيئة صورة سلوق يطوف في قتلى المسلمين، فسمعه يقول: «كبروا يا أهل الجنة، كبروا»، فكبر قتلى المسلمين بأجمعهم. ثم جاز على قتلى المسودة. فسمعه يقول: «انجو يا كلاب النار»، فنجوا باسرهم حتى نبح اخوه بين يديه على سرج الدابة، فالقى به الى الارض وهرب وتركه ومضى لسبيله.

ولما فرغ الفاسق من قتال نفوسه ومن كان معها، ذكر له ان قنطرارة كانت بها بقية من دعوتهم، فعمد نحوهم حتى اتاهم بغتة، فنزل عليهم عند طلوع الفجر، فقتلهم واختار من فقهائهم وعلمائهم ثمانين عالما، فشد وثاقهم.

وبلغنا انه لما فرغ من اهل قنطرارة سأل عن بقية اهل الدعوة، فقالوا له ان بنفزاوة رجلا عالما فقيها من علمائهم وفقهائهم يقال له ابو بكر بن يوسف النفوسي. فوجه اليه، فأخذته الرسل بتيز زاج (8).

فلما اخذته رسل الفاسق. طلبهم الشيخ ان يدعوه حتى يصلي ركعتين. فلما صلاهما، اخذ يدعو الى الله، فبعث الله عليهم ريحا عاصفا مظلما. فحال بينهم وبين الشيخ، فأخذ ابنه يوسف، وكان الشيخ اذ ذاك قد كف بصره ومضى الى تناوته (9).

ثم ان الفاسق. عدو الله، توجه بثمانين عالما يريد مدينة القيروان، فشد وثاقهم. وقد كان فيهم رجل عالم يقال له ابن يثيب (10) وكان مقطوع العرقوب، فلما جن عليهم الليل استأذن اصحابه في الهروب. ولم

يرد الهروب حتى يأذنوا له. فأذنوا له. فحل رجله من الوثاق. فهرب. وقد كان حين ارادوا ان يشدوه اخرج لهم الرجل المقطوعة العرقوب. فاعطاها لهم. فشدوها.

فلما هرب ابن يثيب، امر ابراهيم بن احمد باصحابه كلهم فقتلوا عن آخرهم.

فتوجه الى مدينة القيروان، فدخلها وتحصن فيها. وهو الذي بنى لاهل المغرب المحارس على ساحل البحر، من سبتة الى الاسكندرية.

وكان سبب ذلك ان اهل الاسكندرية كانوا ينظرون من المنارة التي عملها ذو القرنين لهم في زمانه، فيرون قلاع الروم في البحر اينما كانت ويحذرون من كان بحواليهم.

فلما بنى ابراهيم ابن الاغلب هذه القصور التي على الساحل، امر اهل الاسكندرية.اذا نظروا في مرآة المنارة ورأوا قلاع العدو ان ينيروا فيبصر نارهم من كان قريبا منهم من القصور، فينيروا هم ايضا.فكل من رأى من اهل القصور نار القصر الذي يليه فينيروا هم ايضا، فتتصل نيرانهم حتى تبلغ في ليلة واحدة الى سبته، فيحذر الموحدون الروم. فكانت الروم بعد ذلك دهرا طويلا لا يظفرون بالموحدين في شيء، من سواحلهم، ورجع الموحدون يغزونهم الى ارضهم واغتم لذلك ملك الروم، فجمع اهل مملكته فاستشارهم في الحيلة، فوثب رجل يهودي، فيما بلغنا، فقال، ايها الملك، ان انت اذنت لي (بالدخول) الى بيت الاموال، آخذ منها حاجتي، اكفيك المؤونة، ان شاء الله.

فقال له الملك، شأنك وما تريد. قال، فعمد اليهودي الى بيت المال، فأخذ منها اموالا عظيمة من الجوهر والدرر واليواقيت والذهب المضروب على سكة الاولين، فوفر من ذلك احمالا، فقصد الى ارض الاسكندرية، فصار يحفر في كل جبل من جبالها ويدفن (الاموال) في الاودية وعند المدينة، ثم اظهر على نفسه مرتبة وزينة وزيا حسنا، فاظهر انه عالم باخراج كنوز الاولين، ثم اتصل خبره بالسلطان بمصر، فبعث اليه، فصار يخرج له الدفائن التي دفنها هو بنفسه، فلما نظروا الى اموال جسيمة وكنوز عظيمة، اطمأنت نفوسهم الى جهته واعجبهم ما رأوا من ذلك.

فلما احس اليهودي منهم (الثقة)، قال للسلطان، ها هنا كنز اعظم من جميع الكنوز، في المنارة، تحت المرآة. فان اذن لي السلطان في نزع المرآة التي في المنارة ونزعناها واخرجنا ما تحتها، وصقلناها، فانها قد تصدت ورددناها.

فأذن له السلطان في ذلك، رغبة في المال. فلما نزع المرآة، امر بعض القوم بالهدم تحتها، وبعضا بصقالة المرآة، انسل اليهودي فلم يروا له اثرا، فعالجوا المرآة لردها على بنيانها الاول، فلم يتجه لهم ذلك (11).

(1) جرت موقعة «مانوا» بين ابراهيم بن احمد بن الاغلب وبين اهل جبل نفوسة وكان ذلك في سنة 283هـ. وقد دخل الخوارج هذه المعركة بعد كثير من التردد. حيث ان اميرهم. افلح بن العباس ابى لهم ذلك. كما ابى لهم عامل قنطرارة. سعيد بن يونس. وهذا ما يفسر جزئيا هذه الكارثة التي حطمت سلطان الخوارج في المغرب الى الابد. وبهذا النصر حقق المعتضد بالله العباسي (ومانو وقعت في عهده. وليس في عهد المتوكل كما ذهب ابو زكرياء والدرجيني.لان المتوكل توفي في سنة 247هـ.) واحدا من اهدافه الكبيرة في القضاء على مواطن الشغب والثائرين في المملكة الاسلامية. ويقول الشماخي نقلا عن ابن الرقيق ان ابراهيم بن احمد خرج يريد محاربة ابن طيلون (كذا في السير. ولكن الدرجيني يقول انه كان يتجه الى تيهرت ـ وهي الرواية التي اعتمدها سليمان الباروني) بعدما حشد الجيوش وسار من تونس لعشر خلون من المحرم. فاقام برقادة الى سبع بقين من صفر. ثم خرج بقواته واعترضته نفوسه في النصف الاول من ربيع الاول «فكان بينهم قتال عظيم. فقتل من جنده جماعة من الرؤساء. ثم انهزم اهل نفوسة. فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا. وتطارح منهم بشر كثير وقتلهم حتى غلبت حمرة الدم على ماء البحر». وقد قتل في هذه المعركة. طبقا لرواية المؤرخين الاباضيين اثنا عشر الفا. منهم 400 من العلماء. وحمل ابراهيم معه ثمانين عالما اسرى. وبعد هذه المعركة سار ابراهيم الى طرابلس. ثم كر على الاباضيين في اطراف جبل نفوسه في سنة 284هـ. فقتل من وجده فيها. قارن رواية ابي زكرياء عن «مانو» بروايات الدرجيني في الطبقات (87/2 وما يليها) وسير الشماخي (ص268 وما يليها) الازهار الرياضية (285/2 ـ 287) العبر (203/4)

(2) في الاصل: تداركت.

(3) هو ابراهيم بن احمد بن محمد بن الاغلب (237ـ289هـ) كان واليا على القيروان لاخيه ابي الغرانيق. فلما توفي اخوه ولي مكانه في سنة 261هـ. وقد قمع عدة ثورات اخرى. عدا ثورة الاباضية. كما افتتح عددا من حصون الافرنج وغزا صقلية. ولكنه في اواخر ايامه اختل عقله وقتل عددا كبيرا من افراد عائلته. ومنهم اثنين من ابنائه. وقد دامت ولايته 28 سنة ونصف. راجع اخباره في البيان (116/1) العبر (203/4) اعمال الاعلام (ص3).

(4) ترجم له الشماخي باسم ابي القاسم سدرات بن الحسن البغطوري النفوسي ووصفه بانه «بقية الحافظين واعتماد اهل الدنيه والدين. بل كان من الراسخين. اخذ العلم من منبعه... واحياه بعد انطماسه. تعلم عند ابان بويغو». السير (ص235). واما الدرجيني الذي ينقل رواية ابي زكرياء عن هذه الاحداث. فيصف ابا القاسم بقوله انه «لم يبق بعدهم (الذين قتلوا او اسروا في مانو) عالم يفتي في النوازل غير ابو القاسم البغطوري . وعبد الله بن الخير». الطبقات (89/1) راجع كذلك تسمية شيوخ نفوسه (ص 21 تعليق 55/ص 68).

(5) ترجم له الشماخي وقال. نقلا عن ابي الربيع ان عبد الله بن الخير «عالم كبير يضرب به المثل ويقال: «من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل عبد الله بن الخير». وعبد الله بن الخير نفوسي من قرية تؤنزيرف عمر ما يقرب من 103 سنة) راجع السير (ص236ـ237) تسمية شيوخ جبل نفوسه (ص21/تعليق 6/ص31).

(6) في الاصل: احملني. فقال له الرجل. لا اقدر ان احملك.

(7) راجع اخبارا له في طبقات الدرجيني (90/1 و157)وفي سير الشماخي (ص263ـ265). وفي تسمية شيوخ نفوسة (ص121 تعليق 20) ان اسمه: ابو معروف ماطوس. وماطوس. مدينة تقع في الطرف الغربي من جبل نفوسه.

(8) كذا في الاصل· تيزى زاج؟

(9) ورد في الترجمة بالنص العربي : ماوته

(10) كذا في الاصل· اوردها المترجم بالشكل الفرنسي: Jetsoub

(11) يشوب روايات الجغرافيين والمؤرخين العرب عن منارة الاسكندرية، وخصوصا، مرآتها، كثير من التهويل والتضخيم.كما تحيط بها قصص هي اقرب الى الاساطير منها الى التاريخ· والخلاف قائم اولا حول من بناها وحول مادة البناء التي يقوم عليها اساسها ثم حول طول المنارة· ولكن الخلاف الخطير الشان بين المؤرخين هو الذي يتعلق بمرآة المنارة العجيبة· فمن قائل ان اساس المنارة من الزجاج (ياقوت) ومن قائل انه من الحجر المنحوت اوالحجر المضموم بالرصاص الخ·· وهناك من يقول (وهم الاكثرية بان الاسكندر ذا القرنين) هو باني المنارة، واخرون يذكرون ان الذي بناها هو فرعون، بل ان ابن عبدالحكم يعزو بناء المنارة الى دلوله بنت زباء، بعد فرعون· والادريسي يقول ان ارتفاع المنارة يبلغ 100 قامة (القامة = اربعة اذرع) ولكن ابن سعيد يذكر ان طول المنارة في زمنه 84 قامة، في الوقت الذي يعزو لها ابن جبير 50 قامة فقط·

وفيما يتعلق بالمرآة، او بعبارة ادق بتدمير هذه المرآة التي يقال «ان الرائي يرى فيها المراكب اذا خرجت من افرنجه او من القسطنطينية» فان ياقوت يخبرنا ان ملكا من الروم اسمه سليمان، ظهر البرص في جسمه وسار الى الاسكندرية للاستشفاء في حمة تقع فيها ورافقه اليها اسطول كبير· وبعد ما تم له الشفاء، استغل قوته، فغوّر الحمة··· ثم اقتلع مرآة المنارة!

والرواية التي تقترب من رواية ابي زكرياء، هي رواية زكرياء بن محمد القزويني (القرن السابع الهجري) الذي يقول از المنارةظلت باقية حتى عهد عبد الملك بن مروان (ت· سنة 86هـ·)، فانفذ ملك الروم شخصا من خواصه ذا دهاء، فجاء الى بعض الثغور واظهر انه هارب من ملك الروم ورغب في الاسلام، واسلم على يد الوليد بن عبد الملك، واستخرج له دفائن الكنوز من ارض الشام· فلما صارت تلك الاموال الى الوليد، شرهت نفسه، فقال له: يا امير المؤمنين، ان ههنا اموالا ودفائن للملوك الماضية، فسأله الوليد عن مكانه، فقال: تحت منارة الاسكندرية·فان الاسكندر احتوى على اموال شداد بن عاد وملوك مصر والشام وتركها في آراج وبنى عليها المنارة· فبعث الوليد معه قوما لاستخراجها، فنقضوا نصف المنارة وازيلت المرآة· ولما رأى العلج ان المرآة بطلت،   ب بالليل في مركب نحو الروم)·

وكذلك نرى انه، اذا استثنينا بعض التفاصيل الثانوية، فرواية ابى زكرياء تتفق مع رواية القزويني بشأن الطريقة التي اختفت بها مرآة منارة الاسكندرية· ولكن المشكلة، هي انه في الوقت الذي يقول فيه القزويني ان العلج قام بفعلته الشنيعة في عهد الوليد بن عبد الملك (ت· سنة 96هـ·) يذكر ابو زكرياء ان اليهودي نفذ خدعته بعد عهد الموحدين···

ولكن الطريف هو ان الرحالة والجغرافي ابن حوقل الذي هو معاصر لابي زكرياء، ينكر حتى مجرد وجود مرآة المنارة! ويقول ان الامر لا يعدو قبة على رأس المنارة وقعت لقدمها «لا كما يدعي المحاليون في حماقات ورقاعات مصنفة انها بنيت لمرآة كانت فيها، يرى الرائي (منها) سائر ما يدخل بحر الروم»· والجدير بالتسجيل ان ابن عبد الحكم (وهو اقدمهم جميعا) لم يشر لدى ذكره لبناء المنارة الى هذه المراة، راجع عن المنارة ومراتها تعليقنا على كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي (النص: ص 148/ تعليق 159/ص247) فتوح مصر (ص40ـ41) ابن حوقل (ص142) معجم البلدان (186/1ـ188) الادريسي (ص136 وما يليها) القزويني (ص144ـ147) رحلة ابن بطوطة (29/1ـ30)·

أخبار عبيد الله ووقوعه بأرض المغرب

وعقبه من بعده: القاسم، وابنه اسماعيل وابنه معد، ومسير معد (1) الى مصر، ومسير الشيخ ابي حزر واخبار من قام عليه من الاباضيه.

حدث غير واحد من اصحابنا ان عبيد الله اقبل من المشرق، وهو ينتمي الى علي بن ابي طالب (ض) وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عنده في العلم انه سيلي الملك بمدينة يقال لها توزر، وانه منها تقوم دولته. فاقبل من المشرق، فلما وصل الى توزر وحسب انها هي التي تقوم منها دولته (2) فنظر الى رجالها، فليس يرى عليهم زينة الملك ولا هيئة السلطنة، وانما كانوا مشيطرين (3) واصحاب الحوانيت. وكانت معه دابة نفيسة ركبها من مصر، فنزعها له رجل من بني جلتمين (4) وهم من بني واسين، فكتب عبيد الله اسم الرجل وقبيلته واسم بلده.

فلما نظر عبيد الله الى اهل توزر على الصفة التي ذكرنا، ازدراهم ونقصهم وبقي متحيرا في امره، طالعا ونازلا، لا يدري ما يفعل. فقعد ذات يوم في سوق توزر، فسمع رجلا ينادي ويقول: من يشتري قمح تاصورت، فاتاه، فسأله: هل في المغرب مدينة تسمى تاصورت غير هذه؟

فاعلمه الرجل ان في كتامة قلعة تسمى تاصورت، فوجدها على الصفة التي توافق علمه، فوجه اليهم عبده الحجاني، فدعاهم الى التشيع، وقبلوا دعوته.

وحدثني من دخل بلد كتامة ان بقية الشيعة فيهم الى يومنا هذا، بقلعة من قلاعهم تسمى حلافة.

فلما قبلت كتامة دعوته، خلف فيهم مولى له يكنى ابا محمد ويسمى الحجاني (5) يقريهم القرآن ويشرح لهم مذهب التشيع.

قال، فخرج عبيد الله متوجها الى سجلماسة، فجاز بطريقه الى اورجلان، فلما رآه سفهاؤهم هزؤوا منه. وقالوا، هذا الذي جاء من المشرق يطلب الملك؟ فرموا في وجهه وضربوا له القرون، وكان اشد الناس عليه في ذلك، اهل قصر بكر، فلذلك خرق المسجد الكبير في رجوعه. وسنذكر كيف كان ذلك، اذا صرنا الى موضعه، ان شاء الله.

ثم ان عبيد الله سأل عن شيخ اهل ورجلان، فقيل له غيار. فقال، اين منزله؟ فقالوا، تاغيارت. فقال ، شيخهم غيار وبلدهم تاغيارت. غير الله ما بهم!

قال، فخرج من ورجلان الى سجلماسه (6) واقام بهامدة طويلة، فانتشر خبره في الناس (و) انه هرب من المشرق باموال عظيمة، فهاله ذلك وافزعه.

وكان الوالي على سجلماسة يقال له اليسع بن مدرار، فركن اليه عبيد الله، فاعطى له بعض ما عنده ليرد عنه الناس. فمكث عبيد الله في سجلماسة زمانا طويلا، وسكن في عاليه دار وسكن رجل من وجوه سجلماسة في سفلاها.

فبات الرجل صاحب الدار الساكن في سفلى الدار ذات ليلة اذ رأى، فيما يرى النائم ثعبانا عظيما مضطجعا، في الدار، فانتبه مرعوبا فزعا، فمكث باقي ليلته متململا.

فلما اصبح عليه طلع الى عبيدالله، وهو في عليا الدار، وقد كان رآه قبل ذلك يقرأ كتابا وينظر فيه، فقص عليه الرؤيا، ولم يخبره بمن رآه.

قال عبيد الله، ان كانت الرؤيا صادقة، فالثعبان العظيم يملك المشرق والمغرب.

فلما سمع الرجل ذلك من قوله، طأطأ على يده فقبلها، وقال: العفو، يا مولاي.

فقال له عبيد الله: مماذا تستفتني؟ فقال: انا صاحب الرؤيا. وقد رأيت في منامي ثعبانا عظيما وليس معي في الدار احد غيره، فانت ذاك. فزاده ذلك حرصا في حاجته، فمكث بسجلماسة حتى عرف بالعلم والفقه والقراءة، وصار الناس يختلفون اليه ويسألونه عن حوائجهم، فكانوا يجدون عنده فوق ما يريدون، حتى ادناه والي المدينة الى نفسه وآثره على جميع اصحابه وجعله وزيرا في جميع اموره:

قال وكانت حالته كذلك. فربما يزحف عسكره الى سجلماسة فيأمرهم بالخروج، فيظفرون، وينهاهم عن الخروج، فلا يندمون. وان عصوه في هذا كله، كان وبال ذلك عليهم. فزحف اليهم عسكر عظيم، فامرهم بالخروج على كثرة العسكر، في قلة معلومة، فخرجوا وظفروا، فتيمنوا به في جميع احوالهم.

فلم يلبث ان توفي اليسع بن مدرار (7) فابتدر اهل المدينة عبيد الله ليولوه على انفسهم، فامتنع وابى وتخوف منهم ان يقتلوه، (ف) قال انا رجل غريب، انظروا من تولونه غيري. فابوا الا توليته، فولي عليهم. فولي في سجلماسة وما حولها من البربر، فصار يأخذ القرى والمدائن التي بحواليها الى ان اخذ مدينة فاس.

قال، فلما تمكن في البلد وتملك على الجند، بعث الى مولاه الحجاني، وهو بكتامة ان يجمع له من اطاعه ويسمع دعوته من الناس ومن كان على مذهبه (ويسير) الى سجلماسه.

(1) في الاصل: معاذ، وهو الرسم المحرف الذي اعتمده المترجم.

(2) ولد عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب. في سنة 259هـ. كما ان ابوه قد وجه ابا عبد الله الى المغرب حيث استقبلته كتامه ونصرته في الدعوة لظهور «المهدى». حتى تمكنت دعايته واستفحل امره. فلحق به عبيد الله عن طريق الزاب وسجلماسه وبويع في القيروان في سنة 297هـ. ونزل «رقادة» وبعدما طوح بدولة الرستميين. توغلت جيوشه في المغرب الأقصى ثم حاول الاستيلاء على مصر ولكنه فشل. وعبيد الله الذي طعن في نسبه عدد من المؤرخين ونسب الى عبد الله بن ميمون القداح. هو باني «المهدية» ومؤسس الاسرة التي ستحكم. الى جانب المغرب. مصر وسورية ايضا. توفي عبيد الله سنة 322 هـ. بعدما حكم 24 سنة. راجع سيرته في رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد. تحقيق وداد القاضي (الفهرست) العبر (11/4 و 30/4 ـ 40) تاريخ الخميس (385/2) وفيات الاعيان (116/3 ـ 119) الكامل (90/8) البيان (الفهرست) حسن ابراهيم وطه شرف. عبيد الله المهدي. امام الشيعة والاسماعيلية.

(3) كذا في الاصل. وقد اهمل المترجم الكلمة . وهي كلمة محرفة عن «الشاطرين» اي دهاة حاذقين.

(4) كذا في الاصل. وقد اوردها المترجم برسم Beni Djelthin

(5) يقصد ابا عبد الله الداعي. ونحن لم نعثر له على هذه التسمية في مصدر اخر.

(6) فيما يتعلق بتحديد موقع سجلماسه التي انشئت سنة 140 هـ. والتعرف عليها في القرن الماضي في مدينة تافيلالت الحالية. راجع تعليقنا رقم 124 على كتاب الجغرافيا لابن سعيد (ص242) والمراجع المحال اليها. وكذلك يمكن الاطلاع على مجمل وصف الجغرافيين العرب. في مختلف العصور لعاصمة بني مدرار في كتابنا «المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي». وفيه قائمة وافية بالمراجع العربية والاجنبية.

(7) راجع عن اليسع وغيره من امراء بني مدرار الصفريين. البكري (ص148ـ151) الادريسي (ص159ـ161) البيان (156/1) الاستقصا (الفهرست) رسالة افتتاح الدعوة (الفهرست) وخصوصا. ص 237ـ240 .



خروج الحجاني (1) العنه الله من كتامة

حدث بعضهم ان الحجاني لما وصلته رسل سيده بالكتب متواترة ان يخرج اليه بمن اطاعه من الناس وقد (تمكن) الحجاني من نفس كتامة وعظمت درجته عندهم، وكان ذا علم عظيم بحساب النجوم، وكانت حاله عندهم مرضية، لا يأمرهم بشيء الا فعلوه.

وبلغنا انه تعلم عنده من فتيان كتامة نحو من اربعمائة غلام.

قال فمكث في ذلك الى ان قال لهم يوما من الايام، لعامة من علمه من فتيانهم: «ليس مرادي التعليم، وانما مرادي الملك».

قال، فاجابوه لذلك واتبعوه على قوله. فلما تمكن امر بالخروج الى سجلماسة، واظهر لهم من نفسه انه وجد في العلم انه سيلي ارض سجلماسة، وانه سيغلب الامير الذي كان عليها، فخرج متوجها يريد سجلماسة.

وحدث بعض اصحابنا ان دوسربنت يوسف بن محمد بن افلح بن عبد الوهاب، رضى الله عنهم، لما قتل ابوها وغدره بنو يقظان، خرجت متوجهة الى الحجاني مع اخ لها.

فلما وصلت اليه اخبرته بقصة ابيها وما انتهك من حرمته، فلم يشتغل بها.

فلما رأته كذلك، وعدته من نفسها، ان هو اخذ بثأرها ان تزوجه من نفسها.

ثم ان الحجاني اخذ في طريقه الى تاهرت، فلما كان بقرب منها، خرج اليه وجوه اهلها من المخالفين والشيعة والواصلية ومن بها من الصفرية وتلقوه، وشكوا اليه الامارة ووعدوه العون من انفسهم. على جميع الرستميين، وامروه باستئصال شافتهم وتوهين شوكتهم، فارسل الحجاني رسله الى يقظان وبنيه: ان اخرجوا الي.

فلما وصلت رسله الى يقظان، خرج هو وبنوه، فتلقوه على مسيرة اميال من تاهرت.

فلما قدموا عليه، سأل الحجاني يقظان عن اسمه، فقال له، اسمي يقظان. فقال له الحجاني: "بل اسمك حيوان! فكيف قتلتم اميركم وسلبتم لانفسكم ملكه، فاطفيتم نور الاسلام والقيتم الينا بايديكم بغير قتال ولا حصار». فامر به وببنيه فقتلوا عن آخرهم.

فلما ايقنت دوسر بنت يوسف بقتلهم، تغيبت وهربت من الحجاني مخافة ان يتزوجها، وطلبها حتى عيى، فلم يقدر عليها.

ثم ان الحجاني دخل المدينة وانتهبها وانتهك حرمتها واجلى كثيرا ممن فيها وجعل اعزة اهلها اذلة، وكذلك يفعلون.

وذكروا انه وجد بها صومعة مملوءة كتبا، فاستخرجها كلها واقتنى منها كل ما يصلح للملك والحساب، واضرم النار في بقيتها.

وذكر بعض اصحابنا ان يعقوب بن افلح، لما سمع باقبال الحجاني، خرج من تاهرت متوجها الى ورجلان، وله حديث طويل، سأذكره في موضعه ان شاء الله، واذكر ابنه سليمان، وكيف انتحل الفرية.

ثم ان الحجاني توجه يريد مولاه عبيد الله، ومولاه خارج من سجلماسة بمن معه من عساكره، يريد عبده، الحجاني، والرسل تختلف بينهما بالكتب.

فلما قرب التقاء العسكرين ارسل الحجاني الى عبيد الله: انا اذا التقينا بالغد، فاخرج الي من صف العسكر واخرج اليك. فاذا التقينا نزلت وقبلت يديك. فاتفقا على ذلك.

فلما كان الغد تراءى العسكران وتدانا بعضهم من بعض، خرج الحجاني الى عبيد الله من الصف، فنزل عن دابته وقبل يديه وركبتيه، فتحامت لذلك كتامة. فقال لهم الحجاني: «انه مولاي وسلطاني وسلطانكم من ذرية علي بن ابي طالب وابن فاطمة، بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

فقالوا له: «لا نعرف لانفسنا سلطانا سواك». فقال لهم: «هو سلطاني ومولاي، فسمعوا له واطاعوه فالتأم العسكران لعبيد الله.

ثم ان عبيد الله انتخب من عسكره اولى القوة والعدة والسلاح الشائك، فجعل عليهم عاملا وانفذهم الى ورجلان فتوجه بهم العامل. فلما وصل الى ورجلان (2) وقد سمع اهل ورجلان باقباله توجهوا (الى) كريمة، وهي كدية عظيمة لا ترام، فطلعوها، فحفروا فيها مواجل للماء، فملؤوها.. فلما وصل اليهم حاصرهم اشد الحصار.

وذكر اصحابنا انه طوق عليهم سبعة اطواق من خيل، فاراد الاقامة عليهم حتى يموتوا عطشا. فلما رأوا ذلك ارتابت نفوسهم، وفيهم رجل يهودي، فامر بجمال فزمت افواهها فعطشها ثم اخذها فوقفها على حرف كريمة، فجعل لهم في قصاع كبار زيتا. فاذا نظرت الجمال الى ما في القصاع، جعلت افواهها في القصاع، فمن رآها من اسفل كريمة، حسب انها تشرب. فاذا اعيتها ازمتها رفعت رؤسها فنفضت الزيت عن مناخرها. ومن بعد عنها حسب انها تشرب.

وبلغنا انهم اخذوا كساءة فرشوها بزيت فنشرت على حرف كريمة.

فلما رأوها، قالوا ان مع القوم ماء، ونحن محاصروهم ليموتوا عطشا، فتنحوا عنهم ،وقالوا، لا مطمع لنا فيهم، فارتحلوا عن اهل ورجلان، فحرقوا المسجد الكبير لجنون ابن يمريان (3) رحمه الله، فدخلوا ديارهم ففتشوها، فوجدوا في دار واحد منهم بيضة النعامة مملؤة شعيرا فحملوها.

فلما وصلوا الى رملة ازلفان، لحقهم رجل من اهل ورجلان، ممن اراد هلاكهم، فادرك بقية اهل العسكر، فقال لهم: ما لكم تركتم اهل ورجلان وليس معهم ماء، وانما جعلوا لكم الحيلة.

فنظر بعضهم الى بعض فاخذوه وقتلوه قبل ان يفشي خبره في العسكر، فيرجع العامل الى اهل ورجلان فيهلكهم.

وانما صادف هذا الرجل المقتول في ساقة العسكر (من) سدراته، فتحامت لاخوتها، ولذلك قتلوه.

ثم ان بعض العسكر جاز بتوزر، فقصد نحو القبيلة التي اخذت له الدابة فقتلهم وانهبهم.

فلما وصل العامل الى القيروان، وقد تمكن بها عبيد الله، اخبرهم خبر اهل ورجلان، فقال له انك رفقت بهم.

قال، فعمد العامل الى رمح طويل فوكزه ونصب عليه رغيفا، فقال له.. اصلح الله مولانا، هل يقدر احد ان ينتزع هذا الرغيف عن هذا الرمح على هذا الحال؟ فكذلك اهل ورجلان، فاخرج له بيضة مملوءة شعيرا، فقال له، هذه مطاميرهم.

وذكر بعضهم ان عبيد الله لما صحت له ولاية القيروان، ارسل مولاه الحجاني الى كتامة عاملا له عليها، فتكاتف بها امره، واشتد سلطانه.

فلما كبر عبيد الله وخاف من الحجاني على عقبة من بعده ان يفسد عليهم سلطانهم، ارسل اليه وقال له، اقدم علي بوجوه كتامة، فاني كبرت ورق عظمي، وانا في آخر عمري، فاريد ان تقدم علي عاجلا لأُصيك بوصايا.

فلما وصل كتاب عبيد الله الى الحجاني، انتخب من وجوه كتامة عددا كبيرا، فاقبل بهم الى القيروان.

فلما اتى الى القيروان وقد بنى بها عبيد الله قصرا كبيرا وجعل عليه غرفا.

فلما وصل اليه الحجاني واصحابه، ادخله واصحابه في بعض غرف القصر، فاعطى لهم طعاما وشرابا. فلما اخذت فيهم الخمر مأخذها، اضرم من تحتهم نارا في سقف الغرف وأحفّ رجالا عليهم السلاح. فلما احسوا بالنيران، صاروا يتساقطون من القصر، فمن افلت من النيران، قتله الرجال الذين حفوا بالقصر، الا ما كان من الحجاني. فلما احس بالنار، قفز قفزة صار بها خارج القصر، فأخذه الرجال. فقال لهم، مهلا علي، لا تعجلوا بقتلي، وامضوا بي الى مولاي، فمضوا به الى عبيد الله.

فلما دخل عليه قال له الحجاني: «هذا جزائي عندك؟ اطعتك وبلغتك السلطنة والملك». وذكر له اياديه عنده.

فقال له عبيد الله: «كل ما ذكرته قد كان، ولكنني لم اوثر عليك الا نفسي»·

فامر به فذبح في طست، فاظهر عبيد الله التشريق في ارض المغرب حتى مات.

فلما مات ولي من بعده ابنه، ابو القاسم بن عبيد الله (4) فظل ينظر متى تكون له الدولة في ارض مصر· وفي ايامه وعصره، خرج ابو يزيد·

(1) يقصد ابا عبد الله (الحسين بن احمد) الشيعي الملقب بالمعلم. ناشر دعوة العبيديين في المغرب. اصله من صنعاء وارسله عبيد الله الى المغرب لجمع الانصار لقضيته· وقد احاط دعوته بكثير من الاسرار والغموض. بحيث انه حمل كتامة على مبايعة سيده «المهدي» (سنة 286هـ·) دون ان يسميه لهم· وبعد وقت من التعليم والتدريب الايديولوجي دخل ابو عبد الله في مرحلة النضال العسكري واتخذ من قلعة ايقجان حصنا له. قبل ان يزحف على ميله ثم على القيروان ليطرد منها زيادة الله الاغلبي. وبذلك مهد العرش لعبيد الله· وقد كان نفوذ ابي عبد الله واخيه ابي العباس عارما بين كتامه وغيرها من قبائل البربر· مما خشي معه عبيد الله على مستقبل ملكه. فامر بقتلهما. وقتلا في رقادة في سنة 298هـ· راجع رسالة افتتاح الدعوة (الفهرست) البيان (164/1) وفيات الاعيان (192/2ـ193) الاستقصا (الفهرست) الكامل (10/8ـ17) العبر (362/3 و31/4 و37)·

(2) ورد ذكر ورجلان (وارقلة حاليا) في اعمال الجغرافيين العرب باشكال متعددة: واركلان. وارجلان. وارجلن. ورجلن. ورجلان. وارقلان· ضبطها ياقوت: ورجلان. وقال عنها انها «كورة بين افريقية وبلاد الجريد (كذا). ضاربة في البر. كثيرة النخيل والخيرات»· ورسم الادريسي الكلمة: وارقلان. وقال ان فيها «قبائل مياسير وتجار اغنياء يتجولون في بلاد السودان الى بلاد غانة. وبلاد ونقارة. فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم. وهم وهبية (انظر هذه الكلمة في هامش اعلاه) اباضية نكار. خوارج في دين الاسلام»· وجاء ذكرها في كتاب الدليل لابي يعقوب يوسف الورجلاني· (500ـ507) : ورجلان· وذكرها ابن خلدون مكتوبه واركلا بالكاف اخرها لام وبدون نون. وشكلها بالحركات مكسورة الراء· وهذا التشكيل غفل عنه المرجوم ابن تاويت الطنجي الذي اوردها في التعريف بابن خلدون. وشكلها واركلا· وورجلان (عرضها الشمالي °32. وطولها الشرقي25 ـ 5ْ) تقع في جنوب مدينة تقرت في واحة وفيرة المياه والكلأ والنخيل· وهي الان قاعدة ولاية في التقسيم الاداري الجديد في الجزائر· راجع معجم البلدان (371/5) البكري (ص77 و182) العبر (في عدة اماكن) التعريف بابن خلدون (ص155) الادريسي (ص120) رحلة العياشي (الفهرست) طبقات الدرجيني (2/الفهرست) بغية الرواد (23/2 و32) تاريخ الجزائر العام (الفهرست) مقالة الاستاذ عبد الرحمن الجيلالي (مجلة الاصالة ـ يناير 1977) عن كتاب الدليل والبرهان للورجلاني ، وكذلك

Fanyan (E) Extraits inédits (171-162) G. Sell (st.), Atlas arch. de l'Algérie, F. 26.

(3) قارن طبقات الدرجيني (341/2ـ344) وسير الشماخي (ص362)·

(4) هو محمد بن عبيد الله. ابو القاسم. القائم بن المهدي العبيدي. الذي يسمى ايضا نزارا· ولد بسورية في سنة 278هـ· ودخل المغرب مع ابيه· قام بحملتين على مصر وخاب في كل منهما وعاد الى المغرب· بويع في سنة 322هـ·. بعد وفاة ابيه· وهو اول من تلقب بلقب امير المؤمنين من الفاطميين. وقد مات محاصرا في المهدية سنة 334هـ·. راجع اخباره في رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد (الفهرست) النجوم الزاهرة (287/3) وفيات الاعيان (27/2) البيان (171/1 و208)·

ابو يزيد مخلد بن كيداد اليفراني (1)

حدث غير واحد من اصحابنا ان ابا يزيد كان رجلا من بني يفرن، وكان مسكنه بقلعة سداده، وله حديث في مبدإ عزمه مع ابي الربيع سليمان بن زرقون (2) ورجوعه الى مذهب النكار، بعد الوهبية، وستذكر ذلك ان شاء الله في احاديث ابن زرقون، فانما قصدنا من هذا الموضع، خروجه عن القاسم ابن عبيد الله، والى ما انتهت به المقادير.

وحدث بعض اصحابنا انه وجد على حجر مكتوب عليه: «ثلاثة مفسدون في البلاد، شداد بن عاد، وفرعون ذي الاوتاد، ومخلد بن كيداد».

وكان سبب ثورته (3) فيما بلغنا، انه توجه الى المشرق يريد الحج، فلما وصل الى مصر، نظر اليه رجل من اهل مصر، وقد حلق رأسه من عند الحجام، فقال له، غط رأسك ايها الثائر، فضربه عليه. فلما سمعها ابو يزيد، مخلد بن كيداد، وقع في نفسه من ذلك ما وقع.

فلما حج وقضى مناسكه كر راجعا الى المغرب.

فلما وصل في طريقه الى قرب جبل نفوسه، فوض من سار عنه نحو جبال نفوسه، فقال له: اقر عنَي السلام على جميع اخواننا، وقل لهم قد وافينا كثيرا، وانه ليس لله علينا ان نشتري حجة.

وقد بلغنا (انه) ادى في طريقه تلك اقل من درهم. ولذلك قال، ليس لله علينا شراء حجة.

فلما رجع ابو يزيد من ارض المشرق، حفر غارا بقلعة سدادة ف(كان) يجتمع فيه مع اصحابه، يذكرون ما يريدون من امرهم، وذلك الغار اليوم معروف، وينتظرون متى يأتي وقت ذلك.

وكان على قسطالية عامل من عمال ابي القاسم بن عبيد الله، وهو الذي بنى مدينة المهدية وسميت به، وكان يسمى المهدي، وتسمى ايضا القاسمية، باسم القاسم.

وكان عند المهدي علم بانه سيخرج عليه رجل من البربر، بصفة كذا وكذا، فصار يتوقع ذلك ويتوكعه، ويرسل الى عماله في البلاد يأمرهم ان يتحفظوا ويتحذروا منه ويعلمهم بصفة الرجل.

فكان هو وعماله يستكشفون عن الصفة التي كانت عنده ويبحثون في طلبها، الى ان ذكر لعامل قسطالية رجل بقلعة سداده من نعته ومن امره كذا وكذا، فبث اليه عامل قسطالية، وهو بمدينة توزر.

فلما راه وعرفه بالنعت الذي نعته له صاحبه، اخذه فرماه في سجنه وقيده في الحديد ليرسله الى السلطان بالقيروان.

فلما طال مكثل ابي يزيد في الحبس ولم يجد لنفسه حيلة، وامست

نفسه من سلامة تكون على يد العامل، وبلغ ذلك جماعة النكار، اجتمعوا فيما بينهم واختاروا من انفسهم اربعة رجال، يثقون بهم في الجلد والشجاعة والباس والنجدة، فأرسلوهم اليه اخر النهار.

فلما وصلوا الى باب المدينة، وقف واحد منهم على الباب، وتقدم ثلاثة الى الحبس. فلما أتوه، بدؤوا بالسجان الذي يحرس الحبس، فقتلوه وكسروا السجن، واخرجوا جميع من فيه واخرجوا صاحبهم مقيدا واحتمله احدهم على ظهره،وكان اسم حامله، يوجين، فيما بلغنا، وبين يديه رجل بالسيف مصلتا، واخر خلفه. فكل من قام اليهم من الناس قتلوه. فخرجوا بصاحبهم حتى اتوا على صخرة بين الحامة وتوزر، وكسروا ما عليه من القيد، فسميت «صخرة ابي يزيد».

فمضى نحو بني يدرجتن في الصحراء، برملة سماطة، رجاء منهم ان يمنعوه، وقد كانوا في قوة عظيمة ينتهون الى ثمانية عشر الف فارس، فيما بلغنا، فالتجأ اليهم وطلبهم ان يمنعوه، فلم يجد عندهم ما يريد، فمضى من عندهم مستخفيا الى جبل اوراس (4).

قال، فلم يزل الطلب عليه والبحث عن شأنه حتى علموا بموضعه، فانفذ اليه القاسم بن عبيد الله جيشا عظيما فحاصره بجبل اوراس سبع سنين، وبلغت فيه نفوسهم التراقي. وفي ذلك قال متكلمهم يذكر ما نزل بهم من البلاء والضرر، وطول الحصار والمطر، قال: «جبل لا يصعد، ومطر ساكب، وفتى مستقصى. وشيخ غير مدفوع . ونحن المبتلون المقتولون.

فلما رأى القوم ما نزل عليهم وحل بهم، اجتمعوا اليه وقالوا له: قد رأيت ما حل بنا ونزل علينا من امر هذا الفتى، ولم يبق لنا طاقة للقوم. فهلاك رجل واحد ايسر من هلاك العامة. فقال لهم ابو يزيد: "امهلوني في هذه الليلة».

فلما اظلم عليهم الليل، امر بخمسمائة ثور، وامر ان يشد على قرن كل ثور منها حزمة من حلفاء، والى ذنبه حزمة اخرى. قال. فاختار خمسمائة رجل من اصحابه، من ذوي الباس والنجدة، فاخذوا عدتهم وسلاحهم وساق كل واحد منهم ثورا، حتى اذا قربوا من العسكر، اي جيش العبيديين القى كل واحد منهم في حزمات ثوره نارا.

فلما بلغت حرارة النار الى الثيران، ركضت امامها، فخاضت الثيران بالمعسكر والرجال في ساقتها بالسيوف مصلتة، يضربون بها كل من ادركوه، فجعل الله ذلك هزيمة للعسكر فانهزموا، فقتلهم ابو يزيد واصحابه قتلا ذريعا.

فلما كان صباح يومئذ من الهزيمة، عرض في اثني عشر الف فارس من اهل عسكر القاسم خاصة ورجعوا اليه، فصار الطلب على باقي عسكر

القاسم، فتسامعت به القبائل وطار اسمه في الافاق، فاجتمعوا اليه من كل اوب، والتأمت اليه عساكر كثيرة، حتى عدوا في عسكره الفا من الخيل البلق، والله اعلم، ومعه من مزاته الاف كثيرة، فاخذ في فتح المدائن والقرى والمنازل، ففتح الساحل كله، واقبل يريد قسطالية التي منها خرج، ففتحها باسرها.

قال فلما احس من نفسه القوة ورأى كثرة من اجتمع له من الناس، تكلم اليه بعض عزابتهم (5) ماذا تنتظر (للأخذ) بثأر يزيد بن فندين، يا شيخ؟».

فقال ابو يزيد: دعنا حتى نفرغ من نسج كسائنا. فاذا ما فرغنا منها وقعدنا في مصحات اشتغلنا في تنقية كساءاتنا.

فقام اليه بعض من كان معه من مزاته، وهو مسارة بن غني، فقال له: فلا تظن ان الوهبية قد خرجت معك، انما كانت في مساجدهم. وانما خرجنا معك نحن لنتواكل هذه الميتة، فدع عنك هذا، والا قتلنا كلاب الحي - يريد بالميتة الغنائم والاموال التي يأخذونها.

ثم ان عدو الله، سار يريد القاسم بالقيروان، وكل قرية ومدينة مر بها في طريقه خربها وسبا ذريتها وغنم اموالها، كفعل نافع بن الازرق وغيره من الخوارج، بل قد زاد عليهم واربى.

كان معه رجل من علماء النكار، يسمى زكرياء، ينكر ذلك عليه، ويقول: «ان هذا لهو الخروج من الدين».

فلما رأى ابو يزيد انكاره عليه، خشي ان يفسد عليه العامة من الناس، امر بقتله، فقتل ليلا، ولا يدري اين كان.

فلما سمع القاسم باقبال ابي يزيد اليه بما لا قبل له به من العساكر، خرج من القيروان الى المهدية، فترك على القيروان رجلا، وقدم ابو يزيد القيروان وحاصر اهلها، حتى اشتد عليهم الحصار، وقد انهب من المدينة كثيرا من اطرافها، فخافوا على انفسهم والقوا اليه بايديهم وخرجوا الا قاضي المدينة. (فـ) قد انحاز في دار الامارة باموال جسيمة، فارسل اليه ابو يزيد: «اخرج»! فأبى القاضي الا بالامان، واعطاه ابو يزيد الامان.

فلما خرج اليه القاضي، شاور وزراءه، فقال له رجل منهم يسمى ابا عمارة: الم تعلم ما ذكر في كتاب كليلة ودمنة؟ فقال له ابو يزيد: وكيف ذلك؟ قال له ليس شيء اروح للقلب من قتل عدو مخوف، وان بلغ من الضعف الغاية.

قال، فامر ابو يزيد بقتل القاضي، فقتل بعد الامان، واخذ تلك الاموال.

وذكروا انه بلغ عدة ما خرب على يده في افريقية ثلاثون الف قرية لم تعمر الى يومنا هذا. وفعل في افريقية من الفسوق والمعاصي والفجور، ما

لم يبلغنا مثله عن الفراعنة والاكاسرة والقياصرة والجبابرة.

وبلغنا انه عوتب على ما يفعله عسكره من الفساد والخراب، وهو شاهد كما يراهم ولا ينهاهم، بل قد يأمرهم به، فتلى قوله تعالى: «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان، ولكن الشياطين».

وكان عدو الله على حمار جاء (به) من مصر، اذا مشى عدت الخل معه، واذا عدا سبق الخيل.

وبلغنا ان ابا القاسم، يزيد بن مخلد، رحمه الله، لما بلغه ما خرب على يد ابي يزيد، وقد ذكر قومنا، فقال: «لقد فتح فيهم ابو يزيد بابا، الا انه لم يحسن السيرة».

وبلغنا انه مر بعسكره على مدينة قابس (6) فنظر الى غابة وقومها بكسر درهم، وامر اصحابه بالنهب والاكل والفساد والخراب ومكث عليها زمانا كذلك. فلما اراد الانصراف، قوم الغابة مرة اخرى، فجعلها درهما، فصار يطالب اهل قابس فيما زاد على التقويم الاول.

وبلغنا انه نزل بالساحل، فأخذ اهل عسكره صبيتين جميلتين، فجاءته امهما تشكو اليه، فقالت له: يا شيخ، ان الغزّابة سبوا لي ابنتين.. وهما حرتان.. وغصبوهما، فلم يجبها عدو الله بجواب، غير انه قال، هل في افريقية حرة؟ فخافت المرأة على نفسها فهربت ونجت بنفسها.

وبلغنا انه، عدو الله، لا يبيت كل ليلة الا على اربعة ابكار.

ثم ان ابا يزيد سار من القيروان يريد المهدية (7) فحاصر بها المهدي زمانا طويلا، حتى نزل بالرملة التي بباب المدينة، وبنى بحيال باب المدينة مصلى، وهو بها معروف يدعى «مصلى ابي يزيد».

ثم ان (ابن) المهدي، قضى الله عليه بالموت ورجع في مكانه ابنه اسماعيل (8) ابن ابي القاسم بن المهدي، فسمع اهل العسكر بوفاة ابي القاسم وسروا بذلك غاية السرور واستبشروا وطمعوا في اخذ المدينة، وبشروا بموته ابا يزيد، فساءه ذلك وتراجع وتنكس طويلا.

فقال له اصحابه: لم هذا؟ فقال: مات رجل اديل لنا عليه، وولي رجل فلا ندري ايدان له علينا ام يدال لنا عليه.

قال، فزحف ابو يزيد فيمن معه الى احد ابواب المدينة، فضرب فيها، وكان اسماعيل عنده في العلم ان ابا يزيد، اذ اضرب في باب معروف من احدى البابين، (فـ) انه يخيب. واذا ضرب في الاخر (فـ) انه يظفر. ووقع ضربه على باب الخيبة، وخيبه الله.

وقالوا له من اعلى البرج: اخطأت، يا شيخ!

قال، فوقع القتال بينهم حتى انهزم عدو الله ابو يزيد وكانت الدائرة عليه.

وقد ذكروا ان ميمنة عسكره انهزمت، حتى انتهت الهزيمة الى القيروان، ولم يشعر بذلك اهل الميسرة بـ(سبب) كثرة جنوده.

ثم ان أبا يزيد سمع بأن اهل القيروان (9) وثبوا على عامله عليها وحاصروه حتى اخرجوه، وقد دس اليهم الشيعي بالكتب في ذلك. فتراجع (10) ابو يزيد عن المهدية.

فعندها انهزم عدو الله الهزيمة التي اصيب بها. فلما سمع اسماعيل بما فعل اهل القيروان بعامل ابي يزيد وأحس فيه التاخر (وقيل ان اسماعيل خرج اليهم بخمسمائة فارس او نحوها) خرج اليه وتبعه، فكانت عليه الهزيمة واستحر القتل في عسكر ابي يزيد.

وبلغنا ان ما قتل بعضهم من بعض اكثر مما قتل منهم عدوهم.

فلم يزل الشيعي في ساقتهم يقتلهم الى ان انتهى الى القيروان.

فلما وصلوا الى الموضع الذي بنيت فيه صبرة، قال ابو يزيد لاصحابه: «اصبروا صبرة» ، فكر راجعا. فلذلك سمي الموضع صبرة (11).

قال، فخرج عليه اهل القيروان يقاتلونه، فلما أخذته الغلبة ولى منهزما، وتبعه طائفة من خيل اسماعيل فادركوه وقد تأثر من جروح. فالقى بيده الى احدهم، فقال له، خلصني!

فقال له الفارس، من تكون؟ فقال له ابو يزيد، انا ابو يزيد.

قال فاخذه الرجل ومضى به الى اسماعيل. فلما مثل بين يديه، قال الرجل لاسماعيل، اني اسرت هذا الرجل وزعم انه ابو يزيد، وانا لست اعرفه.

قال فدعا اسماعيل بمن يعرفه، فاخبره انه هو. ثم دعا اسماعيل بالاطباء ليعالجوه، وقد انفدته الجروح، لئلا يموت (حيث انه) يريد ان يعذبه بانواع العذاب. فقال له الاطباء، انه لميت.

قال، فلما علم بذلك اسماعيل من امره، امر بسلخه، واخذوا في سلخه. فلما وصلوا الى السرة مات عدو الله الى النار وبئس المصير، فتفرقت عساكره ومضى كل في وجهته.

ثم ان الفضل بن ابي يزيد، بعد موت ابيه، جمع على نفسه جمعا من اخلاط الناس، فلما رأى كثرة من اجتمع له، قصد الى ظعائن مزاته، وفيهم ابو القاسم يزيد بن مخلد، وابو خزر يعلى بن زلتان، رضى الله عنهما، فلم يشعروا الا وعساكر الفضل تضرب اخبيتها حولهم، وكانت عساكره في ثلاثين الفا، في صباح يومئذ، وقال لهم: ادفعوا الي اخوتي من بني «تيجرت»، يريد ابا القاسم وابا خزر، رضى الله عنهما.

وذلك ان بني واسن وبني يفدن اخوة، وهم جميعا بنو تيجرت.

فقال لهم (الفضل)، لم اقصدكم، يا مزاته، انما قصدت اخوتي.. فائتمرت

مزاته عى دفعهما، فكان رأي بعض اهل الدنيا ان يدفعوهما، وابى لهم اهل الصلاح منهم ذلك، وتنحوا ناحية عن اهل الدنيا، وهم في ذلك، اذ اتاهم رجل من ملأ مزاته وقال لهم، ان اخوانكم من هذه الجماعة ليست لكم فيهم ما يقومون له، فان احببتم ان تشمروا عن انفسكم وتدفعوا عن صاحبكم، فافعلوا.

فقال بعضهم لبعض، قوموا بنا لناخذ عدة الحرب. فقاموا غضبا لله ولدينه ولمشائخهم، فاخذوا من هيئة السلاح، بعضهم يشد السرج لفرسه، وبعضهم يسوى سنان رمحه، وبعضهم يقلد سيفه وامثال ذلك من انواع السلاح «وما منا الا وله في القوم (أخ) (12) او ابن عم او نسيب او قريب. فان هم رأونا محاربين لا يدعوننا ويسلموننا».

فلما رأى اهل الدنيا عزيمة المشائخ على الحرب وجدهم على القتال، رجعوا اليهم فتابوا مما بلغ المشائخ عنهم، فقبلوا عنهم توبتهم.

قال، فاجتمع رأيهم على ذلك، وكان مسارة بن غني، من مزاته، ممن وافق رأيه رأي المشائخ، فقال: لي اثنا عشر ابنا وقد وهبتهم لكم اليوم، يا مشائخ.

وقال مسارة لبنيه: قاتلوا اليوم وقد امر المشائخ، كقتال علي بن ابي طالب امام النبي، صلى الله عليه وسلم.

قال. فتهيأت العامة للحرب، واستجمع عسكر الفضل في خيله ورجله، واجتمعت المشائخ ومن معهم، ثم ان مسارة التفت الى احد ولده، وهو اصغرهم، فقال له: «امك طالق ان لم تكشف تلك الربوة التي عليها خيل الفضل» (13) وقد كانت عليها الخيل حتى اسودت، فيما بلغنا، كالليل المظلم، وحمل عليهم الفتى وكشف عنها.

ثم ان الفريقين التقوا ونشبت الحرب وكان ذلك ضحوة نهار، فيما بلغنا، فاقتتلوا مليا، والفضل في ثلاثين الفا، وكانت الدائرة على الفضل واصحابه وقتل منهم خلق كثير.

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، عن ابي يعقوب يوسف بن نفات، رضى الله عنه، انه قال، لما انهزم الفضل وعساكره، وصاروا ثلاث فرق، طائفة مستأصلة، وطائفة هلك بعضها ونجى بعضها، وطائفة لم تصب من يتبعها، فهرب الفضل حتى انتهى الى قرية من قرى تلك الارض، فدخلها، فأخذه اهلها وقطعوا رأسه، وتوسلوا به، الى اسماعيل بن القاسم، فتشفعوا به اليه، فشفعهم وانطفأ ذكره.

وبلغنا عن رجل من هوارة يسمى محمد بن عربية، حين انهزم عسكر الفضل، ضلت له ابل ليلة يوم الهزيمة، فمضى في اثرها يطلبها ثم جنه الليل، فبات ولم يعلف حصانه.

فلما كان صباح (يوم) الهزيمة، راى(14) العسكرين وقد تواقفا، وكان على فرس سابق. فلما انهزم الفضل واصحابه، كان سرعان الخيل. فاذ ابلغ الى جماعة رجال من اصحاب الفضل، اقتطعهم الى من خلفه من اصحابه يقتلونهم ولا يقتل هو احدا. فكان كذلك حتى استقتل منهم عددا كبيرا، وكان رجلا تائبا في اخر عمره بعد كبره، ولم يكن بالغا في العلم.

فلما كان في الليلة المقبلة، علف حصانه اربعة اثمان بالثمنة الكبيرة.

(1) هو ابو يزيد مخلد بن كيداد النكاري، صاحب الحمار، اصله من البربر. وكان يمارس الزهد والتقشف. نشأ في قسطيلية وخالط النكار واصبح اماما من ائمتهم. وقد كان في مبدأ الامر معلما للصبيان، ثم اخذ على نفسه العمل لتغيير المنكر فكثر اتباعه. وعقب وفاة المهدي العبيدي في سنة 392هـ. اعلن الثورة في جبل اوراس وتلقب بشيخ المؤمنين. ثم استولى على القيروان وحاصر «القائم لعبيدي في المهدية. على ان البربر اخذوا ينتقضون عليه لما كان يرتكبه من الاعمال الوحشية ولم يلبث انتصاره ان تحول الى هزائم وانتهى الامر بقبض المنصور عليه ومات متأثرا بجراحه في سنة 336هـ. ورواية ابي زكريا عن ثورة ابي يزيد، هي اقدم الروايات وادعاها الى الثقه واكثرها تفاصيل، اذا استثنينا رواية ابن الاثير، على ان الروايتين تكمل احداهما الاخرى. والذي يستحق التنويه ايضا هو ان رواية ابي زكرياء الذي لا يفصله عن هذه الاحداث سوى ما يقرب من قرن، لم يستفد منها المتأخرون، مثل ابن خلدون وابن خلكان، ومن هنا، يمكن مقارنتها بفائدة بما كتبه المؤرخون الذين تعرضوا لاخبار ثورة ابي يزيد، وفي مقدمتهم، البيان (193/1 و316 و319ـ320) رسالة افتتاح الدعوة (ص15ـ19) وفيات الاعيان (234/1ـ235) اتعاظ الحنفاء (ص109) الكامل (422/8 ـ 441) النجوم الزاهرة (28/3) العبر (40/4 ـ 44). انظر ايضا، طبقات الدرجيني (119/1 ـ 123) سير الشماخي (ص 346) رياض النفوس (2/الفهرست) المؤنس (ص 57 ـ 62). الحلة السيراء (390/2 ـ 391) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية 164/1) مقالة الدكتور احسان عباس (مجلة الأصالة ـ يناير 1977) ـ (ص 25 ـ 42) صالح باحية . الاباضية بالجريد (الفهرست)وكذلك LeTour-neau (R).la Revolte d'Abou Yazid au Xème siècle. Les Cahiers de Tunisie (I/1953)

(2) قارن سير الشماخي (ص36) وطبقات الدرجيني (349/2). انظر كذلك، الاباضية في موكب التاريخ (162/1ـ164).

(3) في الاصل: تيارته.

(4) هي سلسلة من جبال الاطلس الصحراوي بالجزائر. وهذه السلسلة تمثل شكلا رباعيا طوله من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب، 65 ميلا. وفي نهاية هذه السلسلة الى الجنوب تمتد التلال القليلة الارتفاع، التي تتصل بالصحراء الكبرى. واهم قمم هذه السلسلة من الشمال هي كيف محمل (40 قدما) وشيلية (759 قدما). والقمم المرتفعة منها تغطيها الثلوج في الشتاء والربيع. كما تتعرض السفوح الشمالية منها للرياح الشمالية الباردة. وسكان اوراس يتكونون من عناصر مختلفة اهمها البربر، الذين انضمت اليهم عناصر عربية اشهر قبائلها حلفوية الذين هاجروا من منطقة بسكره، واولاد فدهلة واولاد زيان، والجمورة والبرانس الذين قيل انهم هاجروا الى هناك من الساقية الحمراء. واما اشهر قبائل البربر الاصلية في اوراس، فهم زناته (اوربه وجراوة) التي ظلت تحتفظ باستقلاله في عهد الرومان والبيزنطيين والوندال، ولكن المنطقة تلقت روافد من العناصر العربية بعد العزو الهلالي، فاستوطن اوراس الشمالة، نو دريد امز طون اثبج). راجع وصف اوراس في البكري (الفهرست) الادريسي (الفهرست . وكذلك المراجع التالية :

Xavier de Plantrol, Les fondements géographiques de l'histoire de l'Islam (p. 125-26) ; Lartigue : Monographie de l'Aurès ; Masqueray : Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Afrique Septentrionale (Rev. Afric., 1884) ; Basset (R) Note sur les Chaouia de la province de Constantine, Paris, 1897 : Mercier (E), Chaouia de l'Aurès, l'Ecole des Lettres d'Alger, 1896.

(5) العزابة اسم لجماعة، واحدهم عزابي، وهو مشتق من العزوب عن الشيء، او البعد عن الامور الدنيوية. والعزابة تعني الانقطاع والعزلة الجماعية وتنطبق خصوصا على طلبة العلم. ولكن هذا المصطلح اصبح يطلق في العصور الحديثة على هيئة تقوم بالاشراف على شؤون المجتمع الاباضي الدينية والسياسية والتربوية. وهذه الهيئة تمثل في زمن «الظهور» (اي اعلان الدعوة) مجلس شورى للامام او لعامله. ومقر العزابة هو المسجد.

(6) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور لمدينة قابس في كتابنا: المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي.

(7) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور للمهدية في نفس المصدر.

(8) اسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي، المنصور بنصر الله، ثالث خلفاء الفاطميين. تولى الخلافة بعد وفاة أبيه اثناء حرب ابي يزيد في سنة 334هـ. ولكنه لم يبايع رسميا الا في سنة 336هـ. وهو الذي تمت على يده، بمساعدة الزبيريين، هزيمة ابي يزيد. والمنصور هو الذي بنى مدينة «المنصورية التي تحمل اسمه، وقد توفي فيها في سنة 341هـ. راجع سيرته في وفيات الاعيان (234/1ـ236) رسالة افتتاح الدعوة (ص278ـ279) العبر (43/4) الكامل (150/8 و164) البيان (218/1) اعمال الاعلام (22 و23) طبقات الدرجيني (102/1 و104).

(9) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور لمدينة القيروان كتابنا: المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي.

(10) في الاصل: فتاخر.

(11) مدينة صبره متصلة بالقيروان، بناها يوسف بن زيري بن مناد في عهد المنصور العبيدي في سنة 337هـ. واستوطنها الخليفة وسماها المنصورية، ولما تولى المعز الفاطمي الحكم نقل اليها اسواق القيروان كلها وجميع الصناعات، وقد كان لها خمسة ابواب. ويذكر البكري انه كان دخل واحد من ابوابها في اليوم، ستة وعشرين الف درهم. وصبره المنصورية هي التي ذكرها ابن رشيق حين يقول:

بنفسي من سكان صبرة واحد   هو الناس والباقون بعد فضول

وصبره الآن خراب يباب. راجع الادريسي (ص103 و121) البكري (ص26ـ47) معجم البلدان (291/3ـ292).

(12) كلمة سقطت في النص ولكنها وردت في الترجمة .

(13) في الاصل: خيل الخيل. وهو تحريف واضح.

(14) في الاصل: وافى.

اخبار يعقوب (1) بن افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، رضى الله عنهم

وحدث غير واحد من اصحابنا ان الحجاني لما سار متوجها الى تاهرت، خرج يعقوب بن افلح في خيل من اصحابه بعائلاتهم واهاليهم، فتبعهم عسكر العدو، وكان عنده حصان عظيم الشان، فتقدم لاصحابه على الطريق، وقد اسدل على رأسه ملحفة، فاذا قرب العدو من اصحابه وغشيهم خيلهم، نادوه، فيقف لهم حتى يصلوا ويأمرهم بالسير على الطريق ويستقبل خيل العدو بوجه فرسه، وكان فرسه تضرب به الامثال في المغرب. فاذا نظروا اليه وعرفوه، توقفوا له من هيبته. فاذا ما تباعد اصحابه عنهم سار في اثرهم حتى يدركهم فيسبقهم، وعسكر العدوايضافي اثرهم، حتى كادوا ان يدركوا اصحابه تارة اخرى، فنادوه مرة اخرى، فيقف لهم حتى يتباعدوا فيأخذوا في اثرهم.

فكانت تلك حالهم وحاله حتى ايس منهم العدو ورجعوا عنه واصحابه، فمضى يعقوب واصحابه سائرين الى ورجلان.

وبلغنا انه نظر الى الطالع في طريقه، ذلك، فالتفت الى اصحابه وقال لهم، انه «لا يجتمع منكم اثنان الا كان عليهم الطلب. افترقوا، فقد انقضت ايامكم وزال ملككم ولا يعود اليكم الى يوم القيامة».

قال، فافترقوا واقبل هو وعياله واهله الى ورجلان، وذلك على عهد ابي صالح جنون بن يمريان، رحمه الله، فتلقاه ابو صالح في جموع اهل ورجلان، فادخلوه واكرموه واحسنوا القيام به، فطلبوه ان يولوه على انفسهم فامتنع لهم من ذلك، فقال: «لا يستتر الجمل بالغنم» فارسلها مثلا.

ومكث فيهم دهرا، وكانت له بنتان وابنتا اخيه، قد منعهما وحبسهما من التزويج (2) فلما اجتمع اليه مشائخ اهل ورجلان يطلبون اليه ان يزوجهما ولا يدعهما، قال لهم، اني لا ازوج ابنتي الا لرجلين، احدهما من اهل الدين والاخر من اهل الصلاح، فاضع يدي بيد من شئت.

فقالوا له، ضع يدك على من شئت، فقال لهم، فان كان ولا بد، فالذي كان من اهل الصلاح، حموم بن لؤلؤ (3)، والثاني العز بن محمد (4) قال فزوجهما لحمو وللعز، وكانت عند حمو امرأة غير ابنة يعقوب، فلما سمعت بتزوج حمو، خالطها الهم، حتى قضى الله عليها بالموت.

وبلغنا ان بعض اهل ورجلان سال يعقوب بن افلح، فقال له: اتحفظ القرآن كله؟ فقال يعقوب، معاذ الله ان ينزل على موسى وعيسى ما لم احفظه واعرف معناه، فكيف بكتاب انزله الله على نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم.

وكان يعقوب بن افلح مجتهدا في الليل، وكان ذات ليلة في بيت يصلي وخر عليه السقف الا الخشبة التي تقابل رأسه، فكان كما هو حتى اتاه الناس، فحفروا اليه. فوجدوه قائما يصلي وسألوه، فقالوا له: ماذا ظننت؟ فقال لهم، ظننت ان القيامة قد قامت وبورجلان بعض اثارها.

(1) كان يعقوب بن افلح. ابو يوسف. يطمع في الامامة بعد وفاة اخيه. محمد بن افلح ولما بويع ليوسف بن اخيه. كما تقدم. انقطع يعقوب عنه ورحل الى زواعه. وعندما ثار اهل تيهرت على يوسف واخرجوه منها. ارسلوا الى يعقوب. فجاءهم وبايعوه بالامامة في سنة 284هـ. وقد استمر في الامامة اربع سنوات. وكان سلطانه محصورا في تيهرت وضواحيها. ولما خلع. عادت الامامة الى يوسف في سنة 288هـ. وبعد ما اغتيل الاخير. خلفه اخوه. يقظان بن محمد الذي قتل في سنة 296 هـ. وكان اخر الائمة الرستميين. ولما حل العبيديون بتيهرت. رحل عنها يعقوب الى ورجلان. حيث احسن السكان استقباله وعرضوا عليه الامامة. ولكنه رفضها. معتقدا ان سلطان الاباضية ذهب لغير رجعة. وقد ظل في ورجلان حتى توفي سنة 310هـ. راجع عن يعقوب ابن افلح. طبقات الدرجيني (104/2 وما يليها) البيان (197/1) سير الشماخي الذي يكتفي بنقل اقوال ابي زكرياء (ص265-266) الازهار الرياضية الذي يصف يعقوب بـ«العلامة» (266/2 - 271).

(2) كذا في الاصل. وفي النص المترجم:

« il avait deux fils et deux filles, tous quatres de la même mère, mais il ne voulait pas les marier ».

اي: كان له ابنان وابنتان. كلهم من ام واحدة. ولم يرد تزويجهم».

(3) في الترجمة اقتضاب واضطراب في هذه الفقرة.

(4) قارن طبقات الدرجيني (105/1) وسير الشماخي (ص514).



الافتراق الرابع من الاباضية

وحدث غير واحد من اصحابنا ان ابا سليمان بن يعقوب ابن افلح انتحل بعض العلوم ومدارسة الكتب، فحذر ابوه منه جماعة اهل ورجلان، وقال لهم، لا تطمئنوا اليه، فانه درس ديوان احمد بن الحسين.

فلما مات يعقوب بن افلح، اجتمع اليه جموع اهل ورجلان فجهزوه ودفنوه بمقبرة ابي صالح جنون بن يمريان، رضى الله عنه، وقبره في عصرنا هذا لم يندرس، كأنه ربوة.

وكان اهل ورجلان قد اجدوا الضيافة لابي سليمان ابن يعقوب واصحابه (1) والناس يتهمونه على مسائل منها تنجيس الفرث، فارادوا استخراج ذلك وتجربته وصنعوا له طعاما عليه العصب فيها فرث ، فدعوه واصحابه الى الطعام ، وذلك بعد صلاة العصر .

فلما حضر الطعام بين يدي ابي سليمان واصحابه وعليه عصب، اخذ ابو سليمان عصبة واحدة فشمها فأحس فيها الفرث، فرما بها والقاها، وقال: «هذا طعام منجوس».

فقال له اصحاب الطعام، ماذا نفعل بالطعام؟ فقال لهم، احفروا له وافنوه، وقطع عذر من اكله.

فبلغ الشيخ صالح جنون بن يمريان. رضي الله عنه ما فعل. وكان الشيخ صائما، واخبروه بتنجيسه طعاما طبخ فيه الفرث، واخذ ذلك بمسامع اهل ورجلان، وتخوف الشيخ من الفتنة، وارتاب كثير من الناس في ذلك الطعام، وأبى أهله أن يطعموه حتى يأكل منه الشيخ. فلما راهم كذلك، مضى في جماعة من أصحابه الى الدار التي بها الطعام فاستأذن. فأذن له اصحابه، فدخل، فدعى بماء وغسل يديه وقربوا له الطعام، فافطر واكل هو واصحابه، (وقضوا) حاجتهم.

ثم انه كان بين الشيخ وبين ابي سليمان على ذلك مشاجرة ومنازعة عن تلك المسألة، فقال له الشيخ، ان شئت باهلتك.

فقال له ابو سليمان، اجل.

واتفقا ان يبتهلا يوم الجمعة. ثم ان الشيخ اخذ في العبادة والابتهال الى الله ان ينصر احب الفريقين اليه.

فلما كان يوم الجمعة اقترعا بين كريمة وتيسر سرين، فوقعت قرعة الشيخ على تيسر سرين، وتوجه نحوها، وتوجه ابو سليمان الى كريمة، فعمل الشيخ بتيسر سرين مصلى، وهو اليوم معروف، فمكثا بقية يومهما يدعوان الله على المبطل، ثم رجعا فمكث ابو سليمان بعد ذلك. ففضحه الله، وكان من تبعه على اثره حتى اباد الله جملتهم. وقد افتى لهم في

سبع مسائل: اولها الفرث، والثانية تحريم الجنين بعدما ذبحت امه، والثالثة عرق الجنب، والرابعة عرق الحائض والخامسة دماء العروق التي اسبطنت الظهر بعدما ذبحت الشاة، والسادسة صوم يوم الشكر، والسابعة الزكاة للقرابة.

(1) هذه العبارة غير واردة في الترجمة.



اخبار ابي الربيع، سليمان بن زرقون النفوسي، رضى الله عنه

وكان ابو الربيع قادة، وهو من نفوسة تابديوت (1) وبها مولده ومسكنه. ولقد أخبرنا بعض اصحابنا ممن كان في عصرنا، انه ادرك ديوانه وكتبه بقرية تابديوت. وقد بلغ من العلوم ما لم يبلغه كثير ممن في عصره. وكان تعلمه في سجلماسة، هو وابو يزيد، عند ابن الجمع.

وكان ابن الجمع رجلا من اهل الدعوة، اقبل من المشرق تاجرا ينتحل جميع الفرق (2) وكان غزير العلم، فقدم توزر (واقام) بها واذذاك ابو الربيع شاب حدث السن.

وكان ابن الجمع يرسله في حوائجه ويلوذ به. فاختبره في امور كثيرة، فوجده فاهما حاذقا ذكيا. فقال له ابن الجمع يوما من الايام لما رآه من فهمه وحضور ذهنه، اني اراك «فطيد». وشد ابن الجمع الطاء ليوهم عليه انه اراد الفطنه، فاجابه الشيخ ابو الربيع: غير منزلق يا عمي، فتعجب به.

وبلغنا انه قعد معه ذات ليلة، فلما اراد ابن الجمع الرقاد، امر ابا الربيع بتغطيته، فغطاه. فقال ابن الجمع: «الزيت خيرا»، ليوهم عليه انه اراد، جزيت خيرا، ففطن به ابو الربيع، فاجابه، فقال له: «على الخبز، يا عمي»! فعظمت درجته عنده لما رأى من فهمه وعقله.

ثم اراد ابن الجمع المسير الى سجلماسة، فطلبه ان يسير معه ويعلمه ما اراد من العلوم.

قال فسار ابن الجمع وابو الربيع، يريدان سجلماسة، فلما وصلاها، مكث عنده سنين عديدة، ومعه ابو يزيد مخلد بن كيداد.

ولما حضرت الوفاة ابن الجمع، اوصى بكتبه لابي الربيع. فلما مات ابن الجمع، اقبل ابو الربيع الى قسطالية وقد اشتهر اسمه وعلى ذكره، فطفق الناس يسألونه عن فنون العلم. فكل من سأله، اجابه، واضطربت قسطاليه كلها من اجله.

وكان بها رجل مؤدب قبل ذلك لابي الربيع في صغره، قبل ان يتعلم، لم يتماسك ان يقول، انما قرأ عندي، وانا علمته، ويكرر ذلك اينما جاز.

وبلغنا ان اهل سجلماسة اختلفوا بعده في مسألة، فكادوا يقتتلون عليها، فاتفقوا على ان يبعثوا رجلين بحملين الى ابي الربيع اينما كان يستفتيانه، فما افتى به اخذوا به.

فمضى الرسولان وجعل لهما اهل البلد اجلا معلوما، فتوجها حتى ادركاه، فاستفتياه، فافتى لهما بوجه الحق، فكر الرسولان راجعين حتى

وصلا الى سجلماسة فاخبرا بما افتى به، فاصطلحوا بعدما كانوا يقتتلون.

وحدث غير واحد من اصحابنا ان ابا الربيع وابا يزيد مخلد ابن كيداد، خرجا ذات مرة سائرين في بعض حوائجهما، فصادفا بعض اهل الدعوة، فاستضافاهم، فاخافوهما، ولم يحسنوا ضيافتهما، فتلجلج في نفس ابي زيد شيء، وهو السبب الذي اهلكه اول مرة.

ثم انهما مرا بقوم من النكار، فاستضافاهم، فاضافوهما باحسن ضيافة. فقال ابو يزيد لابي الربيع، يا ابا الربيع، الا ترى ما بين الرجال والرجال، فهل لك في الرجوع بنا الى مذهب هؤلاء القوم؟

فقال له ابو الربيع، لست اريد الدنيا. ولو كانت مرادي، اذا لنلتها بعلمي.

قال، فافترقا، فرجع ابو يزيد نكاريا، وثبت ابو الربيع على مذهب الحق.

وبلغنا ان ابا الربيع، توجه يريد افريقية، فوجدها متغيرة راجعة الى مذهب النكار، فلم يزل بهم حتى ردهم الى مذهب الوهبية.

وبلغنا انه دخل خصا فوجد فيها سبعة اسرة منصوبة، وعلى كل سرير شيخ من شيوخ النكار. فقال له شيخ من شيوخهم، ها هنا، يابا الربيع، ففسح له للجلوس، فقصد ابو الربيع نحوه، فاراد الطلوع اليه فوق السرير فلما طلع وكاد يستوي في الجلوس، عثر عليه عثرة ووقع على النكاري ووكزه بمرفقه، فكاد يكسره، فقال له، كسرتك، يا شيخ، واوهم نفسه انه لم يتعمد الوقوع عليه، فجرت بينهما مناظرات فغلبهم ابو الربيع وطردهم من تلك الاحياء قبل ان يتغدو، وقد حضر غداءهم، فاتبع اثرهم في افريقية يطردهم اينما وجدهم ويردهم الى الوهبية، حتى طهّر افريقية من آثار النكار.

وبلغنا انه توجه الى جبل نفوسه، وكان الشيخ ابو القاسم البغطوري يوالي نفاثا قبل احداث ما احدث، ولم تقم البينه عند الشيخ على نفاث، فكانت على ولايته.

فقال ابو الربيع لاهل منزله: شيخكم يوالي نفاثا، وانتم توالون شيخكم، فكلكم نفاثية!

وبلغنا عنه انه سألته عجوز عن براءة النكار، فقال لها، حسبتك يا ام فلان فقيهة في العلم. (...) فقال لها: من لم يصب ما ينفق، فليصبح ويلعنهم، فكانه انفق جراب دراهم. وكان يفتى في مسائل الرخص كثيرا.

وبلغنا عنه (انه) طلب الى عجوز خرقة ليرقع بها جبته، فاعطته

خرقة منجوسة، فقال لها انها نجسه. قال فاخذها وانتزع من اطرافها شيئا ورمى به الى العجوز وقال لها: خوذي نجسك، فأخذ البقية لترقيع جبته.

وبلغنا عنه انه طلب الى عجوز ماء ليشرب، فاعطته كوزا، فقالت، اشرب قليلا. قال. فاخذه وشربه كله. فلما اخذت الكوز منه وقد شرب الماء كله، قالت له: قلت لك اشرب قليلا وشربت كلا.

قال لها ما شربت الا قليلا! قال الله تعالى، قل متاع الدنيا قليل.

وعوتب ذات مرة على فتيا في مسائل الرخص للناس، فقال، بيني وبينهم النسيان.

وبلغنا انه دخل ذات مرة قسطالية، فرأى نساءها متبرجات مكشوفات، فقال، ما اكثر خدم هذا البلد، حملهن على انهن لسن بحرائر.

وبلغنا انه شمر ذات ليلة،فوطىء برجل على شيء رطب، فقال: ما اكثر طعام هذا البلد!

وحدث غير واحد من اصحابنا ان ابا الربيع مر بريصة (3) فوجد فيها اربع فرق من فرق الاباضية متداهنين متساترين، وذلك في ايام ابي الخطاب وسيم بن سنتن، فأمر القضاء والاحكام عند ابي الخطاب. وامر الفتيا الى النكار، والامامة في صلاة رمضان الى الخلفي والاذان الى النفاثي.

فلما قدم عليهم ابو الربيع، وجدهم مجتمعين على ما ذكرنا، وكان فيهم من الوهبيةمن ذكره كذلك. ثم ان ابا الربيع وجدهم في الحلقة فقعد في طرفها . وكان بجانبه رجل فامره ابو الربيع ان يسأل عن سؤال استمسكه له.

وسأل الرجل صاحب الفتيا، وهو النكاري، فلما سمع المسألة، تعجب بالسؤال وتوقف في جوابه وتلعثم.

فقال له ابو الربيع: اجب الرجل سؤاله. فالح السائل في السؤال، وابو الربيع يقول، اجب الرجل سؤاله. فقال له النكاري، اجبه انت! فقال ابو الربيع للسائل، كيف سؤالك؟ فاعاد الرجل السؤال، فاجابه، وزاد فاجابه، فقدموه وجه الحلقة يسألونه، والنكارى متروك لم يسألوه بعد.

وكان في الحلقة من اهل الدعوة من كره تساترهم، وتداهنهم.

فسأل رجل ابا الربيع، فقال له، ما تقول في النكار، يا شيخ؟

فقال: «هم كفار»!

فقال له، ما تقول في الخلفية؟

فقال: «هم كفار»!

فقال له، ما تقول في النفاثية؟

فقال : «هم كفار»!

فلما سمعوا بذلك التفتوا فيما بينهم، فقالوا: تكلموا على المجلس. فتكلموا فافترقوا.

فقام بعض اصحاب ابي الخطاب اليه فاخبروه بما فعل. فقال له كانه عجل على القوم. فقال لهم ابو الخطاب، كلا: انه فصل لكم دينكم على حدة.

وبلغنا ان ابا الخطاب وسيم، عاتبته نفوسه في اربعة اشياء: قالوا له: انك التزمت الامور ليقظان وتغرم اليتامى والارامل بالظلمة، وتستفتي نكاريا، وتقدم في الصلاة خلفيا.

فلما بلغه كتابهم وعتباهم، استعبر وبكى وقال: الحمد لله الذي جعل لي اخوانا يعاتبونني على ما بلغهم عني قبل يوم القيامة.

ثم انه كتب اليهم:

«اما ما ذكرتموه من التزامي من الامور ليقظان، لم التزمها ليقظان، وانما التزمتها احتسابا لله. واما ما ذكرتموه من اموال الايتام والارامل، فان الظلمة اذا قبلت اليهم امرتهم ان يداروا عن انفسهم. واما الاستفتاء في النكار، فلم احكم الا بما عندي. واماتقديميفي الصلاة الخلفي، فاني اذا صليت الفريضة ناديت يا فتح، فيتقدم فيصلي بالناس، ولم امره بالتقدم. والسلام». (4)

وبلغنا ان رجلا من اهل القيروان كان عنده في العلم ان من بنى مسجدا في موضع معروف، يقال له تبازريوت، بقرب بحر جربه انه مسلم عند الله.

قال، فخرج الرجل من القيروان متجهزا لبنيانه. فلما وصل الى ذلك الموضع، وجد ابا الخطاب قد سبقه وبنى مسجده به.

وهو اليوم معروف.

وحدث علي بن يحيى، قال اتى رجل الى ابي الخطاب وهو لم (يكن) يعرفه، فقال له، لي عليك دينار، فاعطينيه. فقال له ابو الخطاب لا اعرفك، فمن اين لك علي دينار؟

فالح عليه الرجل في الطلب، فتأمله ابو الخطاب مليا، فقال، ان خصومتي معك لعار، فانتزع دينارا فاعطاه اياه.

وبلغنا ان ابا الخطاب اتاه رجل من اغنياء بني يهراسن، وكان له اخ فقير صعلوك يقال له تينون، فسأل الشيخ ابا الخطاب ان كان يجوز ان يدفع اليه من زكاة ماله.

فقال له ابو الخطاب، ائتني به، فأتاه به، فاستتابه الشيخ، فقال له: تبت . يا شيخ. فقال لاخيه، ادفع اليه صدقة مالك.

ثم قال الشيخ لتينون، البسناك لباس التقوى، فان تعريت منها فلا

يقتلك الا الجوع، فتغير تينون بعد ذلك، فابتلاه الله بالجوع، وكان ذلك في عقبه من بعده، فاستجاب الله فيه لابي الخطاب.

ولما مات ابو الخطاب، قالت امرأة معافرية من ذرية ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح، رضى الله عنه، وهي تندبه وتبكيه، قالت: لما مات ابو الخطاب مات الحق وبقيتم ها هنا، يا زواغة، ببطون كالاخرجة، وعمائم كالابرقة واحكام متعوجة.

وبلغنا ان ابا الخطاب وابا ايوب بن كلابة الزواغي، خرجا ذات يوم في بعض حوائجهما، فابصرا ليلة القدر، فدعا ابو الخطاب وسأل لامر اخرته، ودعا ابو ايوب ان يرزقه الله دنيا يصيب منها الاخرة.

فقال له ابو الخطاب، ماذا تفعل يا ابا ايوب! كنا في موقف عظيم، فتتعرض للدنيا وذكرها؟

فقال له ابو ايوب، ان لم انل بها الجنة، فلا رزقنيها الله، وكانا جميعا في بريصة.

ثم ان الله تعالى بسط الرزق على ابي ايوب، فاتسعت عليه الدنيا بأوسع ما يكون.

وبلغنا انه اذا جمع عرمة في الاندر ليدرسها بريصة، رآه من بجزيرة جربة، وانه اطلق يده في ماله بالنفقة للوارد والصادر والغائب والحاضر، فانا نرجو ان ينال الاخرة من دنياه، كما سأل.

وبلغنا انه نزلت به رفقة ليمتاروا، ففتح لهم مطمورة، وهو الجب من القمح، فلما بردت انزل ابنه فيها لينظر ما فعلت. فلما دخلها الغلام، قال له ابوه ماذا فعلت المطمورة يا بني؟

فقال الغلام، حسنت يا ابت، الا... فقال له ابوه، وما ذلك، قمحها قمح الجنة!

وبلغنا انه قال لابنه، اخرج، اي بني، فخرج الغلام. فاعط منها لاهل الرفقة لكل واحد منهم ثمني (...) قمح لزادهم، وانفق البقية من المطمورة حتى اتى على آخرها.

وحدث بعض اصحابنا عنه انه جاءته جماعة من مشائخ اهل الجبل في سنة شديدة بالمحل والقحط، وقد تمكن بالناس الجوع والهزال.

فلما نظر اليهم ابو ايوب، وقد دهاهم امر السنة، انزلهم ومكثوا عنده شهرا يذبح لهم في كل ليلة كبشا، وكل يوم كبشا. وكان عدة ما ذبح ستين كبشا، بغير ما انفق عليهم من الطعام.

ثم انهم سمعوا برخص الطعام في جزيرة جربه، فارادوا ان يرسلوا ما معهم ليمتاروا منها، فارسلوا الى ابي ايوب ابا مسور يسجا بن يوجين،

رضى الله عنه، ليخبر ابا ايوب مرادهم.

فلما وصل ابو مسور الى ابي ايوب اخبره بمراد الشيوخ. فقال له ابو ايوب، وجد مكتوبا على حجر في طرف البحر ثلاث كلمات: الاولى، «لا يركب البحر الا ذو خطر او جاهل مغرور» والثانية : «مالي، مالي، ما دام في كمي! فاذا خرج من كمّي صرت مدعيا» والثالثة : «من يعطي ماله على القراض يعتريه منه البرسام».

فرجع ابو مسور الى المشائخ فاخبرهم بما قال ابو ايوب وكان ابو مسور اذذاك شابا حدث السن.

فلما جاء الشيخ استفهموه واستخبروه ثانية، فقالوا له، كيف قلت لابي مسور؟ فقال لهم ابو ايوب، الامر ما قال لكم ابو مسور. فانه اخذ تشقيق الكلام من بني سلاوة، وهم اخوال ابي مسور. ثم ان ابا ايوب اطلق بغال المشائخ في الاندر تأكل كما ارادت. فقال بعضهم، عجبا للشيخ ابي ايوب، كيف يصنع بزكاة ماله. فلما كان وقت اخراج الزكاة، اخذ في الكيل، فصار يكتال ويخرج العاشرة والتاسعة والثامنة والسابعة والسادسة، ثم يرجع فيخرج العاشرة والتاسعة والثامنة والسابعة والسادسة، وكذلك حتى يفرغ زرعه. فتعجبوا (منه).

ثم انهم امتار لهم من عشوره، وكان في تلك الجماعة رجل يسمى ابا يعقوب الدمري، ومعه ابن له فقال لهم اجعلوا للصبي حظه.

فقالوا له ان كان متوليا لك نجعل له سهمه، فقال لهم دعوني ابيت معه الليلة، فلما اصبح، قال لهم، اعطوه، فاني قدتوليته الليلة، فاعطوا له سهما(4).

وبلغنا انه خرج ذات مرة في عدة من اصحابه، يريدون زيارة نفوسة، الجبل. فبينما هم يسيرون اذ نظروا الى رفقة اقبلت اليهم، فظنوا انها عسكر العدو، فنزلوا عن بغالهم وهربوا الى الجبل، فباتوا فيه.

فلما جنهم الليل، قال لهم ابو ايوب، حين ايقن انه يبقى بلا عشاء، ان عندي الف قفيز من طعام بالقروي والجربي، وعندي ما يلوثه من الزيت او ما يؤكل بها، وانا ابيت بلا عشاء، وخير ما يدخر المرء التقوى.

ثم ان اهل الرفقة جازوا على بغال الشيوخ، فعقلوها واخذوها ومضوا بها.

(1) كذا في الاصل. وفي النص المترجم: Tadiout

(2) من علماء المشرق وتجارها الاغنياء. نزل توزر وبقى فيها مدة من الزمن. وهناك التقى به الطالب ابن زرقون فلزمه. راجع الاباضية في مركب التاريخ (162/1 هامش 3).

(3) كذا في الاصل. اورده صاحب الترجمة في الهامش برسم: بريضة وقال انه ربما يعني روضه (ص 275 هامش 1).

(4) هذه الفقرة غير واردة في الترجمة.

الافتراق الخامس من الاباضية - خبر الشكاس وانتحال مذهبه.

ذكر عدة من اصحابنا ان الشكاس كان يكنى أبد الله، وكان ابوه رجلا صالحا.

وبلغنا ان اباه توجه الى الحج، قبل مولد ابنه، ابد الله، فلما كان في سفره، رأى، فيما يرى النائم انه قد ولد عنده شيطان.

فلما رجع الى اهله، وكان مسكنه بقنطرارة، وجد ولدا ولد عنده، فسماه أبد الله. فنشأ الغلام، فلما احتمل الادب، ادخله ابوه في الكتاب، فقرأ وحفظ فلما اشتد وبلغ الحلم، سوّلت له نفسه طلب العلوم.

فلما بلغ منها منيته، دعته نفسه وسوّلت له مسائل خالف فيهن اهل العدل، وهي سبع مسائل:

الواحدة منهن، ابطال سنة رسوّل الله، صلى الله عليه وسلم، وابطال رأي المسلمين، وان الله اغنى بكتابه اهل العقول عن غيره، فليس من رأي ولا سنة.

والثانية، ان الصلاة بالجماعة بدعة. والثالثة ان الاذان بدعة. فاذا سمع هو واصحابه اذان الصلاة، قالوا: نهيق الحمير!

والرابعة ان الصلاة عنده لا تجوز بشيء من القرآن، الا بما عرف معناه وتفسيره.

والخامسة ان الاجنة نجسة بما يعتريها من سماد بني ادم.

والسادسة ان الصلاة لا تجوز بثوب فيه قمل . والسابعة ان الاندر اذا بالت فيها الدواب ، لا يطهر القمح الذي تدرسه الا بالغسل .

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، عن ابي يعقوب، يوسف بن نفاث، رضى الله عنه، قال ادركنا بقية اصحاب ابد الله الشكاس، اذا قرب وقت الصلاة، خرجوا متخبين عن الناس فذهبوا لانفسهم، فصاروا يصلون فرادى.

وبهذا الاسناد اخبرنا ، قال، ادركنا جماعة من المشائخ بقسطالية يصلون على موتى اهل القبلة، كلهم، الا اصحاب الشكاس. فاذا مات منهم احد جعلوا في رجله مرابط فيجرونه الى موضع يوارونه فيه.

وحكى ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه عن ابي يعقوب، يوسف بن نفاث (1)، عن ابي الربيع سليمان، من اهل تميجار انه قال. ان من العلماء من يقول انهم مشركون، ومنهم من يقول انهم منافقون. يعني الشكاس. وكان مذهب الشكاس لم يجاوز قسطالية، بل لم يجاوز قنطرارة، ولم تكن لهم بقية حتى فنوا عن اخرهم.

(1) راجع اخباره في سير الشماخي (ص466-467).



اخبار ابي القاسم يزيد بن مخلد وابي خزر يغلي بن زلتاف (1) الوسيانيان، ايدهما الله.

كان ابو القاسم وابو خزر الوسيانيان، وابو القاسم اسن من ابي خزر، وكان مسكنهما بالحامة. وكان الذي تعلما عنده الاصول واخذاها (هو) حسنون (2) بن ايوب. واما غير ذلك من مسائل الاعراب واللغة، وفنون العلم، فعن ابي الربيع، سليمان بن زرقون النفوسي،

وكان ابو القاسم ذا مال كثير، واما ابو خزر، فلم يكن كذلك، وانما كانت معيشته من كسب يده. وكانا في اول ابتدائهما يقرآن كتابا واحدا. فاذا قام ابو خزر الى اصلاح معيشته، قرأ ابو خزر واشتغل في قراءة كتابه ودراسته.

فاذا ارجع ابو خزر من طلب معاشه، قال لابي القاسم: ارجع الى حيث قمت عنك. فيقول له ابو القاسم، نعم، لي مرتان ولك مرة، فيرجع ابو القاسم، فيعيد ما قرأ بعده.

وكانت تلك حالهما حتى بلغا من العلم مبلغا عظيما فعقدا الحلقة ويأتيهما من اهل الدعوة من كانت له رغبة في العلم والادب وسير الصالحين، ويتعلمون عندهما حتى اشتهر امرهما وعلى ذكرهما.

وكان ابو القاسم يطعمهم وينفق عليهم من ماله، وأبوه مخلد اذ ذاك حي. فقال بعض الحاضرين لابيه، مخلد، ان ابنك هذا مجنون، يعلمهم ويطعمهم. وتزوج ابو القاسم امرأة يقال لها الغاية.

وبلغنا عن ابي القاسم انه سأل عن رجل من التلامذة، فقيل له تزوج. فقال ليبلغني موت واحد من التلامذه احب الي من تزوجه، فقالت له زوجته ، الغاية فلم تزوجت انت اذا ؟ فقال لها لو علمت اين كانت مسألة ليست عندي ، لشددت رحلي الى سجلماسة ، وما اخاف ان يعذبني الله الا على الجهل .

وبلغنا عن زوجته الغاية انها سمعت من قرأ القرآن قراءة السر في الصلاة بتكييف ولم يحرك شفتيه انه يعيد صلاته. فلما جنها الليل، اقبلت على الصلاة تحتاط لصلوات سنة في ليلة واحدة. وكانت عادتها قبل ذلك الصلاة بالتكييف.

وبلغنا ان ابا القاسم وابا خزر ومن معهما من التلامذة كانوا ببعض احياء البربر، فقصد اليهم رجل من النكار، فاظهر الرجوع عن مذهبه الى اهل الدعوة، فمكث عندهم دهرا طويلا يتعلم ويتكيف من الشيوخ غرة واظهر على نفسه حالة حسنة، وانما اراد من يغدر به من المشايخ.

ثم ان ابا القاسم انتبه ذات مرة من القائلة فقام منتحيا عن الحي

ليتهيأ للصلاة، وقد اخذ كل واحد من التلامذة في جهته يشتغلون في وظائف الصلاة. فنظر الرجل النكاري الى ابي القاسم منفردا عن الناس مبتعدا عن الحي، ولم يكن معه احد، فنظر الى رماح التلامذة مركوزة بجانب خصٍّ فتيمهما واخذ منها رمحا ولم يشعر به الشيخ فتبعه.

فلما بعد الشيخ عن الحي، قصد نحوه فطعنه من خلفه. فاخذ الرمح على جانب الشيخ وخرج الرمح من ثيابه امامه، وكان الشيخ لابسا محشوة. فاخطأ الرمح جسد الشيخ فصادف محشوته بحمد الله. فقامت على الرجل الصيحة، فابتدره الناس من كل جانب فاخذوه. فصاروا يجرونه ويسحبونه الى المشائخ ولم يريدوا ان يحدثوا فيه حدثا الا عن رأى المشائخ. فقال لهم رجل امهلوني حتى اسأل المشائخ.

قال، فتوجه نحوهم يريدهم، فلما كان ببعض الطريق ، تربص قليلا مقدار ما يصل فيه الى المشائخ، فرجع اليهم، فقال لهم: يقول لكم المشائخ، اقتلوه، ولم ير شيخا، فقتلوه.

وبلغنا ان رجلا من نفوسة نظر الى ابي القاسم راكبا على دابة عليها سرج محلاة بالذهب بزينة حسنة، فقال له، يا شيخ، ليس هذا من سيرة اهل الدعوة وافعالهم، فبكى ابو القاسم، رحمه الله، فاتى النفوسي الى الجبل واخبرهم، وقال لهم: لقد كلمت ابا القاسم ووعظته حتى بكى، فقالوا: بجهلك كان يبكي!

وكان لابي القاسم عشرون جملا وخلاخل يسافر بهم الى القيروان، وكان بها مشهورا، عظيم المنزلة، معروفا بالعلم والادب والورع.

وبلغنا انه اذا دخل مدينة القيروان، اضطربت المدينة كلها. من اجله بفنون العلم والسؤالات والمعضلات يدخرونها ليسألوه عنها، من المخالفين، او ممن اراد تعلم مذهبه، فعظمت درجته فيها.

وروى عن الشيخ ابي نوح، سعيد بن زنغيل، رضى الله عنه، ان ابا القاسم، رحمة الله عليه، جاز برجل من الوراقين بمدينة القيروان، يقال له ابو ابراهيم المشبه، فمر به، وهو يكتب تشبه الله بخلقه، فتعجب به ابو القاسم، فجرى بينهما كلام كثير حتى قال له المشبه: اذ زعمت ان الله ليس بجسم ولا عرض ولا صورة، فاخبرني عمن اراد ان يبطل ربه، كيف يقول؟

فقال له ابو القاسم، رضى الله عنه: فليقل مثلما تقول!

فانقطع الكلام بينهما.

«وبلغنا ان رجلا من اهل القيروان، سأل ابا القاسم عن بيت من الشعر فيه لغز، كيف تنشد هذا البيت:

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة   ولداته اذذاك في تسعال

بفتح اللام في انشاده من ولداته.

فقال له ابو القاسم: نصبه (3) ينزله. انما هو بكسر اللام. فقال القروي لاصحابه، ان ابا القاسم لعالم كبير، فمن انشد بفتح، فهو ذم، لانه اراد السدوات (؟) ومن كسر، اراد الاتراب والاقران.

وكان ابو القاسم لما بلغ من العلم عظيم الدرجة رفيع الرتبة عند سلاطين القيروان». (4)

وبلغنا ان ابا تميم (5) بعث الى الحامة جيشا، وكان من عادته اذا سخط على قرية ، او مدينة ان يبعث مع جنده راية حمراء، فهي امارة السخط على تلك القرية اوالمدينة. وله ايضا، راية بيضاء، فهي امارة لرضاه بعد السخط.

فسمع ابو القاسم، رحمة الله عليه ان ابا تميم بعث الى الحامة جندا فيهم الراية الحمراء، وهو عالم بخبر الرايتين، فخرج مبادرا الى القيروان، حتى وصل الى ابي تميم.

فلما دخل عليه، سأله ابو تميم عن حاجته، فاخبره ابو القاسم عن حاجته واستعفاه عن الحامة، فعفا عنها، فاعطى له ابو تميم الراية البيضاء، فاسرع بها ابو القاسم السير، كي لا يسبقه العسكر الى الحامة، فوافى ابو القاسم العسكر، كما وصل اليها.

فلما رأى العسكر الراية البيضاء، تنحو عن الحامة فتركوها.

وكانت منزلة ابي القاسم عظيمة، وابو تميم هو القائل فيه: «يزيد بن مخلد، لم تلد العرب مثله».

وذكر ابو خزر، فقال: «يغلي عالم ورع». وذكر ابا نوح، سعيد بن زنغيل (6) فقال: «سعيد فقي مجادل».

وبلغنا ان ابا القاسم، رضى الله عنه، دخل ذات مرة على ابي تميم فطلبه ان يريه سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذا الفقار، فامكنه منه واراه اياه.

فلما اخذه ابو القاسم، رضى الله عنه، وهزه بين يديه، رعد ابو تميم منه، ثم قال ابو تميم، بعد ما رد له السيف لبعض وزرائه: لم امن على نفسي حين امكنت ابا القاسم من السيف، حتى دخل يدي، فتخوف من جهة ابي القاسم كثيرا، وطعن في ابي القاسم، رضى الله عنه ، بعض وزرائه واكثروا فيه الطعن.

"وذكر ابو الربيع، سليمان بن يخلف رضى الله عنه (7) ان ابا القاسم رضى الله عنه، تحدث مع يهودي فجرى بينهما كلام في امر ابي تميم،

فقال له ابو القاسم، رضى الله عنه، ليس بيننا وبينه الا يسير، فنقوم عليه ونخرجه من تلك المدينة، ان شاء الله - يعني مدينة القيروان.

فلما افترقا، قام اليهودي مبادرا، فبلغ قوله لابي تميم. وبلغ المشائخ ما قاله ابو القاسم لليهودي، فاتوه وعاتبوه على ذلك ولاموه، وقالوا له: لو كنت على ذلك، فمثلك لا يفشى سره، ولا يهتك ستره، احسن الله عزاءنا فيك!

وكان ابو القاسم، رضى الله عنه وجماعة المشائخ، يخرجون اوان الربيع الى طعائن مزاته، وكانت لهم بها قوة عظيمة، وعدتهم اثنا عشر الف فارس، واما الرجال، فلا يعدون.

وكثر الطعن في ابي القاسم، رضى الله عنه، عند ابي تميم ويذكر عنه انه يريد الخروج عنه والقيام عليه.

ثم ان ابا تميم بعث الى عامله بالحامة، يأمره بقتل ابي القاسم، رضى الله عنه ويبعث اليه برأسه، فتلكأ عنه العامل ، ولم يرد قتله، لمكانته عند وعظم شأنه لديه وكان له صاحبا عظيما، فاشار العامل لابي القاسم، رضى الله عنه، بالمسير الى الحج.

فقال له ابو القاسم: قد حججت بعد. فقال له العامل: انتم الوهبية (8) تحتسبون اعادة الحج وتأثرونه لكثرة فضله .

فقال له ابو القاسم: ليس لله علي ان احج مرتين.

فاستبطأ ابو تميم عامله، فأرسل اليه كتابا ثانيا يأمره فيه بقتل ابي القاسم.

قال، فاشار العامل الى ابي القاسم بالخروج الى ورجلان. فقال له ابو القاسم: لست اخرج من الدنيا وانا حي - يريد بالدنيا قسطاليه (9)

قال فاستبطأ ابو تميم انفاذ امره من عامله، فكتب اليه كتابا ثالثا يأمره فيه بقتل ابي القاسم، ويقول له: اما رأس ابي القاسم، واما رأسك!

فلما رأىالعامل عزمه على ذلك وجده عليه، أيقن انه ان لم ينفذ امره، فهو هالك.

ثم ان العامل ارسل الى ابي القاسم، فلما وصلت رسل العامل اليه، ركب دابته وتوجه نحوه. فلما دخل اليه قعد عنده، فدفع اليه الكتاب الاول الذي وجهه اليه ابو تميم و (الكتاب) الثاني والثالث.

فلما قرأ ابو القاسم الكتاب، قال له العامل: هذا الذي اقوله لك، ولست أؤثر عليك الا نفسي.

فلما سمع ذلك منه ابو القاسم، علم ان لا بد من الموت، فقال له: امهلني اركع ركعتين. قال فتركه حتى ركع وفرع منها، نظر الى البيت، فاذا هو مملوء بالرجال، عليهم السلاح، فبادروا اليه ووثبوا عليه، رحمه

الله، ولم يحتمل العامل ان يراه كذلك لما بينهما من الخلة والصداقة، طلع الى غرف فوق البيت، فاغلق على نفسه الباب.

و(كان) في عضد ابي القاسم رضي الله عنه، سكين، فسله فدافعهم به. فاذا دفعهم تفرقوا عنه، فتح العامل باب الغرفة وسره ذلك، فاذا اجتمعوا عليه، اغلق على نفسه الباب، كراهة ان يراه كذلك.

فكان كذلك حالهم وحاله حتى ظفروا به وقتلوه ومات شهيدا ومضى فقيدا، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته.

فلما قتلوه وغيبوه، ابتدروا أبا محمد ويسلان (10) فأخذوه وقالوا له: انت صاحب ابي القاسم، فحبسوه.

فقال لهم ابو محمد حين اخذوه! اين صاحبته؟ في المدارج او (في) عريسا؟ وهما موضعان يقعدفيهما السلابة لقطع الطرق

وكان ابو محمد شيخا فضلا قارئا للقرآن جهير الصوت. فلما انتهوا به الى الحبس، تفرغ الى قراءة القرآن، فاشتكى به اهل السجن انه يسهرهم بقراءته ويؤذيهم، فاخرجوه من السجن.

وسئل بعد ذلك عن السجن، فقال: يصلح لقراءة القرآن!

(1) نقل الدرجيني في الطبقات (119/1 وما يليها) والشماخي في السير (ص346 وما يليها) ترجمة ابي زكرياء للشيخين دون ان يضيف احدهما شيئا يذكر اليها. وفي مقابل ذلك تشتمل ترجمة ابي الربيع الوسياني على اضافات مهمة ولا سيما فيما يتصل بالفتوى والشؤون الفهية المخطوطة المحققة (ورقة 44 وما يليها).

(2) كذا في الاصل وفي النص المترجم. وفي طبقات الدرجيني: سحنون.

(3) في الاصل: رفعه.

(4) هذه الفقرة غير واردة في الترجمة.

(5) هو الخليفة معد المعز لدين الله بن اسماعيل بن القائم بن المهدي الفاطمي. ابو تميم ولد في المهدية سنة 319 هـ . وبويع له بالخلافة بعد وفاة ابيه في سنة 841 هـ . وهو الذي وجه جيشا بقيادة جوهر الصقلي من كتامة الى المغرب في المرحلة الاولى وفتحه حتى سجلماسة (فيما عداسبتة) ثم الى مصر . في المرحلة الثانية وطوح بعرش الاخشيدي واحتلها وبنى القاهرة (سنة 359 ـ 361 هـ) وشيد جامع الازهر قبل ان يستولي على سورية وتقام له الدعوة بالحجاز . وقد غادر المعز الفاطمي افريقية التي استخلف عليها بلكين بن زيري في سنة 361 هـ . ودخل القاهرة في 5 رمضان سنة 361 هـ . راجع سيرته في وفيات الاعيان (4 / 224 ـ 228) الكامل (8 / 165 ـ 220) البيان (2 / 221) هدية العارفين (2 / 465) اعمال الاعلام (ص 24) رسالة افتتاح الدعوة (279 ـ 282) العبر (4 / 46) اتعاظ الحنفاء (ص 134) . وفي سياق ابي القاسم وما جرى له مع ابي تميم . راجع ايضا سير الشماخي (ص 348 وما يليها) .

(6) راجع اخبار ابي نوح. سعيد بن زنغيل في سير الشماخي في سياق الحديث عن ابي القاسم (ص349 وما يليها. وكذلك في صفحة 349 وما يليها). وقد ترجم له الدرجيني الذي يصنفه بين علماء الطبقة الثامنة (سنة 350 ـ 400هـ.) واورد كثيرا من اخباره ووصفه بأنه «انجب من طالع

ودرس، واحد من احيا ما كان عفى ودرس. جبلته طلب الصلاحية والعلم. الخ». راجع الطبقات (353/2ـ361). وكذلك تعرض ابو الربيع الوسياني لذكر اخبار ابي نوح بن زنغيل في «سير مشائخ المغرب(النخسة الخطية المحققة (14/2ـ15) وفي الصفحات التالية سيورد ابو زكرياء كثيرا من القصص التي نقل معظمها عنه الدرجيني والشماخي.

(7) هذه الفقرة غير واردة في الترجمة.

(8) هم اتباع عبد الله بن وهب الراسبي الازدي من الخوارج: عرف بعلمه وفصاحته وسداد رأيه. وهي الخصائص التي اهلته لان يكون اول من طبقت عليه نظرية الخوارج القائلة بأن الخليفة ليس من الضروري ان يكون قرشيا. وذلك حين بايعوه وسموه «أمير المؤمنين». وكان عبد الله قد شهد فتوح العراق مع سعد بن ابي وقاص. وكان في صف علي في حروبه. حتى وقعت قضية التحكيم الذي ينكره عليه الخوارج. وفي مقدمتهم عبد الله بن وهب وتحولوا على علي وقاتلوه في معارك مشهورة في تاريخ الاباضية في النهروان. حيث قتل عبد الله بن وهب الراسبي. في سنة 38هـ. راجع الكامل للمبرد (119/2) طبقات الدرجيني (201/2ـ218) وانظر فجر الاسلام (ص256ـ260).

(9) وصف ابن حوقل قسطيلية بالعبارات التالية: «وقسطيلية مدينة كبيرة عليها سور حصين ولها نخيل كثير. والتمر والقسب بها كثير. وهي مغوثة افريقية بتمورها. وفيها الاترج الكثير الحسن الطيب الزكي». وهذا الوصف اقتبسه الادريسي الذي يضيف بعض المعلومات. ولكن ياقوت يقتصر على ايراد بعض عبارات ابن حوقل ويشير الى وصف البكري الهام لبلاد قسطيلية. راجع ابن حوقل (ص92) البكري (ص48) معجم البلدان (348/5) الادريسي (ص104). وانظر كذلك تفاصيل ومراجع اخرى في كتابنا. المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي.

(10) ترجم له ابو الربيع الوسياني في سيره (المخطوطة المحققة ـ ص 8) باسم ابن محمد ويسلان بن يعقوب. وبهذا الاسم ايضا. ذكره الدرجيني في الطبقات (126/1ـ127). ولكن الوسياني يتحدث في مكان اخر عن ابي محمد ويسلان بن ابي صالح (ورقة 54) وذلك في الوقت الذي يترجم له فيه الشماخي في سيره بابن محمد ويسلان بن ابي بكر. راجع السير (ص 375) فهل تنطبق هذه الكنيات المتعددة على شخص واحد؟ المؤكد هو ان بعض العناصر التي تحتوي عليها ترجمة الوسياني تتفق مع بعض الاخبار التي يوردها ابو زكرياء والتي تشتمل عليها ترجمة الشماخي. وهو عامل يوحي الى النفس ببعض الثقة في هذا التعرف» .

خبر وقعة باغاي وكيف كان خبرها ومنتهى امرها

وحدث بعض اصحابنا ان ابا القاسم لما قتل، رضى الله عنه، بلغ في اهل الدعوة مقتله مبلغا عظيما ولم يجدوا في انفسهم ان يصبروا عن حقه وعن طلب دمه.

وعزم رأي الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه على القيام بثأره والطلب بحقه من الائمة المسودة - هو ومن معه (من المشائخ)، ولكن لم يريدوا ان يحدثوا حدثًا الا عن مشورة اهل الدعوة واستمدادهم.

فأرسلوا الى ناحية طرابلس ابانوح، سعيد بن زنغيل، رضى الله عنه، فتوجه ابو نوح الى جبل نفوسة. وكان شيخهم ومن يرجع اليه امرهم، ابا عبد الله بن ابي عمرو بن ابي منصور الياس النفوسي، رحمة الله عليه.

فجمعهم ابو نوح واستشارهم، فقالوا له: نحن في الضعف الذي تقدم ذكره ، وهو الناجم عن وقعة مانو ، ولكن كونوا على هيئتكم ، فنحن معا ونؤكد بما قدرنا عليه .

فرجع ابو نوح الى جربه، فاستشارهم، وكان مراد العامة منهم طلب الثأر للشيخ، الا ما كان من ابي صالح اليهراسني، رضى الله عنه، فانه كره ذلك، وقال لابي نوح، لا تهيجوا لانفسكم اهل الخلاف، فانهم اكثر منكم عددا ومددا واقوى بدا.

ولكن العامة (كانت تميل الى الثأر) على ما رأى الشيخ ابو خزر ومن معه من المشائخ. ورفع ابو نوح الى المشائخ (ما سمعه) واخبرهم بما كان عند اهل طرابلس .

فاتفق رأى الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه، ومن معه على ان يكاتبوا بني امية في شأن ابي تميم، فامروا ابا نوح ان يكتب اليهم كتابا، فكتبه، فأرسلوه الى بني امية، فاخذ الكتاب في الطريق، فانتهى الى ابي تميم، فوقف عليه، فقرأه وفهمه، فزاده ذلك حنقا.

وكان ابو محمد ويسلان ممن ذكر قيامهم وخروجهم على ابي تميم، وكان يقول لاصحابه، ليس لكم ما تقومون به في مزاته.

ونظر ذات مرة الى ابي نوح، وقد اكثر النجوى في امر القيام على ابي تميم، فقال ابو محمد، سأعلم من اين يخرج نجواك، يا ابا نوح.

ثم ان ابا تميم حين سمع بخروجهم عليه والتهيء لذلك، ارسل الى المشائخ وقال لهم، ارجعوا الى بلادكم التي وليتموها قبل هذا (العهد) في تاهرت وغيرها، فتكونوا على ما كان عليه اوائلكم ونكون على ما كان عليه اوائلنا، وكان مراد الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه، ان يفعلوا ذلك ولكن العامة ابت الا مناصبة ابي تميم وقتاله والطلب لثأر الشيخ.

ثم ان ابا خزر ارسل الى ناحية الزاب (1) واريغ ووارجلان ابا محمد يستفزهم ويستحشدهم.

وذكر يعقوب بن ابي اسحاق، ان رسل ابي خزر، رضى الله عنه، وصلت الى وارجلان ليستفزوهم، فاخذوا في التهيء للخروج. وخرجوا في السلاح الشائك.

ثم ان ابا خزر، رضى الله عنه، اجتمعت عليه جموع (من) مزاته تعد باثني عشر الف فارس، واما الرجال، فلا يعدون. وكان رجاء ابي خزر، رضى الله عنه، ان ينال حاجته ببعض مزاته، فضلا عن غيرهم.

وحدث ابو عمرو، ميمون، بن حمودي، رضى الله عنه، قال ادركت الواح التلامذة الذين خرجوا الى باغاي (2) بمسجد المنية، وكانت جماعة التلامذة الذين يتعلمون العلم ويتعلمون الفراسة، بفحص مسجد ابي خزر، رضى الله عنه. ثم ان الشيخ ابا خزر، رضى الله عنه، عقدوا له الولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ، رضى الله عنه، فان ادركوا حاجتهم عقدوا له ولاية الظهور، فزحف الشخ ابو خزر، رضى الله عنه، ولم ينتظر امدادهم.

فلما وصلت عساكره الى باغاي، حاصر اهلها باشد الحصار، ثم اضطرهم الى القصر القديم.

فلما اشتد عليهم الحصار، رجعوا الى الاموال، فصاروا ينتهبون (ما في القصر القديم ويوزعونها) في العسكر فيرشون بها من يطمعون فيه نفعهم.

وبلغنا ان اهل باغاي جاعلوا ناسا من مزاته يقال لهم بنويليان على ان يجعلوا في انفسهم الهزيمة، فكان بينهم وبين بدنة (3) ضغائن ودحول وثارات.

فلما التحم القتال، تنحت بنو يليان وانحازوا الى ناحية والقوا في مسامع العسكر ان بني بدنه تخلفت لهم (لتستولي على) اموالهم وانعامهم ومواشيهم واحيائهم، وجعلوا في انفسهم الهزيمة، وانهزم العسكر.

وكان الشيخ ابو خزر والشيخ ابو نوح وجماعة التلامذة، في ساقة العسكر (ووقع عبء) القتال عليهم، وكان ابو نوح على فرس ادهم فاضطروه الى الخندق والجؤوه اليه، فرمى بفرسه في الخندق وعاد فيهم حتى نفس على كثير من العسكر الهزيمة.

وبلغنا ان شيخا منهم من بني عبود يقال له عبود من بني كريز، وعليه الحلقة، ركب فرسا له وقد قال له بعض تلاميذه قبل ذلك، يا شيخ، انك على فرس، ونحن نخاف، اذا كان شيء مما نكره ان تتنحى عنا وتمضي بفرسك وتفرّعنا، فانت راكب ونحن رجالة.

قال لهم عبود، لا افر عنكم، ان شاء الله. فلما انهزم الناس.كشر عبود

(4) وشكل فرسه للقوم ليفي لتلاميذه بوعده وكثر معه تلاميذه، فما برجوا حتى استشهد واستشهدوا معه.

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه عن ابي زكرياء بن ابي زكرياء (5) رضى الله عنهما، انه قال: مات في تلك الوقعة من التلاميذ عشرات: لم يفقههم ابو نوح سعيد بن زنغيل الا بعلم اللغة، فافترق العسكر وكان الطلب على الشيخ (ابي خزر؟).

وحدث يحيى بن ابي يحيى عن ابي عبد الله، محمد ابن الخير، رضى الله عنه، عن ابي وانودين ان ابا محمد جمالا، لما استنفر اهل الزاب واريغ وورجلان، خرجوا في جموع عظيمة، فخرج خزرون بن فلفول، فلما وصل خزرون ومن معه الى الموضع الذي يقال له افودان تطلا (6) وكان بينه وبين باغاي (7) (مسافة قصيرة)، فيما قيل، والله اعلم، سمع بخبر الهزيمة فرجع، وان ابا محمد توجه بعسكره الى الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه، فتلقا كتاب الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه ببعض الطريق، فدفعه له رجل، ففكه وقرأه، ووجد فيه خبر الهزيمة، ففاضت عيناه دموعا، فامر الناس ان يرجعوا الى منازلهم ومواطنهم، واخبرهم خبر الشيخ ابي خزرون، رضى الله عنه.

وبلغنا ان ابا خزر قال، عقيب الهزيمة: كنا عجلنا بالتلامذة فاستهلكناهم.

وبلغنا انه رأى ثلاثة رجال رؤيا في ليلة واحدة ان يسموا هذه الوقعة، وقعة الشهداء.

ثم ان ابا خزر رضى الله عنه، لما انهزم العسكر ، تنحى وهرب الى جبل يقال له تلتماجرت (8) ومعه رجل يقال له ابو محمد يوجين، فاستخفى الشيخ، رضي الله عنه، اربعين صباحا حتى انقطع عنه الخبر وعيا عنه الاثر، وليس له طعام الا الوبر يصطاده ابو محمد.

ثم توجه نحو جبل نفوسه. واما ابو نوح، رضى الله عنه، فتخنس ولبس عباءة وصار يرعى ابلا.

فلما بلغ امر الهزيمة ابا تميم، خرج بعسكره مجدا في طلب الشيوخ من القيروان، وفرق رسله في البلاد تفتش وراء الشيوخ حتى صادفت رسله ابا نوح يرعى ابلا لابسا عباءة متنكرا في زي راع.

فلما نظروا اليه عرفوه، فقالوا له: ليس مثلك يرعى الابل، فقيدوه في الحديد، ومضوا به الى ابي تميم في قيده، فتلقوه في بعض الطريق، فالبسوه لباس الزنار وخلعوا عليه الخلق والاطمار، وحملوه على جمل، وكانوا يطوفون به في كل (مكان) مروا به وينادون به عليه: «هذا الذي سعى في فساد دين الله، سعى فيه زمانا، ونحن عقود. سعى فيه بجبل

نفوسه واستمد الامداد ووعد بالاصفاد».

ثم يقول المنادي، بعد ذلك: «وهذا كله، فيما قال ابن ورمجوج».

وكان حسن بن ورمجوج رجلا نفوسيا، من نفوسة قنطراره.

وكانت ام ابي نوح رضى الله عنه، قد تتبعته حين يطوفون به. فاذا نظروا اليها اعجبتهم ويقولون: لا يلد السبع الا اللبوة. فلما كان اخر النهار، نزل اهل العسكر فانزلوه عن الجمل ووكلوا عليه صاحب السجن.

قال ، قال ابو نوح، فلما نزلت، وقد قرب غياب الشمس ابتدرت فتيممت لاصلي، قبل ان يقتلوني، فنظر الي السجان، وقال لي: يا سعيد، ادخل الخباء واسترح وازل البرد عن نفسك، فعند ذلك تصلي.

قال ابو نوح، فلما قال لي ذلك اطمأنت نفسي ورجوت الحياة.

قال ابو نوح، وكان يأتيني رجل منهم فيقول: تركت رجال مولانا يتحدثون فيك ويأكلون لحمك مضغة مضغة.

قال ابو نوح، فاقول، مولاي خير (كذا)، فيبلغ ذلك ابا تميم عني، فيعطفه علي. فلما عفا عني ابو تميم وقربني، وكان الرجل يأتيني ويقول، يا حبيبي، يا حبيبي، فقلت له يوما من الايام، فهل ترى حبيبا يأكل لحم حبيبه مضغة مضغة ؟

فقال لي، نحن رجال مولانا، فمن احبه احببناه، ومن كرهه كرهناه.

قال ابو نوح، ثم ان ابا تميم جمع اصحابه وتأملوا الكتاب الذي كتبته الى بني امية في شأنهم، وقد ذكر لهم اني كاتب الشيخ ابي خزر،رضى الله عنه، ومولى سره، فأرادوا استخراج خطي ليقيسوه الى الكتاب المبعوث الى بني اميه.

فقال لهم يهودي، انا استخرج لكم خطه.

قال ابو نوح، فبينما انا في ايديهم اذ اتاني يهودي ببطاقة ومحبره وقلم، فقال لي، اكتب الى مولانا واطلبه ان يعفو عنك واعتذر على نفسك واحتج لها، فان مولانا كثير العفو. فوضع البطاقة وكل ما معه وجلس ساعة ، ثم خرج . فاخذت البطاقة والقلم وكتبت «بسم الله الرحمن الرحيم»، سطرا واحدا في اولها، فالهمنى الله، وذكرني امر البطاقة التي كتبت الى بني امية، فخفت أن يكونوا اخذوها وارادوا استخراج خطي، قال، فقصصت ذلك السطر الاول الذي كتبته واستعملت كتابة خلاف الكتابة الاولى.

فلما كان بعد قليل، دخل الي اليهودي فاعطيت له الكتاب وحمله فرحا مستبشرا، وظن انه ادرك حاجته.

فلما وصل الى الكتاب الى ابي تميم، جمع على نفسه الكتاب والوراقين، فدفع اليهم كتاب ابي نوح، فقاسوه الى الاول، فوجدوا حروفه

كلها مخالفة لحروف الكتاب الاول، فاتفقوا كلهم على ان الكتاب الاول ليس من خط ابي نوح، الا رجلا واحدا كان احذقهم (9) في الخط. فقال ان الرجل الذي كتب الكتابين واحد، ولكنه بدل الخط في الثاني.

فقالوا له، لو كان ما قلت صحيحا، لوجدنا حرفا واحدا قد اشتبه ولا يقدر على تبديل جميع الحروف، وانما يقدر الكاتب على تبديل سطر واحد او سطرين، اما البطاقة كلها فلا.

ثم ان ابا تميم بعث الى ابي نوح، فجاءه في قيوده وزنانيره، فلما وصل الى ابي تميم، وجده في قبة حمراء على سرير قوائمه من عظام الفيل، احمر، وعليه ثياب حمراء، وعلى رأسه شاشية حمراء وحول قبته رجال بايديهم الحراب. فلما نظر الشيخ ابو نوح الى امتعة ابي تميم كلها، وقد احمرت، هاله ذلك وكاد يتيقن بالموت، فدخل عليه وسلم، واطرق ابو تميم برأسه مليا ثم رفعه، فقال، يا سعيد، احقا كاتبتم فينا بني اميه؟

قال ابو نوح، فقلت له يا سيدي، ان كان لا ترفع لي حجة ويقبل لي عذر، فمولانا فاعل ما اراد.

قال ابو تميم، بل ترفع لك حجة ويقبل لك عذر، فاحتج على نفسك واعتذر.

وكان ابو نوح فصيح اللسان، كثير البيان، فقال، كيف نكاتب بني امية وقد علمت ما بيننا وبينهم، يوم الدار ويوم الجمل، ويوم صفين، وهم الشجرة الملعونة التي ذكرها الله في القرآن؟

فلما سمع ابو تميم ذلك منه سره وتبسم، وانطلق وجهه وسره ما ذكر في بني امية.

قال، قال ابو نوح، فدفع الي الكتاب، فقال لي، انت الذي كتبت هذا الكتاب؟

فحلفت له وقلت، والله ما هذا كِتاب كتبته بيدي. واختلف من يمينه، فطائفة قالوا لم يحلف ولكنه جعل الميم زائدة. وقال بعضهم انه من البربر لا يفطن لذلك ولا يفهمه. قال. ابو تميم: نعم! ما هذا بخطك؟ الا ان غيرته، يا سعيد. ارأيت لو صادفتني يوم باغاي، اكنت تتركني الى غيرك؟

فقال له ابو نوح: لا اتركك الى غيري. فقال لي، هذا هو اجمل ما قد اقررت به! فعلم ابو نوح انه قد صدقه في كل ما قال له.

ثم قال ابو تميم، يا سعيد، ان القيود التي برجلك انما دخلت فيهما بالعلم ولا ينزعان الا بالعلم.

فقال ابو نوح، عسى الله ان يجعل ذلك كفارة لذنوبي. قال، فغضب ابو تميم عند ذلك وقال: فنحن اذا لك مسيئون! عسى الله ان يجعله لك متصلا بعذاب الاخرة.

قال ابو نوح، فلما عرفت الغضب في وجهه، قلت ليس فى ذلك ما يثبت الاساءة لمولانا. الا ترى ان الله جل ثناؤه يبتلى عبده مؤمن فيصبر، فيؤجر، وليس في ذلك ما يثبت لله الاساءة.

قال ابو نوح، فرأيت فيه الانطلاق، وشفع في بلجين (10) ابن زيري بن مناد بن منكوس الصنهاجي، وكلمه ان يحل وثاقي ويعفو عني.

فلما أجابه الى ذلك، خرج ابو نوح، وأرسل له ابو تميم ثيابا نفيسة، وامر ان ينزع عنه التي عليه والاطمار.

فلما وصلته رسله نزعوا ما عليه وحلوا وثاقه ونحوا عليه الاطمار والزنانير (11) وارادوا اخذها، فأبى عليهم ابو نوح. فقال لهم:متاع مولانا كله حسن، فبلغه (ابو تميم) ذلك عني فزاد في تكريمي.

قال، قال ابو نوح، وكان يرسل الي مرة فمرة. ثم انه ارسل الي ذات مرة فاتيته، فدخلت عليه وسلمت، فوقفت بين يديه، فسألني عن ابي خزر، رضى الله عنه، وقال: اين صاحبك، يغلي. فقلت له، لا ادري.

فقال لي، لو كان صاحبك بغانة لجلبته دراهمنا. قال فقال لي، اتخشى امره؟ فقلت ان كان السلطان اعطى الامان للناس في بلادهم، فلا نخشى امره، فان لم يعطهم الامان، فانه يخشى امره. فراني نصحته، فبعث في اقاليم الوهبية كلها بالامان ولا يهيج احد منهم.

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، عن ابي يعقوب بن يوسف بن نفاث، رضى الله عنه انه قال: ان اهل الدعوة في امانه الى يومنا هذا. وحدث ابراهيم بن ابراهيم ان ابا نوح، رضى الله عنه، دخل ذات مرة على ابي تميم، فأمر ابو تميم خازن بيوت امواله ان يملأ كم الشيخ مالا، دراهم ودنانير.

قال ابو نوح، فدخلت مع الخازن الى بيت المال، فكان يدفع لي وارخى كمي، فلا يكاد يمتلىء كمي، فيقول الخازن لي: الم يمتلىء كمك؟ فقلت لم يمتلىء (ولكنه امتلأ) حتى كدت لا انهض به. ثم قلت له ان كمي قد امتلأ.

قال، فخرج ابو نوح ودخل الخازن الى ابي تميم، وقد امتثل ما امره به لابي نوح. فقال له ابو تميم: املأت كم ابي نوح سعيد؟ فقال له الخازن: نعم.

قال، فأمر ابو تميم رجلا ان يخرج الى باب القصر لينظر ما يفعل ابو نوح بالاموال.

فلما خرج ابو نوح الى باب القصر، وجد الناس افواجا، فصار يدخل يده في كمه فيملأها ويعطي يمينا وشمالا، حتى لم يبق في كمه الا مقدار مقبض اليد، فرجع الرسول الى ابي تميم، فأخبره خبر ابي نوح، فقال، ان

الشيخ لمجنون، يريد ابا نوح، يدخل يده في كمه، فيعطي المال جزافا.
فقال له ابو تميم، كلا! ما هو بذلك، ولكنه منتحل للرئاسة. فكان ابو تميم يجمع بين يديه علماء الفرق ويتكلمون بين يديه وقوفا ويتناظرون. فيحكم بينهم، فحسنت احوال الشيخ ابو نوح، رضى الله عنه، لعلمه وفصاحته وبراعته وبلاغته وعلمه بفنون الرد على المخالفين. ولذلك قال فيه ابو تميم: «سعيد فتى مجادل» (12).

(1) تمتد منطقة الزاب التي تقع حول بسكره على نحو 120 كيلومتر من الشرق الى الغرب وما يتراوح بين 30 و40 ميلا من الشمال الى الجنوب. وتنقسم الى الزاب الشرقي. والزاب الشمالي. والزاب القبلي. واهم مدن الزاب. بعد بسكرة. هي طولقه وطبنة وتهوده. ولو ان الحسن ابن محمد الوزان يذكر ان الزاب يشتمل على نحو خمس وعشرين مدينة. وذلك علاوة على عدد كبير من القرى (وزاب المغرب هو عبر زاب العراق). ولربما اعتبر هذا الرحاله مدنا اخر من الجريد لتونسي، مثل توزر وقفصه ونغزاوة ونفطة. من ضمن الزاب. كما صنع ياقوت. راجع معجم البلدان (124/3) البكري (ص59) ابن حوقل (ص85) الادريسي (ص93و104) وكذلك

De Lattre, Excursions dans le Zab Occidental (Société Archéologique et Géographique de Constantine (1889); Marçais, les Arabes en Berbérie; Leon l'Africains, Description de l'Afrique, éd. Scheper (III/250).

(2) راجع وصف الجغرافيين العرب لمدينة باغاي في كتابنا. المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي.

(3) في الاصل وفي طبقات الدرجيني. وقد قرأ المترجم غلطا: مديونه. مع ان مناطق مديونه في الغرب. بين تلمسان ووجده. وحيل عموره جنوبا.

(4) كلمة غير واضحة ويمكن ان تقرأ ايضا عثر عبود.

(5) راجع سير الشماخي (ص427-437).

(6) كذا في الاصل. وقد اورد المترجم رسمه العربي: افودان لكلا.

(7) وردت الكلمة في الاصل محرفة: مغيلة.

(8) هذا هو الرسم الذي اورده الدرجيني في طبقاته. ونص المخطوطة غير واضح وهو بالشكل التالي: بالصعر. وقد اورد المترجم رسم المخطوطة التي اعتمدها بالعربية: تسحرة.

(9) في الاصل: احرى.

(10) بلكين (او بلقين. او بلجين) بن زيرى بن مناد. ابو الفتوح الذي سماه المعز العبيدي «يوسف»: تولى شؤون المغرب بعد رحيل العبيديين الى مصر. وكان له في ولاية زيري. دور مهم في تثبيت سلطانهم. ولا سيما في المغرب الاقصى. كما قام الزيريون بنجد المهدية اثناء محاصرة ابي زيد الخارجي لها بالمواد الغذائية وغيرها. وفي ايامه ثار المغرب الاقصى وخلع طاعة الفاطميين واعلن الولاء لخليفة قرطبة. فسار اليه بلكين واعاده الى حظيرة الولاء لخليفة مصر. وقد توفي بلكين في سنة 373هـ. راجع العبر (155/6) البيان (228/1. و239-318) اعمال الاعلام (ص26) وفيات الاعيان (286/1-287) وكذلك كتابنا. دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية.

(11) الطمر (ج اطمار) الثوب الخلق. وفي لسان العرب (51/2-52) ان الزنار (والزنارة) هو «ما على وسط المجوسي والنصراني». والزنير لغة منه. ومن ذلك قول الشاعر:

نحزم فوق الثوب بالزنير ... تقسم استيا لها بنير

(12) الصفحات التالية (من الورقة 131 حتى الورقة 161 من مخطوطتنا) غير واردة في الترجمة الفرنسية.

مناظرات ابي نوح، رضى الله عنه، بين يدي ابي تميم

وبلغنا ان ابا تميم كان يرسل الى ابي نوح، رضى الله عنه، يناظر بين يديه المخالفين. وبلغنا انه ارسل اليه ذات مرة. فقال له. يا سعيد، سل ما بدا لك من السؤال.

قال ابو نوح، فبدأت، فقلت: ما الدليل على ان لهذه الصنعة صانعا؟
قال فلبث جلساؤه حينا ساكتين، ثم اخذوا في الجواب، فقالوا اقاويل كثيرة، فما وافقوا فيها بجواب قاطع.

فقال لهم ابو تميم، اجيبوا ابن زنغيل من حيث يفهم، وذلك لانه لم يرض باجوبتهم.

قال ابو نوح، فرأيت في وجه ابي تميم ارادة الجواب وما اراد ان يجيب - ولم اسأله - من كثرة ادبه وحسن سيرته. فقلت ان رأى مولانا ان يتفضل على رعيته بالجواب، فليفعل. فرأيت في وجهه تبسما وانطلاقا. فقال يا سعيد، يقال لهذا السائل اشرح سؤالك لكي تستحق جوابا. وفي شرح سؤاله جواب لقوله. وقوله صنعة دليل على صانع.

قال ابو نوح، رضى الله عنه، فاخبرت بهذا الجواب شيخنا ابا خزر، رضى الله عنه، فتعجب به وقال، هذا جواب قاطع.

وذلك ايضا انه ارسل اليه ابو تميم ذات مرة، قال، قال له ابو نوح، فقدمت عليه، فوجدته، ورجل من المعتزلة واقف بين يديه، فاخذ في مسألة الاسماء، فنصت اليه وفرغت ذهني الى كلامه حتى عثر عشرة نجا منها، بحمد الله، فقال ان اسماء الله تعالى متغايرة، كزيد وعمرو.

فاقبلت الله بالكلام، فقلت له، الى من كلامك الي او الى مولانا؟
فقال له السلطان، كلامك اليه. فقلت له: اليس قد قلت زيد غير عمرو؟ قال، بلى! قال: فقلت له، اليس لهما مغير غيرهما، فجعل زيدا غير عمرو، فقال لي، نعم! فقلت له، وكذلك الله والرحمان. هذا غير هذا، ولهما مغير غيرهما، فجعل احدهما غير الاخر.

قال، فقطع السلطان جوابه، فقال: هذا هو الكفر بعينه، فخرجنا.

ثم ان ابا تميم اطال البحث عن ابي خزر، رضى الله عنه، حتى علم انه بجبل نفوسة، فارسل ابو تميم (اليه) بالامان، وكان قبل يكاتب نفوسة في امره، ويراسلهم في شأنه.

فلما سمع ابو خزر، رضى الله عنه بالامان، خرج من جبل نفوسة متوجها الى ابي تميم بالقيروان. وكان القائم على شأن ابي خزر، رضى الله

عنه، والحافظ له، ابو زكرياء بن ابي عبد الله بن ابي عمر بن ابي منصور الياس، وابو زكرياء اذذاك حين خدمته لابي خزر، رضى الله عنه (...)

وحدّث غير واحد من اصحابنا ان ابا نوح قال، ارسل الي ابو تميم، وقال لي، سر الى صاحبك، فانه قد وصل الى قابس وما كنت قبل شعرت بموضعه، حتى قال لي، سر اليه.

قال ابو نوح، فطلبت اليه ان يرسل معي ناسا من مزاته، فارسل معي ثمانين فارسا.

فلما خرجنا عن السلطان، ، طعن فينا بعض جلساء السلطان، وقالوا للسلطان ان ابا نوح حين اصاب ثمانين فارسا، (يستطيع ان) يمنع بهم ابا خزر، ان اراد ذلك.

قال ابو نوح، فارسل وراءنا ورجعنا، واسترد كل ما كان معي الا القليل.

ثم ان ابا نوح مضى متوجها الى ابي خزر، رضى الله عنه بقابس.

فلما وصل الى المدينة، وجد بها الشيخ ابا خزر، رضى الله عنه، فالتقيا وتصافحا، وهما يبكيان. قال له ابو نوح ما الذي جاء بك، يا شيخ؟ اما تخاف على نفسك؟

فقال ابو خزر، رضى الله عنه، ما بين قدومي وقدومك الا يسير.وقد علمت ان ابا تميم لا ينقض العهد ولا ينكث الميثاق. فجئت حين اعطاني الامان، فسارا ومن معهما الى القيروان، الى ابي تميم.

فلما دخل عليه الشيخ ابو خزر، رضى الله عنه، رحب به واكرمه وتلطف به وعظم شأنه (عنده) وجعل له قدرا وجاها ومنزلة عظيمة. وكان يقعد معه على سريره، وغيره من الناس وقوف بين يديه لا يصيبون القعود.

ثم ان ابا تميم وافته رسله من مصر، وقد اخذها له عامله (1) واراد التوجه اليها بأهله وعياله وبيوت امواله، وكانت مهمته ان يسير بالشيخين لخوفه من ثورتهما وخلافهما له ولم يرد ان يفارقهما، وكلمهما في المسير معه الى مصر، فقال له الشيخ ابو خزررضى الله عنه، وكيف بالقعود بعدك؟

واما ابو نوح، فكره المسير معه.

وكان عند ابي تميم يهودي، وكان يعرف فضل ابي نوح وتعظيم قدره ويجري في مراده، فاعلمه ابو نوح انه كره المسير الى مصر.

فقال له اليهودي، خذ نخالة الشعير، فانقعها في الماء حتى الصباح، واشرب من مائها واغسل وجهك منها، ففعل ابو نوح ذلك، فاصفر وجهه،

فتفقده ابو تميم وسأل عنه وقيل له انه مريض، وجيء به فرآه مصفر الوجه، فظن انه مريض، ورجع ابو نوح وراءه، ومكث قليلا ولم يرسل اليه ابو تميم، فتوجه نحو وارجلان، وسنذكر ذلك في موضعه ان شاء الله، بعد فراغنا من احاديث ابي خزر، رضى الله عنه.

وبلغنا ان ابا تميم لما خرج من القيروان متوجها الى مصر وعزم على المسير مع ابي خزر، رضى الله عنه وغفر له وللمسلمين اجمعين، آمين يا رب العالمين. نت (ابو خزر) يقول :

عليكم سلام الله اني مسافر
وما ادري بعد السفر ان كنت راجع
عليكم سلام الله في كل ساعة
سلام كثير دائم متتابع
واني اذا ما هجت ليلا بذكركم
أبيت حزينا والنجوم طوالع
احب لقا الاخوان في كل ساعة
فان لقا الاخوان فيه نوافع
فيا رب فاجمع بيننا بسلامة
فانك انت للمشتت جامع
والا فصبرني على طول غربتي
فأنت لمن يدعوك يا رب سامع
أجب دعوتي يا ذا الجلال فانني
دعوتك مضطرا اليك وطامع
الا ليت شعري عن غزال تركته
اذا ما اتاه مصرعي كيف يصنع
أيلبس اثواب السواد مجددا
على مالك للبعل ام فيه مطمع

ثم ان ابا تميم استخلف على اهل مملكته من اهل افريقية بلجين بن زيري بن مناد بن منكوس الصنهاجي.وأوصاه بوصاياه وقال له اشفني من اولاد المجوس، زناته ومزاته، وقال له اني تركت لك في افريقية مائة الف منزل، فاجعل على كل منزل فارسا تكتفي به لمحاربته. فسار ابو تميم متوجها الى مصر، ومعه الشيخ ابو خزر، رضى الله عنه.

فلما وصل الشيخ الى لماية، احسنوا القيام به وعظموا درجته وقاموا بحوائجه وساءهم مسيره مع المسودة، فعند ذلك، قال ابو خزر: «لماية اهل الدعوة».

وبلغنا ان ابا زكرياء فيصل بن ابي مسور (2) رضى الله عنه عنهما، خرج من جربة حين سمع بمسير الشيخ وتلقاه ببعض الطريق وسأله عن ثلاث مسائل.

وكان ابو زكرياء يحدث بذلك ويقول، سألته فلم يجبني فيها الا بما احب.

ثم توجه ابو تميم باهله وعياله واهل مملكته وبيوت امواله، يريد مصر.وكان اصحاب ابي تميم يطعنون في ابي خزر، رضى الله عنه، عند ابي تميم، لما رأوا من تعظيمه اياه وتفضيله عليهم.

وبلغنا انه سار ذات مرة في مركب من مراكبه، ومعه ابو خزر، فتعرض له زرع، فشقه ابو تميم واصحابه، وعدل عنه ابو خزر، رضى الله عنه، ناحية، فتكلم اصحاب ابي تميم الى ابي تميم في ذلك وقالوا له: عدل عن طريقك ولم يرض باتباعك! فغضب عليه ابو تميم، وقال له: «لست ترضى بطريقنا يا أبا يغلي؟».

فقال له ابو خزر، رضى الله عنه: الم تعلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «اذا غابت الثريا، فلا يدخل الزرع الا ساقيه، او واقيه، او ناقيه: فانا لست بساقيه ولا واقيه ولا ناقيه. واما انت، فواقيه.»

قال، فتعجب ابو تميم من بديهته وعلمه، وعجبته فراسته وحسن جوابه.

قال ابو تميم لاصحابه: الم اقل لكم انكم لا تقدرون ليغلى على شيء. فاعذر اليهم الا يتكلموا فيه عنده بعد ذلك.

ثم ان ابا تميم وصل الى مصر وتسامعت علماء مصر وفقهاؤها بأمر ابي خزر، رضى الله عنه، وبلغهم ان ابا تميم اتاهم بعالم من ارض المغرب، فارادوا امتحانه (ومعرفة) مبلغ علمه، ولكن تخوفوا من معارضته. واتفقوا ان يصنعوا طعاما ويدعوا اليه ابا خزر، رضى الله عنه.

فاذاحضر الطعام اخذوا في الاكل،فمن اكل قليلارفع يده،فان رفع الشيخ يده معهم قبل ان يقضي حاجته، علمواانهم يظفرون به، وان لم يشتغل بهم واخذ في الاكل حتى يقضي حاجته، علموا انهم لا يقدرون على شيء.

ثم انهم احضروا الطعام واحضروا الشيخ ابا خزر، رضى الله عنه، واخذوا في الاكل. فمن اكل قليلا رفع يده، فتأخر الشيخ، رضى الله عنه، بعدهم حتى قضى حاجته، فمسح يده، فقالوا: ليس لنا طاقة بالشيخ، وعلموا انهم لا يقدرون على شيء، فتركوا معارضته.

وبلغنا ان رجلا من اهل تجديت، يقال له ابو سليمان، اصطحب مع الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه، الى مصر، وكان يحدث ويقول: اصطحبت مع الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه، ولم نحمل عنه الا مسألة واحدة، وهي:

«ان المسلم من بني أدم افضل عند الله من الملائكة».

ثم ان ابا تميم اقتطع ابا خزر، رضى الله عنه، دارا وعقارا وحسنت احوال الشيخ عنده.

وبلغنا ان ابا خزر، رضى الله عنه، قال: وما همني الا ما مضيت به لاهل الدعوة من مسائل بالرخص، ولكن من عمل بهذه الاية فانا ضامن له الجنة، قول الله: «ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من أمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيئين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون».

وبلغنا عنه انه قال: لو أصبت من فتيان اهل الدعوة عشرين فتى يتعلمون، لكفيتهم مؤنة العيش من المأكل والملبس حتى الكراء الذي يكرون به، فينالون من العلم مرادهم.

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف، عن ابي عبد الله محمد بن بكر، عن ابي نوح، سعيد بن زنغيل، رضى الله عنهم انه قال، وقد ذكر ابا خزر رضى الله عنه، فقال، ما اورعه! ما يسمع بشيء من الفضائل قط الا علمه. وكانت عادته، اذا صلى بالناس، صلاة الصبح، يستفتح بالقرآن ويتنحى ناحية فيقبل على الدعاء والتضرع الى الله تعالى حتى تطلع الشمس. وكان جامعا لخصال الخير والعلم والحلم والفراسة.

وبلغنا عنه حين كان بارض المغرب ان بني يكون وبني واسين التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا حتى بلغت الهزيمة الى حي بني واسين، وابو خزر، رضى الله عنه على فرس له واقفا. ثم انه نظر الى الغاية، زوج ابي القاسم، رضى الله عنه، وقد ادركتها السلابة واخذوا في نزع ثيابها، فرمى بفرسه فيهم وهزمهم وحده، وقتل منهم عدة وانهزموا واتبعهم بنو واسين.

فلما كان بالغد اتاهم ابو خزر، رضى الله عنه، ليصلح بينهم وبين اخوتهم، فلم يزل حتى اصلح ما بينهم، فلم يكترث بما فعل بهم بالامس.

وبلغنا عنه انه نظر الى هيئة تلميذ قد امسك لوحا، فخاله من اهل الدعوة، فتبعه ووجده نكاريا، فرجع عنه.

ثم ان جماعةمن التلامذة جازت عليه، فقال لهم: انا لنقنع في غيركم بسببكم لانهم قالوا، من غيب وجهه عن اخيه المسلم، فهو هالك.

وبلغنا عنه انه اعطى بطاقة لابي نوح، سعيد بن زنغيل، رضى الله عنه، يكتبها الى بعض امراء المسودة، وكان الشيخ يملي عليه ويدعو للامير بالدعاء الحسن الذي لا يستحقه الا المسلم والامام العدل، فقال له

ابو نوح، رضى الله عنه، اتفعل هذا، يا شيخ، للرجل الكافر؟

فقال له الشيخ، انا كنا معهم كونا لو قلنا لهم، لكم الدنيا والاخرة، لوسعنا ذلك.

وحدث غير واحد من اصحابنا ان ابا تميم، لما مات ولي من بعده ابنه وصلت الضيعة الى الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه، حتى قدم رجل من المعتزلة مصر من بلاد المشرق يطلب المعارضة والمناظرة في الفرق، فكل من خرج اليه من علماء مصر ليناظره، غلبه المعتزلي، فشق ذلك على اهل مصر وشكوا ذلك الى السلطان، فجمع اصحابه ووزراءه واهل مشورته، فاستشارهم في امر المعتزلي، فقال له بعض من ادرك اباه، ابا تميم، ان هناك شيخا جاء به ابوك من ارض المغرب يكرمه ويصفه بالعلم ويعظم منزلته ويرفع درجته، ولا تظن احدا يقدر على المعتزلي الا هو، يقال له يغلى. فلو بعثت اليه ليخرج اليه فيناظره.

قال، فبعث السلطان في طلب ابي خزر، رضى الله عنه، ليخرج الى المعتزلي، فلما وصل الرسول الى ابي خزر، رضى الله عنه، اخبره بامر السلطان. فقال ابو خزر، ليس لي لباس احضر به المجالس، ولم يكن معي ما أركبه.

فرجع الرسول الى السلطان، فاخبره بقول الشيخ، فبعث اليه السلطان بغلة يركبها ولباسا يلبسه.

فلما وصلت البغلة واللباس الى الشيخ، لبس الثياب وركب البغلة.

وخرج المعتزلي، فلما وصل اليه، وجده في قبة قد نصبها في الفسطاط للمناظرة، فاستأذن عليه الشيخ، فأذن له، فدخل وسلم، وسأله ابو خزر عن احواله وفيما يمشي فيه؟ فقال المعتزلي: في المناظرة.

ثم انهما تناظرا، فكل باب من ابواب العلوم ناظره فيه ابو خزر، رضى الله عنه، غلبه فيه. فتعجب المعتزلي فقال لابي خزر، اين تعلمت؟

فقال له ابو خزر، في بلاد الشيخ والحلفا. فقال له المعتزلي، كذبت، حاشا لبلاد الشيخ ان يتعلم فيها مثلك.

وروي عن ابي سليمان المذكور الذي اصطحب الشيخ الى مصر، انه قال، الحمد لله، ما دخلت معه بابا من ابواب العلوم الا غلبته فيه، وقد يعلم الانسان غالبه.

ونظر ابو سليمان ايضا الى الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه يقرأ مصحفا، فقال له، يا شيخ، اراك تقرأ في المصحف والكتب حاضرة. فقال له الشيخ، انما ينظر في الكتب ويقرأ فيها من يستفيد منها. واما من لا يستفيد منها، فافضل له قراءة المصحف.

وبلغنا ان ابا خزر، رضى الله عنه، صلى بالناس، فوقع الصرد على

رأسه من طول سكونه ووقاره في الصلاة، فاحس به من كان خلفه من الناس، فضحكوا، فانتقضت عليهم الصلاة، ومضى هو في صلاته حتى اتمها.

وكان الشيخ ابو القاسم، هو الذي يتقدم للناس في الصلاة. فلما كان ذات يوم اقيمت الصلاة، فقدوا الشيخ ابا القاسم، فتقدم ابو خزر.

فلما تقدم، احس بابي القاسم قد جاء، فتأخر وراءه، وقال له، تقدم يا شيخ، فتقدم الشيخ ابو القاسم، رضى الله عنه، فصلى بالناس.

واما ابو الربيع، سعيد بن زنغيل، رضى الله عنه، فلما هرب من ابي تميم، توجه نحو وارجلان هاربا بظعائنه واهله مستخفيا.

فلما وصل الى البركات التي يقال لها تيرسين، ارسل الى الشيخ ابي صالح جنون بن يمريان، فرد اليه الرسول، وقال، لا تخف، نجوت من القوم الظالمين.

فلما انتهى ابو نوح، رضى الله عنه الى وارجلان، اكرمه اهله وحفظوه وعظموا درجته واحسنوا القيام به، فملأ له الشيخ صالح جنون، رضى الله عنه، بيتا الى السقف بالتمر، واجرى عليه مائدة بكرة واخرى عشية.

وبلغنا انه قعد معه ذات يوم وقال له ابو صالح، رضى الله عنه، اجعل يدك في جيبي، فأن اصبت شيئا فخذه واغسل به ثيابك.

فجعل ابو نوح، رضى الله عنه، يده في جيبه، فوجد فيه صرة وفكها، فوجد فيها سبعين دينارا.

فعند ذلك قال ابو نوح، من كان له اخ مثل جنون ابن يمريان لا يعدم شيئا.

وكانت جموع اهل وارجلان تجتمع اليه في مسجد جنون بن يمريان، فسأله ذات مرة رجل من اغنيائهم، فقال له، اخبرنا يا ابا نوح بكل ما علمت من علوم الكلام الليلة.

فقال له ابو نوح، فكيف اخبركم بما اكلت في تعلمه اقفزة ملح في ليلة واحدة.

فمكث ابو نوح في ورجلان زمنا حسن الحال، ثم اراد الرجوع الى بلاده واخذ في اهبة السفر، فقال الشيخ ابو صالح جنون، اقعد في وارجلان واقاسمك جميع ما ملكت، وكان الشيخ جنون ذا مال كثير في وارجلان، فأبى عليه ابو نوح.

قال، فتوجه الى افريقية، فلما وصلها، وجد البلاد قد تغيرت والصدور قد تنكرت.

وقال له بعض اصحابه قبل ذلك، ما الذي ردك، يا شيخ واخرجك من وارجلان، وقد احسنوا القيام بامورك وقاموا بحوائجك؟ فقال له ابو نوح:

الاخوان والاصحاب. وكان ابو نوح، رضى الله عنه، تارة بافريقية ، وتارة بقصطالية.

وبلغنا ان مقدم بني درجين، حنين بن ويحبتين (3) ممن يغدون الى المنصور بن بلجين بن زيري، وكان عنده بمكان مكين، فتوجه اليه ذات مرة. فلما رجع من عنده وقد حباه واكرمه واعطاه، والشيخ ابو نوح، رضى الله عنه، وتلاميذه بقنطرارة. فسمع ابو نوح، رضى الله عنه برجوعه من عند السلطان، وخرج اليه ابو نوح بمن معه ومن تبعه من اهل المنزل ليتلقاه.

فلما انفصلوا عن لمدينة، نظروا الى جماعة سبقتهم، فاذا هم جماعة النكار.

فلما راهم ابو نوح، رضى الله عنه، قد سبقوه واصحابه، امرهم بالقعود، وقال لهم دعوه ، فان سلم عليهم حنين وصافحهم قبلنا هاجرناه.

فلما قربت النكار من حنين وقد غشيهم، انصرف عنهم بفرسه ناحية، واشار عليهم بالسلام باصبعه وتركهم ومضى نحو الشيخ ابي نوح، رضى الله عنه، وجماعته.

فلما رأى ابو نوح، رضى الله عنه، ما فعل بجماعة النكار، قال لاصحابه: قوموا بنا لنصافحه، فقاموا.

فلما اقترب منهم، نزل عن فرسه ومشى اليهم.

وحدث ابو يعقوب، يوسف بن نفاث، رضى الله عنه انه قال: كأني انظر الى حنين يسعى الى الشيخ واصحابه لابسا كساءة من خز واشبوره يطعن كساءته حتى صافح الشيخ ابا نوح ومن معه، فاهتز ابو نوح لما فعل حنين فدعا له، وفي ولده بركة تلك الدعوة الى يومنا هذا، فقال لهم حنين: ما همني غيركم وما كنت لكم عليه من اموركم لومت في سفري هذا.

وبلغنا ان ابا نوح ارسل اليه المنصور بن بلجين ان يسير اليه، فلما وصلت رسل المنصور اليه، توجه نحو دار حنين، وذلك عند الهاجرة ليستشيره في المسير اليه، ان خاف عليه منه ام لا.

فقال له حنين: ان اردت ان تمضي فاني لا اخاف عليك، وان اردت ان تقعد، فانا نمنعك ونخاف عليك. قال فدعا له بخير، ومضى ابو نوح، رضى الله عنه، متوجها الى القيروان.

فلما وصلها، استأذنوا له على السلطان، فأذن له فدخل وسلم عليه واكرمه المنصور وتلطف به وقربه وفضله على كثير من اصحابه.

وبلغنا عن المنصور انه قال: ان رمحي لوهبي وان فرسي لوهبي.

وكان ابو نوح، كما تقدم ذكره، عالما بفنون المناظرات والرد على جميع اصحاب المقالات، فاجتمع ذات مرة مع ابي حمو بين يدي المنصور، فتناظرا، فبداه ابو نوح بالسؤال.

قال، قال ابو نوح، فقلت له، ما علامة الصنعة، قال، فقال الحدث، الحركة، والسكون، والانتقال، والزوال.

قال، فقلت له كل محدث مخلوق، فقال وكابر على نفسه كل مخلوق محدث وليس كل محدث مخلوق.

قال، فقلت له، الحدث على ضربين: محدث مخلوق ومحدث غير مخلوق. فيلزمك ان يكون القديم على ضربين: خالق وغير خالق.

قال، فقال عند ذلك، بل القديم كله خالق.

قال، فقلت له، وكذلك المحدث، كله مخلوق.

قال، بل كل قديم خالق، وكل محدث مخلوق.

قال، فقلت، فالكفر اذا مخلوق، لانه محدث.

قال، وهو جواب مضطرب. الكفر مخلوق لي.

قال، فقلت له، اذا كان الكفر مخلوقا لك، فينبغي على هذا العيار والوزن، ان يكون مربوبا لك، ومأهولا لك. فانت، على هذا القياس، اله فعلك وربه.

قال، فقال، وهو مستخفي مضطرب، بل الكفر مخلوق لي، وليس يجب، اذا كان مخلوقا لي، ان يكون مربوبا لي.

قال، فقلت له، ويلزمك، على هذا القياس ان يكون مخلوقا له، غير مربوب له. فان الله خالق لما خلق من الاشياء، وليس بربها ولا الاهها.

قال، فقال لي المنصور، فما الذي يقول لك هذا الشيخ؟

قال، فقلت له، يا سيدي، يقول ان له خلقا، ولله، عز وجل، خلق. فالله منفرد بخلقه.

فقال له المنصور، لقد جعلت لله شريكا، يا شيخ، اذ قلت انك تخلق، والله يخلق. فهذا هو الشرك بعينه!

وانكر عليه قوله هذا، غاية الانكار وقبحه عليه غاية التقبيح.

ثم ان ابا نوح، عظمت درجته عند المنصور بن بلجين، فاجازه بجائزة سنية واكرمه وامره بالرجوع الى اهله.

وبلغنا ان ابا نوح، رضى الله عنه، ناظر ذات مرة يحيى الاعرج النكاري، وكان شيخا من شيوخ النكار، وعالما من علمائهم، فقال له ابو نوح، اسألك في حجة السمع. اخبرني عن رجل مشرك، دعاه رجل

من المسلمين الى دينه، فاخذ يعلمه التوحيد، وهو يتبعه حرفا بعد حرف، فما منزلته الى ان يتم التوحيد؟ اهو على حالته الاولى من الشرك، ام مسلم. قال فقلت له ان قلت مسلم فاذا، يسلم الناس ببعض التوحيد دون بعض. وان قلت انه مشرك، فبماذا اشرك بالذي سمع من التوحيد، ام بالذي لم يسمع منه؟

فوقف، فقال: لا اعلم.

قال، فقلت له، لا تستحي ولا تحشم، ولكنك بلغت مبلغا لم تقف الا في موضع وقف فيه عالمك وفقيهك، عبد الله بن يزيد. ولو وقفت دون ذلك، امكنك.

وبلغنا ان الشيخ كلمه بعض تلامذته، فقالوا له، ارأيت ان قال يحيى، انما اشرك بالذي لم يسمع؟ قال لهم، فان قال انه انما اشرك بالذي لم يسمع، فهو الرجوع الى قولنا: حجة الله تقوم بسماع وبغير سماع. وهذا قد قامت عليه الحجة بغير سماع.

وان قال، انما اشرك بالذي سمع، قال، فيقال له، اسرار التوحيد خير من اظهاره. ويلزمه ايضا ان يكون ترك التوحيد ايمانا ويكون فعله كفرا.

وبلغنا ان رجلا من اهل الدعوة ناظر رجلا من النكار بمدينة توزر(4) فجرى بينهما كلام، فقال احدهما لصاحبه، يا حمار، وقال الاخر، يا ثور، فخرجا من المدينة مغضبين، فشكا النكاري الى النكار ما اصابه من الوهبي، واشتكى الوهبي الى الوهبية ما اصابه وما دهاه، وابو نوح بتوزر.

ثم ان الوهبية والنكار اجتمعوا بفحص توزر، فكان بينهم قتال شديد واسرع القتال في النكار واستحر فيهم الموت، فانهزموا وتبعهم الوهبية ليقتلوهم الى تيقيوس، ولحق رجل من الوهبية يحيى الاعرج في الهزيمة، وكان يحيى ذميم الصورة، اشبه شيء باليهود.

فلما غشي الوهبي يحيى، قال له يحيى، لا تقتلني، فاني يهودي.

فقال له الرجل الوهبي، فكيف اقتلك موحدا واتركك يهوديا! فقتله.

وبلغنا ان ابا جعفر احمد بن خيران (5) رضى الله عنه ادرك رجلا من النكار صريعا في الهزيمة فامسك عنه ولم يقتله، فقيل له بعد ذلك، لم لمْ تقتله، يا أبا جعفر؟

قال، خفت ان تقول الوهبية، هذا هو الذي قتل الرجل، وكان صاحب مجهود وله روايات نفيسة كثيرة.

ثم ان الوهبية ائتمرت في اتباع النكار وحصارهم في تيقيوس فأبى عليهم الشيخ ابو نوح. رضى الله عنه، وقال لهم، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما أديل على قوم مرتين في يوم واحد قط». فابت العامة الا اتباع النكار وحصارهم لما اراد الله.

فلما وصلوا تيقيوس، حاصروا من بها من النكار، ورجعت النكار بعضها الى بعض، فخرجوا اليهم وقاتلوهم، قتال رجل واحد، وانهزمت الوهبية الى مدينة توزر، وكان ابو نوح من ساقة العسكر يذود ويحمي عن الوهبية حتى غشيه النكار. فلما اضطروه، حملوا عليه، فحال بينهم وبينه عزيز ابن عيسى، فحمل عليهم وفرقهم، وسلم الله الشيخ (ابا نوح)، فكان يكر فيهم مرة بعد اخرى، حتى ايسوا من الشيخ ابي نوح، وكان يقول بعد ذلك عزيز، انا خير من اخي صابر. فقد وقعت على الشيخ ابي نوح ودفعت عنه النكار، وفر اخي. وكان مثل ليقة صوف، طار بها الريح، فر عند الهزيمة وترك ابا نوح، ولولا انا لقتلته النكار.

وبلغنا ان ابا اسماعيل ابراهيم بن بلال (6) المعروف بالبصير، كان يومئذ ممن يبطىء الناس على القتال، ويقول: ايها الناس، احذروا القتال!

ثم ان ابا نوح، رضى الله عنه، وصل بعد ذلك الى قنطراره فتمارض فيها واضطجع، فدخل عليه ابو يعقوب، يوسف ابن نفاث، رضى الله عنه، وسأله عن احواله، فقال له ابو نوح، رضى الله عنه: احسبت اني مريض؟ بل انما اضطجعت هنا بهم بعض اهل الدعوة وكان ظني ان عبيد اهل الدعوة وائمائهم يقاتلون النكار (ولو) بالخزف، فضلا عن غيرهم، فكيف يقاتلوننا ويصيرون لنا اندادا.

وبلغنا ان طائفة من مزاتة قدمت على ابي نوح، رضى الله عنه، يستشيرونه في امر المسجد (الذي) ارادوا ان يبنوه.

فقال لهم ابو نوح، اذا قوم (ارادوا) ان يبنوا مسجدا، فليتفق خيار اهل البلد على موضع معلوم يصلح لبنيان المسجد، فاذا اتفق اهل الخير والصلاح منهم، عرضوا ذلك على العامة من اهل البلد. فان اتفقوا، فليشاوروا جيرانهم، فان انعموا لهم بذلك، ارسلوا الى من ينظر اليه من اهل الدعوة، فيستشيرونه، فان اتفقوا، فليبنوه، بعد ذلك، ان شاؤوا.

وحدث من اثق به ان الشيخ ابا نوح، اخذه بعض امراء توزر فحبسه. وذلك ان ابا نوح عظمت منزلته وعلت رتبته فكبر في اعين الوهبية وعلا ذكره فيهم واشتهر امره، فحبسه بعض امراء توزر طمعا فيما يعطى عنه ورجاء لما ينال على يديه، وسلاطينها اذذاك صنهاجة.

قال، فمكث الشيخ ابو نوح ما شاء الله في الحبس، حتى قدمت فرقة من اريغ الى قصطالية للمير (7) فيها (في) بنى تكسنيت و(فيهم) رجل واحد من اهل الدعوة يقال له يوسف بن توجينت.

فلما وصلوا الى نفطة، سمع الشيخ بمجيء الرفقة الى قصطالية، فسأل عمن بها من اهل الدعوة، فقيل له، رجل واحد يقال له، يوسف بن توجينت.

قال، فارسل الشيخ اليه فجاءه فسأله ابو نوح عن جمال تباع، فذكر له جمال اصحابه من بني تكسنيت، ثمانية عشر جملا.

فساومهم يوسف بن توجينت عند اصحابهم، فاوقفهم بعشرين دينارا لكل واحد منهم. فجاء اعوان الامير على الخيل، فوجدوا الجمال في الفندق، فحلوا لكل واحد منهم رسنه من رأسه، وجلبوها بغير موافقة اصحابها، فتبعهم اصحاب الجمال، ومعهم يوسف، وهم يقولون: ماذا فعلت بنا، يا يوسف؟ والاعوان يطردون الجمال بالخيل، يقصدون بها نحو الامير، بتوزر، فنظروا فاذا واحد من لجمال اعرج، فردوه الى اصحابه، فاستبشروا به وسروا لاجل ما يصلون به الى بلادهم.

ثم ان ابا نوح قدم الى قنطرارة بعد ذلك، فقصده يوسف فوجده في بيته والمصباح يضيء، مع جماعة من الناس، فقال له ابو نوح، يا يوسف، اردت الوصول الى اهل الدعوة. فاجابه يوسف الى ذلك، وكانت معه بكرة جاء بها للامير، فعمد يوسف الى البسط فعمل منه حزمتين، وهيأها لركوب الشيخ على البكرة وبسط عليها بساطا يتكىء عليه ابو نوح، فركب فعاد به الى بعض الطريق، قال له يوسف، ما ادري ما اسألك عنه، فاخبرني بشيء.

فقال له ابو نوح، حب للناس ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك.

(فقال يوسف) ظننت انه لم يخبرني بشيء ، فاذا هو لم يترك شيئالا الا اخبرني به.

وسارا حتى وصلا اسوف، (وادي سوف) فخرج اليهما الناس يلتقونهم فرحين مسرورين بمقدمهما وهم يعلمون ما نزل به، فصاروا يناولون له، وكل بمقدرته، ويدفعون اليه الاموال من الحيوان والصامت وما تيسر لهم. فجاءه رجل بدينار فدفعه اليه، فقيل له: اتعرفه ؟ قال، لا. فقيل له، نكاري. فقال ردوه، فردوه، فقال له: خذ دينارك.

قال الرجل، لم؟ قال له ابو نوح، طبعت هذه القلوب على حب من احسن اليها وعلى بغض من اساء اليها، فلا اريد ان احبك. فرده له، وخرج من بني اسوف قاصدا بني ينجاسن.

فلما وصل اليهم، قال له يوسف، اني اردت ان اصل الى اهلي. فقال له ابو نوح ائت اهلك، ثم تأتني باصحاب الجمال.

وذهب الى اهله ثم اتى باصحاب الجمال، فاوفاهم اموالهم، والحمد لله رب العالمين.

وبلغنا ان الشيخ ابا نوح، رضى الله عنه، حين كان بوارجلان متربيا في بلاد النعمة، ومتنعما بطبيخ الملوك، اجتمع اهل وارجلان، فطلبوا امرأة تحسن صنع طعامه، فلم يجدوا، الا امرأة واحدة من بني جعفر،

وكانت تقوم بطعامه وتحسن عمله وتصلحه له، وكان الشيخ يدعو لها بالبركة فنفذت فيها دعوة الشيخ.

وبلغنا (انها) حين ماتت احاط بها من ذريتها سبعون نسمة.

وحدث بعض اصحابنا ان ابا نوح،سعيد، رضى الله عنه، سأله ابو عبد الله محمد بن بكر، رضى الله عنهما بمحراب مسجد قنطرارة عن ثلاث مسائل:

قال اخبرني عن طفل رجل مسلم اذ ابلغ الحلم، ما الحكم فيه؟ قال الشيخ، ان انست منه خيرا فجدد له الاستغفار. وان لم تأنس منه رشدا ولا خيرا، فامسك عن ولايته.

فقال له ابو عبد الله، أليس يلزمنا معارضة النكار في الحارث وعبد الجبار، اذ قلنا بالامضاء على ولايتهما، وقالوا بالوقوف فيهما.

فقال له الشيخ، لا يلزمنا معارضة النكار في ذلك، لاننا نقول انما كانت ولايتنا اياهم، بولايتنا لابائهم. فاذا بلغوا رجعوا الى افعالهم، وزال عنهم حكم آبائهم. وتوقفنا فيهم اذ صاروا الى حكم انفسهم بعد اذ لم يكن لهم الا حكم آبائهم.

واما النكار، فقد ازالوا المعنى الذي اثبتوا له من الولاية، ولم يثبتوا ضد ما ازالوا، وهو البراءة. فلا يلزمنا معارضتهم في شيء.

والثانية، سأله عن معنى الرواية التي يؤثرها اهل التشبيه، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قالوا لم تمتلىء جهنم حتى يضع الجبار قدمه، فتزوى من نواحيها، وتقول: «قطنى، قطنى».

فقال الشيخ، ان كانت الرواية صحيحة، فلها مخرج ومعنى قدمه ما قدم لها من اهل الشقاوة. قال الله تبارك وتعالى: «وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم»،وليس يريد «قدم»، الجارحه.

والثالثة سأله عن الورود الذي تقوم به الحجة، فقال له، كما تفهم قول من قال لك، قم فادخل وكل.

وحدث عن رحيل المزاتية عن عدة من اصحابنا انها قالت، قال ابو نوح، رضى الله عنه، ان عشت قليلا، يا رحيل، ستدركين زمانا (فيه) أقوام يتبعون الطريق حتى يلتف لهم في الف من بنات الطريق، الفضة في ألسنتهم والنحاس في قلوبهم، وانما يسمعون بالاضراس. اقوام يأخذون المتروك من العلم. وزيد عن غير رحيل: قوم ان اسديت لهم خيرا يصبحوك، وان منعتهم بهروك.

قال ابو نوح، ان شر ما خلق الله الكفر والفقر. وحدث عن غير واحد من اصحابنا، ان ابا نوح، رضى الله عنه، رجع الى وارجلان ثانية، بعد موت ابي صالح، جنون ابن يمريان، رضى الله عنه. فلما وصل الى

ورجلان، وجد احوال اهله قد تغيرت فمكث فيها ما شاء الله فجمع من ينظر اليه من وجوه اهل ورجلان، فقال لهم: اني قد رأيت فيكم ثلاث خصال، كلها غير مرضية.

اما الاولى، فنكاح السر فيكم فاش. فاذا مر احدكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة وزجرهما ونهاهما عن الاجتماع في موضع التهمة، قالا له، انا قد تناكحنا، فكاد يظهر فيكم الفحشاء.

والثانية ان احدكم يطلق عبيده ولا يعولهم ويأمرهم بطلب معاشهم، فيطلقون في اموال الناس من جرائد النخل والليف والكرانف، وغير ذلك، فيكاد احدكم ان يكون سارقا، وهو في المحراب قاعد.

والثالثة انكم اظهرتم بينكم التفرقة: فطائفة يقولون، مسجدنا ومسجدكم، وطائفة يقولون حصيرنا وحصيركم، ويهودنا ويهودكم.

فاجتمعوا ليردوا له الجواب، فتباطؤوا في رد الجواب، فما استطأبهم الشيخ استرابهم، فما بات تلك الليلة الا عند حمو بن اللؤلؤ في تين بامطوس.

وبلغنا انه توجه من تين بامطوس (8) يريد ينجوسا، ومعه حمو بن اللؤلؤ، ومعه ابنه ابو عبد الله، ومع ابي عبد الله ابنه عبد الله، متتابعين على الطريق.

ولما حضر وقت الصلاة، نادى عبد الله اباه، فقال له ان وقت الصلاة قد حضر، فتقدم ابو عبد الله الى ابيه حمو، فقال له، الصلاة، يا ابتاه. فقال له حمو، اسكت انا قد كفينا المؤونة.

قال، فمشوا قليلا، ففعلوا ذلك مرارا، وفي كل مرة. يقول لهم حمو، كفينا المؤونة، حتى وصلوا الى المصلى الذي خلف ينجوسا، خرج الشيخ من الطريق واناخ الى المصلى، ونزل حمو، فاقام الشيخ ابو نوح الصلاة، فتقدم، فصلى بهم.

وبلغنا ان الشيخ ابا نوح، رضى الله عنه، توجه الى زويلة ومعه عبد الله بن زرزتين الوسياني (9) رضى الله عنه. ودخل الشيخ عند ابن خطاب بزويلة، فقربه وتلطف به واكرمه، ووجد عنده رجلا من اليهود، يقال له حلي، فقال له ابو نوح، اسألك يا يهودي، عن ثلاث مسائل، فان اجبت عنهن فانت حلي، وان لم تجب عنهن، فانت جلي.

فسأله عن رجل ضرب عنقه حيا فابانها، متى قتل نفسه، في حال حياته، او في حال موته؟ وعن الكائن في السفينة الى متى يطلب الراحة، والسكون لا يمكن له على حال؟ وعن رجل رمى رجلا بسهم، فمات الرامي، قبل ان يموت المرمى، متى قتله (حيا او ميتا)؟

قال فبهت اليهودي وتحير، فما نطق بجواب. قال، فقال لي ابن خطاب،

هات بجوابهن. فقلت له، اما الذي ضرب عنقه فأبانها، انما قتل نفسه في حال الموت بما فعل في حال الحياة. واما الكائن في السفينة، فانه لا يخلو من الحركة، حركة اكتسبها بنفسه، وحركة السفينة، وهي اضطرار. وذلك انما يطلب الراحة اذا كانت مجتمعة الى حركة الاضطراب ويكف عن حركة نفسه حتى يتبعه ذلك، فيطلب الراحة الى اجتماع الحركتين، فيقصد الى حركة نفسه. واما الرامي الذي قتل المرمى، فانما قتله في حال الموت، بما فعل في حال الحياة.

وبلغنا ان ابا نوح، رضى الله عنه، قال، يعلم الله ويطلع ان هذا الدين حق عند الله اني خاصمت به عند ابي تميم، وبين يدي ابن خطاب بزويله، وعند المنصور ابن بلجين، بالقيروان، ولم يبق دين الا غلبه هذا الدين واوقع التراب على رأسه، الا من ابطأ به عمله.

وبلغنا عن الشيخ ابي نوح، رضى الله عنه، ايضا، انه قال، كل معروف اسداه احدكم الى اقاربه (...) فان خلفته من وراء عتبة داره، يريد تعجيل الخلفه له (10).

وبلغنا ان ابا محمد ويسلان بن ابي صالح، رضى الله عنهما، سئل ذات مرة عن رجلي انسان ان كان يطهره المسح.

قال، جسد ابن أدم كله يطهره المسح، الا الفروج والرجلين، الا ان كان رجلي ابي نوح، سعيد بن زنغيل ومن كان مثله .

قال ولقد رأيته يوما نزع رجله من الخف ونحى عنهما اللفائف ويغسلهما كمثل البيضة وفيهما اثر القيود التي قيده بها ابو تميم.

وبلغنا ان ابا نوح، رضى الله عنه، سمع برجل عالم اقبل من المشرق، وكان يأتيه، فأتاه ذات مرة، فبدأه ابو نوح، رضى الله عنه بالسؤال، فقال: ما تقول في يعسوب الضلالة. فقال له الرجل: الادب، الادب، يا ابا نوح! تسلم وتجلس وتسأل عن الحال، وبعد ذلك اسأل عن يعسوب الضلالة.

ثم قال الرجل، اما يعسوب الضلالة فهو ابليس. ويعسوب كل شيء، اوله وقائده.

وبلغنا ان الشيخ ابا نوح خرج من قنطراره ومعه المعز ابن فضاله. والشيخ راكب على بغلته، والمعز ماش على رجليه، فامعنا في السير. حتى وصلا الى اسوف، نزل الشيخ عن بغلته، فصار الشيخ يئن ويقول، ما في عظمي من مفصل الا وهو يوجعني. فقال له المعز، اما انا يا شيخ، فما بي وجع ولا احسه.

فقال له الشيخ، فاذا كنت هكذا، فان لله عليك ان تحج من قوتك.

قال فاخذت تلك الكلمة بمسامع المعز، فرجع الى الله وتاب وباع املاكه وماله، واعطى لامرأته صداقها، فانفذ وصيته.

وبلغنا انه انفذها ثلاث مرات ورقي ربوة (...) (11) ثم سار الى الحج، فرجع فصار يختلف الى مجالس الذكر حتى مات. ولذلك قالوا: من اراد ان يتوب، فليتب توبة المعز بن فضاله.

(1) وهو جوهر بن عبد الله الرومي. قائده العبيديين الذي دوخ المغرب وفتح لهم مصر في سنة ٣٥٨هـ. وبنى القاهرة وظل حاكما البلاد حتى حل بها المعز. عرف جوهر بالشجاعة والحنكة السياسية كما اشتهر بالفضل والاحسان. توفي هذا القائد في سنة 381هـ. راجع وفيات الاعيان (375/1 ـ 380) النجوم الزاهرة (28/4 وما يليها) معجم البلدان (19/7) ابن عساكر (416).

(2) راجع اخباره في سير ابي الربيع الوسياني (مخطوطتى المحققة ورقة 24) طبقات الدرجيني (67/1 ـ 168) الذي نقل معظم روايته عن ابي زكرياء. سير الشماخي (ص 371 ـ 372).

(3) كذا في الاصل. وفي طبقات الدرجيني: حنين بن وريغول.

(4) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور لمدينة توزر في كتابنا. المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي.

(5) راجع ترجمته في سير الشماخي (ص398). وقد خصص له ابو الربيع الوسياني الذي يسميه ابا جعفر احمد بن خيران الحامي. عدة صفحات في ترجمته. وقال عنه انه كان «رجلا سخيا مجتهدا في العبادة». النسخة الخطية المحققة من سير شيوخ المغرب (ورقة 11ـ15).

(6) ترجم له الشماخي في السير باسم ابو اسماعيل بن ملال. ولعلها ان تكون غلطة مطبعية (راجع السير ص403).

(7) في الاصل: للامير. وهو تحريف.

(8) كذا في الاصل. وفي طبقات الدرجيني: تيناماطوس.

(9) ترجم له الشماخي في السير (ص394) مع ابي محمد عبد الله بن سورديسن وميمون بن حمودي بن زورزتين الوسيانيان. نقلا عن الدرجيني الذي يصنفهم ضمن علماء الطبقة التاسعة (سنة 450ـ500هـ) وقال عنهم انهم «علماء زمانهم وفخر لاخوانهم... درسوا علوم النظر واتقنوها ودونوها». راجع الطبقات (395/2ـ399).

(10) كذا في الاصل. ويلاحظ في الجملة اضطراب المعنى.

(11) في الاصل كلمة غير مفهومة: وتحراللموت.



اخبار ابي مسور سيجا بن يوجين اليهراساني، رضى الله عنه (1).

كان اول من اشتهر بالعلم من بين يهراسن، وكان تعلمه بجبل نفوسه، وانما اخذ العلم عن ابي معروف وابي زكرياء يحيى بن يونس السدراتي. وفي ابتداء تعلمه لم يكن بيده مال، وكان فقيرا (2) وربما اخذ شعيرا فيعطيه لمن يقليه له من الصبيان. فان لم يجد من يقلبه له، وضعه في طرف ثوبه فيرشه بالماء حتى يبتل، فيقتات به. وكان يتنحى الى جربة فيأكل فيها شعيره وقد استمر ذلك برهة من الدهر لم يفطن به احد فاذا جاء الى مجلس المشائخ يقعد في طرف الحلقة. فاذا صار اهل الحلقة يقومون يتقدم الى الامام حتى لا يبقى احد بين يديه، فيقعد بين يدي الشيخ، فيسأله ما دام قاعدا.

وكان حاله كذلك الى ان قعد ذات يوم في المجلس. فلما اراد الشيخ القيام، قام ابو مسور، فانحل العقد فانصب الشعير من طرف ثوبه على الحصير.

قال الشيخ، انكم معشر نفوسة لا ترفعون الا من رفعه الله.

قال، فابتدرت المشائخ فردوه الى رجل منهم يحسن القيام به ويتكفل بأموره، فحسن حال ابي مسور وتفرغ لطلبه وعزمه حتى ادرك من العلم ما قدره الله له.

فلما اراد المسير الى اهله. اجتهد في الكتب يكتبها، فنظر اليه رجل فقال له، انها تجارة بائرة، ي سيجا.

ثم انه تزوج في جبل نفوسة (من زوجته) التي ولدت له ابنه ابا زكرياء، فيصل بن ابي مسور. وكان سبب تزوجه لتلك المرأة، ان شيخا من شيوخ نفوسة بعث ابا مسور اليها ليخطبها عليه فاتاها ابو مسور وذكر ذلك، فأشارت اليه هو انها تريد تزوجه دون الذي ارسله.

فلما احس ذلك ابو مسور، رجع الى صاحبه، فقال له، انظر من ترسله غيري. فقال له الشيخ، لعلها تريدك قال، فمضى الشيخ الى المرأة فخطبها لابي مسور فتزوجها وتقدم بها الى جزيرة جربة.

وقد كانت جربة اذذاك، على مذهب خلف بن السمح، الانفرايسيرا، فدعاهم ابو مسور الى دعوة الاسلام، فاجابه بعضهم.

وكان رجل من زواغة يقال له خلف بن احمد، على مذهب النكار، يدعوهم اليه، فمن لم يجب ابا مسور، اجاب خلف بن احمد. وكان ذا مال كثير سخيا يمضي باحمال الدقيق يطعم الناس لكي يرجعوا الى مذهبه،

فلم يبق في الجزيرة على مذهب خلف بن السمح احد.

فاقام ابو مسور بجزيرة جربة وبنا بها المسجد المعروف اليوم بالمسجد الكبير لبني يهراسن ولم يتممه. فاتمه من بعده ابنه ابو زكرياء، فيصل بن ابي مسور، رضى الله عنهما.

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف، عن ابي عبد الله، محمد بن بكر(3) رضى الله عنهما، عن الشيخ ابي نوح، سعيد بن زنغيل، رضى الله عنه (انه كان) اذا سئل عن المشهور الذي تجوز ولايته لمن يتولاه بغير شهادة الامناء الا بشهرته وخبر العامة، يقول، مثل ابي خزر في افريقية، وابي مسور في جربه، وابي صالح، جنون بن يمريان في وارجلان رضى الله عنهم. ولابي مسور، رضى الله عنه، ولد يقال له ابو زكرياء فيصل، رضى الله عنهما. فقد حوى من الماثر والمناقب والفضائل والمراتب ما لم يبلغنا عن احد من اهل عصره.

وبلغنا عن ثلاثة من المشائخ تكلموا فيه، كل واحد منهم كلمة. قال احدهم، وهو ابو محمد، عبد الله ابن مانوج (4) رضى الله عنه: لو كان الوحي ينزل في هذا الزمان على احد، لاستحق ابو زكرياء ان ينزل عليه

وقال الاخر، وهو ابو عمران، موسى بن زكرياء، رضى الله عنه، لو كانت امامة المسلمين (قائمة) في هذا الزمان، لاستحقها ابو زكرياء .

وقال الثالث، وهو ابو عبد الله محمد بن بكم، رضى الله عنه، لو مسكت خصال الخير والبر كلها بيدك، فطلبت ان تزيده منها خصلة واحدة ليست فيه، لما وجدتها. وهؤلاء المشائخ تكلموا على افتراق الامكنة وبعد المواضع.

وكان ابو مسور، رضى الله عنه، اسن من ابي صالح بعشر سنين، وابو صالح اسن من ابي زكرياء بعشر سنين.

وكان تعليم ابي زكرياء، رضى الله عنه، بافريقية عند الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه.

وحدث غير واحد من اصحابنا ان ابا زكرياء ارسله ابوه الى نفزاوة ليمتار له التمر من بني يزمرتن في سنة ممحلة (5) ذات جدب وقحط.

قال، فتوجه ابو زكرياء الى نفزاوة. (6) فلما وصلها اجتمع اهلها من بني يزمرتن ومن بها من اهل الدعوة، فعبوا للشيخ احماله واقوروها تمرا. فانفذها ابو زكرياء، رضى الله عنه، الى ابيه وانفذ ايضا ما جاء به من الدنانير التي ارسله بها ابوه (لشراء) التمر، ثم عمد الى عمامته، فنزعها وباعها وامسك ثمنها لحوائجه.

وتوجه نحو الشيخ ابي خزر، رضى الله عنه، فمكث عنده ما شاء الله. فلما ذكر الشيخ ابو خزر الطلب بحق الشيخ ابي القاسم، رضى الله عنه،

والقيام بثأره، كر ابو زكرياء راجعا الى جربه، لينزع تبعاته ويودع اهله ويستأذن اباه، ابا مسور، رضى الله عنه.

فلما وصلها ونزع تبعاته وودع من اراد توديعه واستأذن اباه، فاذن له، وطلبه من قبله (اعفاءه) من جميع حقوقه. فقال له: احللتك من جميع حقوقي عليك، الا ما فعلت حين رددت الدنانير من نفزاوة ولم تكن حبستها لحوائجك.

قال، فخرج ابو زكرياء من جربة يريد ابا خزر، رضى الله عنه. فلما كان ببعض الطريق، سمع بخبرالشيخ ابي خزر، رضى الله عنه واصحابه وما كان اصابهم من الهزيمة، فرجع.

وبلغنا ان عامل المسودة جعل على بني يهراسن من الخراج شيئا. فقال له ابو زكرياء اقل من ذلك، فجعله عليهم العامل. وبعد (ذلك) فكر الشيخ فيما فعل، فانفق مثل ذلك على الفقراء.

وبلغنا عن العامل ايضا انه اخذ رجلا من الحضر في جزيرة جربه. فشفع فيه ابو زكرياء، رضى الله عنه، فشفعه وتركه.

ثم ان الحضري بعث الى الشيخ قميصا مستعملا، فأبىالشيخ اخذه.فقال له الحضري، يا شيخ اعطني ما اشتريت به ولا اترك لك الا قيمة الخياطة. فاني خيطته بيدي، فأبى اخذه.

وبلغنا عن ابي زكرياء انه قال: اذا قحطت الارض تنال الجنة بقبضة من طعام. واذا قحط الاسلام، تنال الجنة بكلمة حق تقال. وقحط الاسلام اشد من قحط الطعام، وقد اجتمعا كلاهما في زماننا هذا.

وبلغنا عن ابي زكرياء انه قال، ما علمنا كيف نتكلم ولا كيف نسكت. مع ما بلغه من العلم والحلم والصبر في امور الدين. وقد قالوا لو ان احدا يوضع من حكمه منطقه دواوين، لكان هو ابو زكرياء.. رضى الله عنه .

وحدث ابو زكرياء يحيى ابن ابي زكرياء(7) رضى الله عنه، قال، اجتمع ابو زكرياء مع شيخ من شيوخ النكار من ملأ من زواغة (8) وفيه الوهبية والنكار، فجرى بينهم كلام الى ان قال له النكار، يا ابا زكرياء، نحن وانتم، كلنا نكار.(ف) إنّاقد انكرنا على علي بن ابي طالب ما فعل من التحكيم. (وقد) اراد النكارى ان يلبس على الضعفاء بذلك (متى) وقع في مسامع العامة. فان سكت ابو زكرياء ولم ينقم عليه، لزم الفريقين اسم النكار، ففطن به الشيخ وعلم انه من بعض مكائدهم.

فقال له ابو زكرياء (أما انا) فلست بنكار، فافحمه وخيب الله كيد النكار، فتعجب الناس من فراسة الشيخ ابي محمد وبديهته، حتى قال قائل من زواغه: فلان يحتال على ابي زكرياء وابو زكرياء قائم على نفسه.

وبلغنا ان ابا محمد كموس (9) مرض في اخر عمره، فطاف به الشيطان

واخطر له بالبال: كيف ربه ومن اي شيء (خلق)، حتى كاد الشيخ ابو محمد يهلك.

فقال لأبي القاسم يونس بن ابي زكرياء (10) رضى الله عنه، ائتني، بابيك، يا يونس، وعجل علي ! فأن الشيطان كاد يهلكني على ضعفي وكبري، واولع بي في اخر عمري.

قال. فاسرع ابو القاسم السير الى ابيه، فاخبره بخبر ابي محمد، فاقبل اليه ابو زكرياء مسرعا، تارة يمشي وتارة يسعى ويتوكأ احيانا على ابنه حتى قدم عليه، فقال له ابو محمد، هلم الي حبيبي، فان الشيطان مولع بي ويخيل الي ان اكيف ربي ويخطر لي بالبال ما اخاف ان يهلكني. فقال له ابو زكرياء، رضى الله عنه، اعلم ان كل ما يخطر ببالك، او يتمثل في وهمك او يخطر بقلبك ويتلقاه ذهنك (هو) من خلق الله، ولا يخطر بالبال الا ما ادركته الحواس، او ما يشبه بما ادركته الحواس. فالله يتعالى عن شبه الاشياء. وقد قيل في بعض الاثار، ان نفي هذه الخواطر عن الله تعالى، محض التوحيد.

فقال له ابو محمد، فرجت علي اجرك الله، يا أبا زكرياء. وبلغنا ان ابا محمد استخرج لابي زكرياء شيئا من لحم الغنم مطبوخا بالبارحة من يومه ذلك في اخر النهار، فقال ابو محمد لابي زكرياء، كل، والح عليه، وكان ابو زكرياء صائما ولم يرد ان يفطر، في اخر النهار. فقال له ابو زكرياء، يا شيخ، اني صائم، ولست اكل، وقد مضى جل النهار، فالح عليه ابو محمد، فاخذ منه ابو زكرياء فأكل لموافقة نفس الشيخ، فادخل عليه السرور.

وكان ابو زكرياء، رضى الله عنه (يشكو) من مرض يهيجه عليه اكل لحم العنز واللحم المطبوخ الذي بات. فلما اكله تطييبا لنفس الشيخ، ابرأه الله من ذلك المرض ولم يره بعد ذلك.

وبلغنا عنه انه رأى في منامه ان واقفا وقف عليه، وقال له ان موافقتك لمراد الشيخ ابي محمد، وطيب نفسه، وادخال السرور عليه، افضل من عبادة سنة.

(وبعد ذلك) كان ابو زكرياء يأكل لحم العنز ولا يضره، و(كذلك) اللحم المطبوخ الذي بات، و(قد) استراح من علته.

وسئل ابو محمد في اخر عمره عن احواله، فتلا هذه الاية: «ومن نعمره ننكسه في الخلق افلا تعقلون»

وبلغنا ان امرأة سائلة وقفت الى ابي زكرياء، رضى الله عنه تسأله شيئا من الزيت تدهن به رأسها، وقد اخذ بها الشعث. فاخذ طنجرة ليجعل لها فيها الزيت ففك عن الخابية، فراها تنظر الى ما اعطاه الله من السعة

وكثرة ما عنده، فصار يصب في الطنجرة وعيناه تهملان دموعا، وهو يقول: بالله، ليس بيننا وبينك نسب تعطينا دون غيرنا، ولكن برحمتك يا ارحم الراحمين.

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، ان ابا زكرياء، **رضى الله عنه، خرج في بعض حوائجه فجاز على منزل موسى بن الارث (11)في وقت، فوجده لم يكن به، فخرجت اليه امرأة موسى، ولم تكن تعرفه،** فقالت من انت ؟ فقال انا ضيف. فقالت له. ما اسمك ؟ فقال لها فيصل. فقالت له: الاضياف على منازل. منهم المقربون باللحم. ومنهم بالادام، ومنهم من لا يجعل له الادام.

فقال لها ابو زكرياء، اجعليني بالاوسط، صاحب الادام. ثم انها اضافته بالزيت.

فخرج ابو زكرياء، وجاء بعلها، موسى بن الارث، فاخبرته خبره. فقال لها زوجها: ويحك! ذلك ابو زكرياء.

وبلغنا ان ابا زكرياء، رضى الله عنه، استودع عنده رجل من الحضر وديعة - وهو من اهل سفاقس - دنانير، فأبى ان يضعها عنده. فالح عليه الحضري ورغب في ذلك، فانعم له، وطلب ان يعطيها له. فاعطاها له. فخرج السفاقسي ومضى لسبيله.

فلما حان وقت الزكاة، اخرج عليها الزكاة من ماله، وكان ذلك زمناً. فطالت غيبة السفاقسي، صاحب المال عنه، فاطال الشيخ البحث عن اخباره، فسمع بالمجاعة من بلد الحضْري، وهو سفاقس، وكان ذلك في حين يتعذر فيه ركوب البحر، فركب ابو زكرياء، ومضى بالوديعة متوجها الى سفاقس (12) فطيب الله البحر.

فلما خرج من البحر الى مدينة سفاقس، سأل عن الرجل فاخبر بداره، فاستأذن عليه، فوجده (وقد ألَم) به الجوع، فخرج الى السوق، فاستلف من اهل السوق حوالي اربعة دنانير، فاشترى له بها طعاما، فراه على شفا الهلاك، فصار يطعمه حتى انقذه من التهلكة.

فلما أفاق مما به، وتفتحت عيناه، قال (له) الشيخ ابو زكرياء، رضى الله عنه، ما اقدمك، يا شيخ؟

قال، قدمت لي وديعتك، ها هي، هذه، خذها. قال فطالبه السفاقسي ان يقاسمه فيها، فأبى ابو زكرياء، رضى الله عنه، ورجع الى جربه، وقال، لو سنح بخاطري قبل دفعي الزكاة، لدفعتها منها.

وكان الشيخ ابو زكرياء، رضى الله عنه، حين وجه ابنيه، زكرياء ويوسف، وابن اخته، ابا بكر بن يحيى واخوته، رضى الله عنهم، الى ابي عبد الله، محمد بن بكر، رضى الله عنه، رد ابو زكرياء ابن اخته، سعيد بن

يحيى، اخا ابي بكر بن يحيى، وكان يخدمه ويقوم عليه ويستفيد منه.

وقال ابو زكرياء، ان سعيدا لا يبادلهم، يريد ابنيه وابن اخته ابا بكر، في مسيرهم الى ابي عبد الله، محمد ابن بكر، رضى الله عنه (فرأى) قعود سعيد عنده.

وكان ابو زكرياء (قد) تعود الصلاة في موضع معلوم، فاذا طلع الفجر، نظروا الى الموضع الذي يصلي فيه، فاذا هو قد ابتل بالدموع، كأنما توضأ فيه احد من الناس.

وبلغنا ان الليلة التي مات فيها ابو زكرياء، رضى الله عنه، وهي في رمضان، وكان ابنه زكرياء قدام الناس في قيام رمضان، فسمعوا صوت امه وهي تقول: مات سيدي، ابو زكرياء، فبهت الناس وتحيروا، وذهب كل منهم في وجهته فانتقضت عليهم الصلاة، الا زكرياء ابنه، فانه اقبل على صلاته حتى اتمها.

وبلغنا ان عامل المسودة، سأل عن ابي زكرياء، فقيل له مات، فقال: امضوا بي الى قبره، فمضوا به الى قبره، فقال، عاش حميدا، ومات فقيدا. اللهم اخلف على جربة بعده. وقال ايضا، مات امرؤ علم انه سيموت.

وحدث زكرياء ابنه، فقال، انه ما مثل ابي زكرياء في اخر عمره، الا كمثل دابة مثقلة، رأت موضعا تحط فيه ثقلها، فاسرعت اليه. وقال ايضا: مثل موضع يركع فيه ابو زكرياء الا كموضع توضأ فيه انسان.

وبلغنا ان زكرياء واخاه يونس، رضى الله عنهما، توجها الى الحج، فلما كانا ببعض الطريق، وقد اضر بهما السير، وانهكهما السفر، نام زكرياء وتخلف عن الرفقة.

فلما انتبه من منامه، دعا الله بهذا الدعاء، فقال:

«يا صاحب كمل عريب، ويا مؤنس كل وحيد، ويا قريبا غير بعيد، اجعل لي من سفري هذا فرجا ومخرجا»، فرفع رأسه ونظر امامه الى عمود من نور ساطع في الهواء، فتيممه ومشى حتى وصل الى الرفقة، فوجد اصحابه متحيرين من اجله.

وبلغنا انهم رقدوا ذات ليلة في طريقهم ذلك وقد اشتمل زكرياء سيوفهم، اذ غشيهم بعض السلابة، فانتبهوا، فصاح يونس الى اخيه: اعطني السيف يأخي مرتين، فمد ابو القاسم يده بحيال رجلي اخيه زكرياء، فامكنه الله من قائم السيف، فضرب به واحدا (من السلابة) فقده نصفين، فلم يجاوزه واحد منهم.

وبلغنا ان ابا القاسم يونس، رضى الله عنه، نام ذات ليلة بطريقهم ذلك، اذ تنبه، وقد جاوزتهم الرفقة. ثم ان جماعة من اهل الرفقة مضوا عنه قليلا، فرقدوا. فلما انتبهوا، اخذوا في اثر الرفقة، حتى مر بهم ابو القاسم

يونس، وكان يقطعهم فوجا فوجا، وقد طال مكثهم خلف الرفقة، فجاز برجل قد ادركه العيا خلف الرفقة وتورمت قدماه وانتفخت رجلاه، ومعه صرة دنانير.

فلما نظر الى الشيخ. اعجبته هيئته، فقال له، ان معي صرة دنانير وقد اشرفت على الهلاك.فدونكها. فخذها، فانت اولى بها من غيرك، فأبى الشيخ اخذها، فالح عليه الرجل. فقال له، خذها، فانت اولى بها من غيرك من هؤلاء الصامدة (؟) فاخذها منه، وتوجه نحو الرفقة حتى وصلها، فخلف الرجل خلفه. ثم ان اهل الرفقة نزلوا واخذوا الرجل في اثرهم، تارة يمشي وتارة يستريح. فبات فيها واستراح.

فلما كان الغد، ارتحل المسافرون وارتحل معهم، ووجد من نفسه قوة وتذكرت نفسه صرته، فصار ينظر في وجوه الرجال ويتكشف عن خبر صرته بين المسافرين، ويسأل ويبحث وينظر. فنظر اليه الشيخ أبي القاسم، رضى الله عنه وقد تغير وجهه، فقال له، ما الذي اصابك؟ فقال الرجل، قصتي كذا وكذا. فقال له ابو القاسم، اعطيتها له او اخذها منك بغضب؟ فقال الرجل، بل اعطيتها له.

فقال ابو القاسم، اتعقله؟ فقال له، لست اعقله، الا انه وسيم طويل مثلك. فقال له، اتعقل الصرة؟

فلما نظر اليها لم يتمالك، ودفعها اليه، فصاح وقال: والله ما هو الا مسلم، والله ما هو الا مسلم، فكررها مرارا، فصار يسعى في رجلان المسافرين، ويقول، هذا ما فعله، هذا ما فعله ! والله ما هو الا مسلم !

(1) ترجم له الدرجيني باسم ابي مسور بن وجين اليراسني. بعد ابي خزر وابي نوح. وقال عنه انه اول من اشتهر من بني يراسن بالعلوم. وكان تعلمه بجبل نفوسة. ويلاحظ ان معظم مادة الدرجيني في هذه الترجمة. منقول عن ابي زكرياء حرفيا في كثير من الحالات. راجع الطبقات(157/1) وما يليها. وكذلك فهرست الجزء الثاني) الشماخي (ص230ـ232) وكذلك تسمية شيوخ نفوسة (ص21/ تعليق 5اص 37).

(2) كذا في الاصل: الاولى قراءة: مقتر.

(3) راجع ترجمته في طبقات الدرجيني(377/2)وفي سير الشماخي (ص384). ترجم له ابو الربيع الوسياني ترجمة طويلة في سير مشائخ المغرب. النسخة المحققة (ورقة 28و44).

(4) راجع ترجمته في سير الشماخي (ص396) وترجم له ابو الربيع الوسياني في سير مشائخ المغرب ترجمة وافية تقع في عدة صفحات. النسخة الخطية المحققة (ورقة 2ـ8).

(5) في الاصل: محيلة.

(6) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور لنفزاوة في كتابنا. المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي.

(7) راجع ترجمة وافية له في طبقات الدرجيني (448/2 وما يليها) وفي سير الشماخي (ص427و437)

(8) تقع مدينة زواغة غربي طرابلس وتبعد عنها بحوالي خمسين كيلومترا. على شاطىء البحر. وزواغة هي التي تحمل اليوم اسم صبراته. وقد كانت زواغة قاعدة للبادية التي تمتد من السهل المنبسط بين البحر والجبل والذي اشتهر بثروته الزراعية والحيوانية. وفي زواغة نشأ عدد من علماء الاباضية: وفي مقدمتهم ابو الخطاب ووسيل بن سنتين وابو موسى عيسى بن السمح ويزيد بن يخلف. راجع عن زواغة الادريسي (ص113) البكري (الفهرست).

(9) ترجم له الشماخي في السير باسم ابي محمد كاموس الزواغي. وقد اورد ما ذكر ابو زكرياء عنه. راجع السير (ص 470ـ471)

(10) ترجم له الشماخي في السير باسم ابي القاسم يونس بن ابي الحسن. راجع السير (ص419). وصنفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة التاسعة وترجم له مع ابي يحيى زكرياء. راجع الطبقات (393/2ـ395)

(11) كذا في الاصل. وفي طبقات الدرجيني: موسى بن الارب.

(12) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العهود لمدينة سفاقس في كتابنا. المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي.



(1) اخبار الشيخ ابي عبد الله محمد بن بكر رضى الله عنه وقعوده في الحلقة

وكان تعليمه على الشيخ ابي نوح، سعيد بن زنغل وعند ابي زكرياء فيصل بن ابي مسور، رحمهما الله.

وبلغنا انه نظر اليه ذات يوم ابو نوح سعيد بن زنغيل، رضى الله عنه. فقال: ان كنت افهم شيئا، فان هذا الفتى هو الذي يحيى دين الله.

فلما بلغ من العلم ما قدر الله له، ومات ابو نوح، رضى الله عنه. توجه نحو القيروان وتعلم بها النحو والعربية. فلما صدر عن القيروان، قعد للحلقة.

وسبب قعوده، حدث به ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه. عن ابي يحيى، زكرياء بن ابي زكرياء، رضى الله عنه. وذلك ان ابا زكرياء فيصل، ارسل ابنيه زكرياء ويونس وابن اخته، ابا بكر بن يحيى وغيرهم ممن خرج معهم الى الشيخ ابي عبد الله، محمد بن بكر، رضى الله عنه. فقال لهم ابو زكرياء، رضى الله عنه، حين ارسلهم اليه: امضوا اليه. فان انتم وجدتموه، فكونوا معه، ولو في شغل دنياه. قال فخرجوا من جربة متوجهين نحوه، فلما وصلوا الى جبال تمولست (وجدوا ان) ليس بها اذذاك من اهل الدعوة احد، وانما تغيروا ورجعوا الى اهل الدعوة الا يصليتين، عم ابي الربيع ، سليمان بن يخلف رضى الله عنه.

قال ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، قال زكرياء بن ابي زكرياء، رضى الله عنه، ان اهل تمولست قد تغيروا اذذاك، وليس بهما الايصليتين، عمك، والنساء والاطفال، واخذنا على جبالها، وعدلنا عنها، الى امدو، فسمع بنا عمك، يصليتين، فلحقنا في امدو فطلبنا ان نرجع الى تمولست، فأبينا عليه، واستقصا علينا، فلم نجبه بالرجوع واعتذرنا له بالتعجيل وانا قد جاوزناها بعد.

فلما رآنا يصليتين كذلك، قال لنا، فأما اذا لم تفعلوا فأني راجع، وليس بها من اهل الدعوة الا انا، والنساء والاطفال، ارجع واخذ بايديهم.

فلما سمعنا منه (ذلك) اجبناه الى الرجوع الى تمولست. قال فسرنا معه، فلما وصلناها ومكثنا فيها ما شاء الله، وكان يصليتين يأتينا بالعشاء والغداء ومعه النساء والاطفال، فتقول النساء والاطفال: هذا دينكم وهؤلاء اهل دينكم، ثم انا خرجنا من تمولست، فمضينا، فلم ندر اين نصادف الشيخ ابا عبد الله في البلاد.

فلما وصلنا الى تيقيوس، التقينا مع الشيخ ابي عبد الله محمد بن بكر، رضى الله عنه، كما جاء من القيروان (حيث كان) يتعلم النحو والعربية، يريد المسير الى ابي عمران، موسى ابن ابي زكرياء، رضى الله عنه، بتجديت، ليتعلم عنده الفقه. وكانوا قبل ذلك لا يدرون اين يصيبونه ولا اين يطلبونه، فوفقهم الله.

وذكر ابو الربيع سليمان عن ابي يحيى، زكرياء، رضى الله عنهما، قال، وما ظننت مصادفتنا له، لاننا لا نعرف موضعا هو فيه، الا بموافقتنا ليصليتين وادخال السرور عليه وعلى النساء والاطفال.

ثم انهم كلموا الشيخ ابا عبد الله ان يقعد لهم في الحلقة، فابى لهم ذلك وامتنع ومكثوا يراودونه ما شاء الله، فأبا عليهم حتى كادوا ان ييئسوا منه.

وبلغنا انهم قعدوا معه ذات مرة قدام مسجد المنية يراودونه ويطلبونه اذ خرج رجلان من تيقيوس، شيع احدهما صاحبه. وهو يريد طريق الحامة.

فلما افترقا نادى احدهما صاحبه وقال: اسمع يا فلان، قال، فالتفت اليه وقال: اجعلها لله! فمن جعلها لله فلا تضيع. فلما سمعوا تلك المقالة تفاءلوا بها وعطفه ذلك عليهم، فاجابهم، على شرط الا يسأل ولا يجيب، حتى تمضي اربعة اشهر.

ومكثوا في تيقوس ما شاء الله، (وهو) لا يسأل ولا يجيب. وكان ذلك في السنة التي تحركت فيها زناته مع صنهاجه من ناحية طرابلس (2) وهي تسمى (سنة) هزيمة الابراج وكثرة الزلازل في الارض، حتى (اصبح) لا يستقيم لهم شيء.

فقال لهم الشيخ: انا ههنا أناس رقاق القلوب، وارجو ان ينجع فيهم الاسلام، وينبت فيهم الخير، فهل لكم ان تنتقلوا اليهم، وهم بنو مغراوة؟ فأجابوه الى ذلك مسرورين مغتبطين.

فارسل الشيخ الى ابي القاسم بن ورقون الويلي، ومن معه، يعلمهم بقدومه الى ناحيتهم وان يهيئوا له غارا يجتمع فيه التلاميذ للحلقة والعزم.

فأخذ ابو القاسم في حفر الغار، فحفره، فقدم الشيخ ابو عبد الله وتلاميذه.

وهذا هو السبب الذي قعدت عليه الحلقة.

ثم انه كان من عادته، اذا قعد للحلقة، اذا ختموا وارادوا القيام ان يدعو الشيخ بواحد من تلاميذه فيقرأ عليه المواعظ قليلا، فيقوم الشيخ.

وعند ذلك، انتقل الى بني يسلى وانتقل معه تلاميذه وكانوا يكابدون

مؤونة العيش لانفسهم واجتهدوا غاية الاجتهاد في عزمهم.

وكان الشيخ يشتى في اريغ ويربع في البراري عند بني مصعب (3) وغيرهم وكانوا اذذاك واصلية، فرد بعضهم الى الوهبية.

وبلغنا انه سأل رجل من بني مصعب، فقال له يا شيخ اي شيء من الغنم اعطى لصدقة مالي؟

فضرب له الشيخ مثلا فقال ما تقول فيمن اعطاك اربعين شاة ثم بعد ذلك سألك ان تعطيه شاة واحدة، ايها تعطى؟ قال الرجل احسنها.

فقال له الشيخ، ان الله هو الذي اعطاك اربعين شاة. فاخرج للصدقة احسنها.

وسأله رجل من بني مصعب عن رجل اختلط ماله بحرام كان عنده. افيأكل من ماله شيئا ام لا؟

فضرب له الشيخ مثلا. فقال أرأيت جحرا رأيت فيه فارا ويربوعا دخلته حية، اكنت تدخل يدك لتخرج الفأر او البربوع؟ قال له. لا! مخافة الحية.

وبلغنا عنه انه توزجه الى قصطالية. فأراد المسير منها الى طرابلس. فاجتمع عليه كثير من الناس، فوقع في نفسه مخافة من ناحية المخالفين حتى قيل انه تا (...).

ثم انه استغفلهم ، فأعطى لواحد من تلامذته بغلته فاخذ بها طريقا، واعطى للاخر سرجها فاخذ به طريقا آخر، واخذ الآخر بيده وفرقهم على الطرق واتعد معهم في موضع معين.

فلما ابتعدوا عن الناس، اجتمعوا فشدوا السرج على البغلة، فركب ولم يكن معهم يومئذ زاد غير انهم، مرّوا برجل، فدفع لهم طابق شاة لحم فتزودوا به، فسار الشيخ واصحابه. فلما وصلوا الى قريب من تمولست، ولم يصلوها، وابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، مقبل من الحي، وهم في الربيع، في موضع يقال له ميركين (4) هو ومحمد بن عيسى بن ابراهيم الهواري، متوجها الى تمولست، فرأوا بغلة الشيخ فعقلاه فقصدا نحوه، فوجداه هو، فصافحاه هو ومن معه. وكان ممن معه عيسى بن ابراهيم المذكور اولا وابو الربيع، فجلبوهم الى الحي وصافحوهم. فقال عيسى بن ابراهيم لابي الربيع، اجعل لمحمد سهما من الاجر. فقال له ابو الربيع، قد فعلت عنا. انه اراد ابنه. فقال له عيسى بن ابراهيم انما عني لك محمد بن بكر.

فلما فرغوا من العشاء، جعلوا عليه المجلس في المسائل، قال الشيخ ابو الربيع، فقعدنا حتى عيينا، فقمنا، فدنت اليه النسوة، وفيهن ام البخت، واختها، وكانت ام البخت تدعي المسائل وقراءة الكتب، فجعل

عليه النسوان المجلس في المسائل والمواعظ، حتى طلع الفجر. فقالت ام البخت لابي الربيع، وهي ابنة خاله: لاجل هذه الفوائد طالت غيبتك عنا، يا سليمان.

فجاءه بليس بن سندي، فصافح الشيخ، فسأل عنه ابو عبد الله محمد بن بكر، رضى الله عنه، فاخبر به، فقال الشيخ: هو صاحبنا قبل هذا. فقال له الشيخ، نعم، انت في واد ونحن في واد.

ثم ان ابا الربيع وبليس المذكور، اراد ان يبشرا شيوخ لماية، فتوجها نحو لماية، يبشرانهم بقدوم الشيخ ابي عبد الله، محمد بن بكر، رضى الله عنه. فقال بليس لابي الربيع حين سارا ان يبشرا لماية: اجعل لي سهما من الاجر في بشارتك للشيوخ، بقدوم الشيخ، وذلك من حسن ادبه وسياسته، فبشرهم ابو الربيع وبليس معه، فتاهيئوا لمسير الشيخ الى لماية وغيرهم: (وهناك) اجتمع عليهم الشيوخ، وفيهم عبد الله بن الامير وابو محمد وارسفلاس، وكان ابو محمدوارسفلاس عالما كبيرا، فاذا سئل الشيخ ابو عبد الله بن بكر، رضى الله عنه، عن مسألة من الفقه، يردها الى ابي محمد، عبد الله بن الامير، رضى الله عنه.

وكان ابو محمد عبد الله قليل الجواب يتوقف في اكثر المسائل. فقال الشيخ ابو محمد وارسفلاس للشيخ ابي عبد الله محمد بن بكر، رضى الله عنه: اجب للناس، ليس لك عند ابي محمد عبد الله الجواب.

فمضى الشيخ، فلما دخل جربه، اسرع المسير حتى وصل الى المسجد الكبير عند بني يهراسن، وصافحهم، ومكث ما مكث، فاراد الخروج، فقربت دابته للركوب، وابتدره الناس ليمسكوا له الركاب، وابتدره معهم ابو نوح، صالح بن صالح ليمسك ركابه، فأبى الناس عليه ذلك. فقال لهم الشيخ ابو عبد الله محمد بن بكر، رضى الله عنه، دعوه، فمسك له الركاب، فتمثل الشيخ ابو عبد الله، محمد بن بكر، رضى الله عنه ببيتين من الشعر، فقال:

لله ايام الشباب وعصره   لو يستعار جديدهم فيعار
ما كان اقصر ليله ونهاره   وكذلك ايام الشباب قصار

ثم خرج الشيخ فجاز بتباحالت على الشيخ عمروس، فاستمسك به ليضيفه، فنزل عنده الشيخ ابو عبد الله، فذبح له عمروس خروفين كبيرين.

وبلغنا ان خروفا منهما، اراد رجل اخذه، فتطاول الخروف فوقف على احدى رجليه، فكانت قامته كقامة الرجل. فلما ذبحوهما وطبخوهما، قدموا الشيخ اللحم منهما.

وحدث عن جابر بن عمار، قال كنت اختار للشيخ مطايبهما فنظر الشيخ الى سمنهما، فقال: كيف يكون قلب من يأكل هذا من ماله. فكيف من مال غيره، ثم ان الشيخ كر راجعا الى اريغ.

وبلغنا عن عبد الله بن مانوج، رضى الله عنه، انه قال: عجبا لهذا النفوسي واصحابه، كمثل الحواريين لعيسى بن مريم عليه السلام.

وبلغنا عن الشيخ ابي عبد الله، محمد بن بكر، رضى الله عنه، حين زار اهل ورجلان، ودخل على الشيخ ابي عبد الله، محمد السدراتي، رضى الله عنه، الذي ولاه اهل ورجلان امورهم. فعندما كبر ولزم بيته، تنحى عن امورهم، فقال لهم ابو عبد الله السدراتي، رضى الله عنه: يا محمد، تقولون خير الرعاة راع ساوى بين القوي والضعيف. فسكت الشيخ ابو عبد الله، محمد بن زكرياء، رضى الله عنه، ثم قال:

اليس يقولون، اصطحب الناس على المكروهات لئلا تفترقوا؟

فقال الشيخ ابو عبد الله، محمد بن بكر، رضى الله عنه، في اي ذلك، يا شيخ؟ في امور الدين ام في امور الدنيا؟

فقال له ابو عبد الله محمد السدراتي، قد انتهى علمي الى هنا. وما تقول انت؟

فقال له، انما ذلك في امور الدنيا، للنزول للمسافرين والارتحال وحسن المعاشرة وقلة الاختلاف، ومثل ذلك. واما امور الدين، فلو كان ذلك يسعها، ما فرق الاوائل ائمتهم حتى قتلوا، ولم يستهلك اهل نهروان (5) انفسهم في امور مع القدرة (مثل) عبد الله بن يحيى الكندي والمختار ابن عوف (6) رضى الله عنهم اجمعين.

ثم قال ابو عبد الله، محمد بن بكر، رضى الله عنه، يا شيخ، لا تطمئن الى كثرة من يدخل عليك لئلا يقال عليك ما لا تقوله.

فقال له ابو عبد الله السدراتي: من اتاني زائرا، فاجره على الله، ومن قال علي ما لم اقله، فالله حسيبه.

وبلغنا عن الشيخ ابي عبد الله (7) محمد بن بكر، رضى الله عنه، انه ولد له اول مولود، فاراد الناس ان يولموا له، فأبى ذلك وامتنع عنه. فكلمته امرأة ابي القاسم، يونس بن ورجون الوليلي، فقالت له: ولو نحن، يا شيخ! اتجعلنا مثل غيرنا من الناس؟

وانما قالت له ذلك، للذي بينه وبين الشيخ ابي القاسم من المودة والنصيحة.

فقال لها الشيخ: لا، لست افعل، اصيب يدي فوق، فاردها الى اسفل.

انما اراد بذلك، قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «اليد العليا خير من اليد السفلى». وانما ذلك في الاعطاء والصدقة. والشيخ يجعل لها

وليس يريد ما يأتي من قبلها لئلا يصير مكافأة لما يجعل لها فيحرج.

وكان الشيخ قد اعطاه الله فراسة وبصيرة لا يكاد يسبق (تنبؤه) بشيء الا كان.

وحدث يعقوب بن ابي القاسم، قال قعدت عند الشيخ ذات مرة بتين يسلى، اذ سمع باخبار جماعة من بني درجين مقبلة اليه يزورونه، فسألنا عن شاة لحم بالشراء، فقلت لست اعلم عند احد شاة الا شاة واحدة عند عجوز في اجلو، فقال انبتين يسلى يصيب رزقها (؟).

فقام ودخل العريش، فرقد هنيهة، ثم قال لي، قم يا يعقوب، انظر الى ناحية القبلة.

قال، فقمت فنظرت، فلم ار شيئا، فرجعت وقعدت هنيهة، فقال لي، قم فتطلع، فقمت فنظرت وقلت له ارى شخصا.

فقال، فانظر، هل كان معه شيء؟ فنظرت فقلت له، ارى معه شيئا يخرج احيانا من الطريق ويدخل احيانا فتربصت له قليلا، فقمت اليه، فوجدته رجلا من بني ويليل ومعه شاة فدفعها للشيخ، فجاء جماعة من بني درجين، فذبحها لهم.

وحدث يعقوب بن ابي القاسم، قال، كنت ذات مرة عند الشيخ فقال لي، قم، وامر الرومي ان يزيد في غدائنا. قال فقمت وامرته ان يزيد في غدائنا، فزاد فيه، فقعدت عنده مليا، فقال لي، قم وانظر الى ناحية الشمال، هل ترى شيئا؟

قال فقمت فنظرت الى بغلة عليها راكبها، فجئت اليه فاخبرته، فقعدت قليلا، فرجعت، فوجدته هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن الخير، رضى الله عنه، فنزل عن بغلته فصار يشكلها، فأتى الى الشيخ، فسلم عليه وناجاني الشيخ وامرني ان امر الرومي ليزيد في غدائنا، فنظر اليه الشيخ ابو عبد الله محمد بن الخير، رضى الله عنه، فقال: كأني اعرف ما تقولان. اصبرا ها هنا شيء حاضر، فنزع خرجه، فاذا فيه طعام مطبوخ.

فقال الشيخ، قم الى الرومي وقل له ان يترك لئلا يفسد الطعام.

وروى بعض اصحابنا انه جاء ته اضياف ولم يكن عنده ما يذبح لهم، وكانت غنمه في البراري، فقعدت قليلا، فقال لمن عمه: انظر ان كان في العريش شيء.

قال، فتطلع، فوجد في العريش كبشا كبيرا، فأخذه فذبحه. فلما قدموا على رعاة غنمه، سألوهم عن (حال) الغنم، فقالوا، ما علينا من بأس سوى ان الكبش الكبير دارت عليه زوبعة الريح فتغيب ولم نعرف موضعه.

وحدث ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، قال، كنت عند الشيخ ذات مرة (وكان) له عمال يعملون، فقدم اليهم يسيرا ليأكلوه، فقال

لي الشيخ: كل معهم، يا سليمان.

فابيت. فقال لي ان من تطوع لحسن. فاردت ان اقول له: ولو فيما لا ينبغي؟ فسكتت.

فقال لي يا سليمان، ان ذلك مما لا ينبغي. فاخبرني عما اخفيته في نفسي. قبل ان اذكره.

وحدث غير واحد من اصحابنا انه كانت عنده امرأة مهتمة بامور لتلامذة، كثيرة العناية بهم، في زمان الشيخ، فتزوجها واحد فتغيب عنها في ناحية طرابلس، في احياء زناتة، فاضر بها ذلك.

وبلغ الشيخ غيبة زوجها عنها واضراره بها. فبعث الشيخ رجلين. احدهما (هو) علي بن يعقوب السيتني (والاخر هو) عمر بن يحيى الويليلي في شأنها. (فلما) استوثقا من عندها توجها نحو طرابلس.

فلما وصلا الى الرجل خلصاها منه وكرا راجعين. ومضى علي بن يعقوب الى نفوسه، ورجع عمرو بن يحيى الى اريع.

ثم ان علي بن يعقوب لما وصل الى جبل نفوسة، اخذ على تلك الناحية، فبات بقرية خاملة (8) الذكر في الجبل. فيها عجوز ذات علم يجتمع عليها اهل تلك القرية يستفتونها.وكان في بيت العجوز مصلى.

قال علي بن يعقوب فصليت فيه صلاة الصبح مع اهل المنزل. فتفرق الناس وبقيت وحدي وقعدت في موضع اقرأ فيه من القران ما تيسر الى ان غلبني النوم، فنبهتني قراءه (ولكني) لا أرى شخصا قارئا بها قبل طلوع الشمس، فحسست حس تحريك ثياب جديدة، ففزعت، فتكلم لي، فقال: لا تفزع، انا رجل من الجن. فسألته عن الاخبار، فاخبرني بكثير مما سألته عنه. وسألني، فيم امشي، فاخبرته بخبر الشيخ والمرأة وزوجها. فسألني، فقال، كيف ولايتكم لنا وولايتنا لكم. فرددت اليه المسألة. فقال. اما ولايتنا لكم، فبالاشخاص، واما ولايتكم لنا، فبالجملة. فسمعت العجوز. فقالت متعجبة: سبحان الله، سبحان الله!

ثم اني اشتكيت اليه امر الخوف في الطريق، فقال لي: تعلم هذه الاية: «قل امنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل».الاية كلها، فاخذ يعلمني اياها، فيقرأ واتبعه ويكررها حتى حفظتها، فقال لي: اعد علي، فاعدت عليه.: فقال لي: حفظت.

ثم قال لي، ان لنا بالجزيرة موعدا نجتمع فيه يومنا هذا، وهو موضع بجبل نفوسة، اريد ان احضره، وانا راجع اليك، ان شاء الله، فلا تغيب وجهك عن هذا المكان، وانا راجع اليك، ان شاء الله. فقلت، نعم.

(وبينما) نحن في ذلك اذ طلعت الشمس، فقال لي: تكلم، ادع الله، فرددت اليه، فقال لي، بل انتم الافضل، فادع. فدعوت، فلما فرغت من

دعائي، اخذ هو ايضا في الدعاء، والعجوز بحذائنا تسمع كلا منا.

فلما فرغ، قال لها: زيدي، يا مرأة، فتكلمت، فقال: سبحان الله، سبحان الله!

ثم انه مضى علي وانتشر الخبر في تلك القرية ان جنيا تكلم الى رجل من الانس، فتنحيت على الناس، فدخلت قرية بحذاء تلك القرية، فنمت فيها.

فلما انتبهت، اتيت الى العجوز، فسلمت عليها، وسألتها عن الخبر، فقالت لي: اين تغيبت؟ وقد جاءني الجني، صاحبك، بعدك، فدخل علي فسألني عنك، فقلت لا ادري فرمي علي بحصيات، فقال لي، ان جاء بعدي، فادفعها اليه.

قال علي، فاخذتها، فوجدت عليها خطا رقيقا لا اكاد اتبينه، فمضيت واشتريت من تلك البلاد كساة انطاكية فاخذت على ناحية نفزاوة، ومعي صاحب لي، فاخذنا على طريق بشري حين صدرنا من نفزاوة الى تيقيوس (9) فلما توسطنا السبخة، اذا بخيل في مقابلتنا، لا نستطيع الهروب ولا نجد ما يسترنا عنهم، فاخذنا اليهم الطريق، فاخذوه الينا.

فلما وصلنا اليهم، حلقوا علينا، وكنت اقرأ الايات التي علمنيها الجني، وكان على تلك الخيل امير، فتكلم الينا، فتطلع وتصعد فينا ببصره من فوق الى اسفل، حتى غشيني لعاب فرسه، والكساة الانطاكية على كتفي.

فسألنا: من انتم؟ فقلنا له، تلامذة. فقال، امضوا على طريقكم راشدين.

قال فمضينا، وكنت توقعت ان يقول لي، دع الكساة، فخلصنا الله منهم، فكانت تلك الحصباة معنا حتى وصلنا بها الى بلاد مكة، ولم يوكل لي مقدار قيد قط.

وذكر يعقوب بن ابي القاسم ان ابا الحسن، افلح (10) كان تعلم عند حمو بن اللؤلؤ واستقضته بنو ورتيزلن برأي الشيخ ابي عبد الله، محمد بن بكر، رضى الله عنه، فمكث فيهم سنين عدة قاضيا عليهم يحكم بينهم بالعدل، ووفعوا فيه عند الشيخ، وكثرت الشكوى في امره.

فلما طال ذلك، بعث الى جماعة عزابة بني ورتيزلن وغيرهم من اهل تلك الناحية، فاجتمعوا عليه، وحلقوا حلقة، وسكتوا طويلا.

فقال لهم الشيخ، لم سكتتم (وقد) اشتكيتم بأبي الحسن. فقال قائلهم، ان ابا الحسن يحكم بين بعضنا ولا يحكم بين بعضه.

فقال الشيخ، يا ابا الحسن، اكان ذلك؟ قال له، نعم. ثم قال لهم الشيخ، ثم ماذا؟ قالوا حكم على رجل بصداق امرأته بغير اقرار ولا شهادة.

فقال له الشيخ، اكان ذلك يا ابا الحسن؟ فقال له، نعم.

فقال لهم الشيخ، ثم ماذا؟

قالوا اختصم عنده رجلان في امر الشفعة، فأبطلها الشفيع الذي ادعاها، فقال له الشيخ، اكان ذلك، يا ابا الحسن؟ قال نعم.

قال لهم الشيخ، ثم ماذا؟

قالوا مات رجل من بني ورتيزلن بقرية يقال لها عين الحمار، فاكل وصيته. فقال له، اكان ذلك يا أبا الحسن؟ فقال له، ساخبرك بما فعلت فيها. ثم قال لهم، ثم ماذا؟ فلم يجدوا ما يزيدونه ولا ينقصونه.

ثم قال ابو الحسن، يا ابا عبد الله، هل يثبت الحاكم الخصومة في ارض المشاع؟ فقال له الشيخ، لا.

فقال له ابو الحسن، ان هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد، شهد عندي خيارهم ان ما بين الموضع الفلاني الى الموضع الفلانى، لبنى ورتزلين، فوقعوا فيه، فصاروا يعمرون في ذلك المشاع، وهم الذين لم اثبت الخصومه بينهم.

ثم قال ابو الحسن، ما تقول، يا شيخ في رجل اقر بالنشوز، هل يحكم عليه بالصداق؟ قال الشيخ، نعم. فقال له ابو الحسن، اختصم عندي الخير بن فار وامرأته تزوراغت، فاقر الخير بالنشوز، فحكمت عليه بصداق امرأته.

ثم قال ابوالحسن، ما تقول، يا شيخ، في نخلة نبتت في مجرى العامة، هل يحكم فيها القاضي بالشفعة لبعضهم دون بعض؟ قال الشيخ، لا.

فقال له ابو الحسن، ان رجلين اختصما عندي في نخلة على مجرى العامة، فطلبها رجل من تلك العامة بالشفعة ممن اشتراها من صاحبها، فلم احكم له.

ثم قال، اما امر الوصية، فان الرجل الذي مات من بني ورتيزل قد استحلف امرأته على وصيته، فجاءتني في امر الوصية، فقالت لي: ارسل معي من يعلمني كيف انفذ الوصية، فارسلت معها الصبي، وهو ابني، وبلغني انها تصدقت عليه من تلك الوصية بربع شاة لحم، فلم اره ولم اكله.

ثم قال، يا شيخ، لي اليك كلام اريد ان ابلغه. فقال له الشيخ، دع عنك كلامك، فحلف له ان لا يدخل قضاهم من حين ذلك الى سبع سنوات. فصاح عليهم الشيخ فتفرقوا كل في جهته

فقال الشيخ ليعقوب بن ابي القاسم، ادرك ابا الحسن واردده.

قال، فادركته، ومضى مع الشيخ الى الغار، فقال الشيخ ليعقوب، انتظرني و(كان) ذلك في اول الليل. فانتظرته حتى اصبح، فلم يخرج، ثم الى غروب الشمس، فلم يخرج، ثم حتى الصباح، فخرج الي.

قال يعقوب، فقمت اليه، فقال لي، من هذا؟ ثم قال، وانت قاعد هنا الى الان؟ فقلت له اجل.

فتودع الشيخ مع ابي الحسن، ثم قال لي، منذ دخلت عنك الى وقتي هذا لم يفتر لساني عن مسائل الاحكام ولم ينقطع سؤاله، الا اذا قمنا الى الصلاة. فلا يقوم بسؤال العالم الا العالم مثله. ثم قال: هيهات، ان جيرانك يتصارعون مع من لا يقدرون له على شيء.

وحدث محبوب بن ابي عبد الله السدراتي، رضى الله عنه ان الشيخ ابا عبد الله وصل الى احروان (هو) واصحابه ذات مرة، واحضرت لهم موائد الطعام، فوضع الشيخ يده على المائدة التي وضعت بين يديه، فوجد عليها ودك عجز شاة من اللحم، ثم قال لرجل بجنبه، قم وتأمل الموائد، ان كان عليها مثل ما على هذه.

فقام الرجل ففتشها، فلم يجد عليها مثل ذلك، فرجع فاخبره، فقام الشيخ، فترك الطعام.

وبلغنا عنه حين خرج من وارجلان، وصل الى تين بامطوس، (حيث ارسل اليه رجل من ورجلان باللفائف وشيء من الجمار، فأبى اخذ اللفائف، وقال: هذه ترجع الى صاحبها، فردها وقال: وما نحن والهدايا؟ فاكل الجمار.

وذكر علي بن يعقوب السيتتني، قال، رأيت في منامي بعد موت الشيخ اني اتيت الى تين يسلي وسألت عائشة، زوج الشيخ عنه، فقالت قد خرج. (وبينما نحن) (11) في ذلك، اذ اقبل على فرس حسن ادهم، فنظرت اليه اكحل العينين ناعم الوجه، فقال لي، امض بنا، فقلت له، يا شيخ، عاد لست بماض. فقال الشيخ، تركته للناقضين الذين يموت الدين على ايديهم، ثم توجه الى ناحية المشرق.

وبلغنا عنه انه ارسل محبوب بن الشيخ وابا بكر بن محمد، رضى الله عنهما ليشتريا له خادما، فاشترياها له، فلما علم صاحب الخادم لمن يشتريانها، نزع لهما من الثمن خمسة دنانير، واشترياها واتيا بها الشيخ، واخبراه خبرها وما فعل صاحب الخادم في الخمسة دنانير، فردها وأبى اخذها، تحرجا منه، رضي الله عنه.

(1) هنا تنتهي الصفحات المحذوفة في الترجمة الفرنسية.

(2) راجع وصف الجغرافيين العرب في مختلف العصور.. في كتابنا. المدن المغربية في الادب الجغرافي العربي.

(3) وادي ميزاب. تقع منطقة ميزاب على مسافة 600 كيلومتر جنوب مدينة الجزائر. ويبلغ ارتفاعها على مستوى البحر 566 مترا. والمنطقة اراضي صحراوية لا تتلقى سوى امطار قليلة. وفيما عدا ثروة

متواضعةمن النخيل. فهي لا تعرف الزراعة ولا تنتج اراضيها سوى الكلا الضعيف. وهذه العوامل المناخية، وبعدها حتى عن مناطق العمران الصحراوية (يبعد وادي ميزاب عن عاصمة الأغواط التي كان يتبعها اداريا بـ190 كيلومتر)وعدم وجودما يغري الغازة بها او يهيء الظروف الملائمة للاقامة بها. هي التي راعاها الاباضيون الاوائل حينما قرروا الاستقرار في هذه الناحية. عقب جلائهم عن تيهرت ومطاردة العبيديين لرجال المذهب في اوائل القرن الرابع الهجري. واغلبية سكان المنطقة (مثل سكان نفوسة وجربة) من البربر الذين ينتمون الى مختلف بطون زناته. وقد ظهر العمران في وادي ميزاب في مبدأ الامر في شكل تجمع سكني في عدة جهات متفرقة وفي احقاب مختلفة. كما تشهد بذلك خرائب «بوكيا» و«ترشين» و«تلات ويزقن» . وقرية الصوفة (اغرم نتلزضيت) وقرية «اولوال» في العطف و«بنورة» القديمة. وبقايا قرية «اتميزارت (اغرام انوادي) بمليكه و«اغرم انياب السعد بغرداية.

وميزاب يتكون من سبع مدن صغيرة. خمس منها انشئت على وادي ميزاب في فترات متقاربة منذ سنة 402 هـ، 1012م وهو تاريخ تأسيس العطف. وفي سنة 474هـ. است غرداية. والمنطقة ظلت تحتفظ باستقلال داخلي في مختلف العصور قبل الاتراك. وبعد قيام الحكم العثماني دخلت في اتفاقيات معهم في عهد محمد عثمان باشا (1190هـ = 1785م).

(4) يمكن ان تقرأ الكلمة في الاصل: هيركين.

(5) كذا ضبطه ياقوت. وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط. حدها الاعلى متصل ببغداد. وفيها عدة بلاد متوسطة. والنهروان ايضا مدينة يشقها نهر النهروان بنصفين في وسطها. . وصفها ابن حوقل بانها مدينة صغيرة عامرة تبعد باربعة فراسخ عن بغداد. راجع وصف النهروان في صورة الارض لابن حوقل (ص218ـ219)معجم البلدان (5/324ـ327). وفيما يتعلق بموقعة النهروان بين علي (ض) والخوارج. راجع تفاصيلها في الكامل لابن الاثير (3/334ـ346).

(6) سبقت الترجمة له راجع اعلاه.

(7) راجع اخبار ابي عبد الله ويعقوب بن ابي القاسم في طبقات الدرجيني (2/377). وقد وصف الدرجيني ابا عبد الله الذي يصنفه ضمن علماء الطبقة التاسعة (سنة 450ـ500هـ) بانه «طود تطاولت دونه الاطواد والبحر الذي لا تقاس به الثماد.. بيت اهل المذهب. اسس قواعد السيرة. وله في كل فن تاليف كثير.

(8) في الاصل: خالية.

(9) وصف الادريس تيقيوس (تقيوس) بانها مدينة تبعد عن الحمة بنحو عشرين ميلا. وهي مدينة عامرة لها غلات الحناء والكمون والكروية وبها نخل وتمر حسن. وجملة بقول طيبة ناعمة وبين تيقيوس وقفصة مرحلة. الادريسي (ص 104).

(10) راجع طبقات الدرجيني (2/381) الذي نقل معظم اقوال ابي زكرياء في هذه الفقرات. وقد خصص الشماخي بضعة اسطر في سيره للحديث عن ابي الحسن افلح المادغاسني. وقال عنه انه كان «شيخا عالما واماما حاكما. اخذ العلم من الشيخ حمو بن اللؤلؤ. وكان صديقا لابي عبد الله محمد بن بكر» راجع السير (ص518ـ519).

(11) في الاصل: وكيف.

اخبار الشيخ ابي الربيع، سليمان بن يخلف المزاتي (1) رضى الله عنه

وكان ابو الربيع، سليمان بن يخلف ممن تعلم عند الشيخ ابي عبد الله محمد بن بكر، رضى الله عنه. فلما تعلم عنده الاصول وبلغ بها مبلغا عظيما، توجه نحو جربة. فلما انتهى اليها يريد تعلم الفقه عند مشائخ بني يهراسن. أبي محمد، وأبي زكرياء، ويونس، وابي بكر بن يحيى، رضى الله عنهم. وجدهم في زمان الاشتغال وتكلموا فيما بينهم الا يدعوه وحده في المسجد. فاتفق رأيهم على ان يعملوا له كل يوم من يقعد معه، فكانوا يتداولون عنده يوما فيوما، وكان يستفيد من كل واحد منهم.

ثم ان التلامذة قصدوا الى ابي محمد ويسلان ليتعلموا عنده الفقه وكانت الحلقة عليه وكثروا وكان فيهم من يتعلم عند الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابي بكر، رضى الله عنه مسائل الحجة والنظر في الاصول ويريد تعلم الفقه. فقصد عند ابي محمد ويسلان (عدد) منهم ابو الربيع، سليمان بن يخلف، ويعقوب بن يغلي، ومصالة بن يحيى (2) ممن اجتمعوا من بلاد شتى، فكانت مشائخ بني يهراسن يجتمعون اليهم يعينونهم ويؤيدونهم على عزمهم (تعلم) علم الكلام، وهم اولاد الشيخ ابي زكرياء والشيخ ابي بكر بن يحيى.

ثم ان المشائخ المذكورين من بني يهراسن اهتموا بهؤلاء الفتيان الذين ارادوا تعلم علم الكلام، فارسلوا الى النفر الذين تعلموا عند الشيخ ابي عبد الله محمد بن بكر، رضى الله عنه، رسولا يرغبهم في القعود للفتية الذين ارادوا علم الكلام ويحببونهم اليهم.

فلما وصل اليهم الرسول، اخبرهم بما ارسله اليهم به الشيخ وبمراده، فتكلم احدهم، فقال انما جئت لا تعلم عند الشيخ ابي محمد ويسلان ولم ات لاعلم غيري. وقال له الاخر، مثل ذلك.

فقال لهم ابو الربيع، رضى الله عنه، اما أنا، فلا اشترك معكم في هذا الرأي.

فرجع الرسول الى المشائخ، فاخبرهم بما قال كل واحد منهم.

ثم ان المشائخ اجتمعوا بالفتية فاخبروهم بجواب القوم. فقال لهم ابو القاسم يونس بن ابي زكرياء، رضى الله عنه، خذوا في عزمكم ولا تطلبوا الراحة وتمثل لهم بقول الاولين.

ثم ان الفتية اجتهدوا غاية الاجتهاد، وكان المشائخ يحضرون مجالسهم، والشيخ ابو الربيع يأتيهم اذا قامت الحلقة عن الشيخ ابي محمد ويسلان، رضى الله عنه، فيجد مصباحهم يتلالأ.

وكانوا كذلك برهة من الدهر، وقعودهم ابا بيز سجهان (؟) ولها شجرتان من الحروف (؟).

وكانت القبلية موضع حلقة ابي محمد ويسلان، والشمالية بها اصحاب الكلام والحجة.

ثم انتقلوا الى المسجد الكبير، وكثر اصحاب الكلام، فاجتمع اليهم من اهل البلد وغيرهم كثير.

فلما رأى الشيخ ابو محمد كثرة اصحاب الكلام وقلة اصحابه، انتقل بمن يتعلم عنده الفقه الى بيت قبالة المسجد الكبير، وكانوا يتعلمون فيه.

وكانوا على حالهم ذلك حتى ارادوا الخروج الى الجبل، فخرجوا كلهم.

فلما رجعوا من الجبل، قصد ابو محمد الى جربة، وقصد الشيخ ابو الربيع الى تمولست، فاجتمعت جموع زنزفه وزناتة ولماية، فايدوا الشيخ بما قدروا عليه، فمكثوا فيها ما شاء الله، وكانت تمولست طريق الغرب في الغرب من طرابلس الى افريقية، وكانوا في خوف شديد. فبلغ ذلك ابا القاسم يونس بن ابي زكرياء، رضى الله عنه، فأرسل الى الشيخ ابي الربيع وتلاميذه رجلا قاصد اليهم، فحجر عليهم الا يقعدوا في تمولست من اجل الخوف، فقالوا: نحن في امان، وسليمان وتلاميذه في خوف. فتفرق من كان مع الشيخ ابي الربيع، سليمان في لماية وجبال زنزفة لئلا يكسروا نهي الشيخ ابي القاسم.

ثم انهم اجتمعوا عليه بعد ذلك ومضى بهم الى جبال زنزفة، وقصد بهم الى قلعة بني علي، وكانوا في غار، فكثر التلامذة حتى (لم يعد) يسعهم الغار الواحد، فانتقل بعضهم الى غار اخر، فكان الشيخ ليلة عند هؤلاء وليلة عند هؤلاء.

ثم انهم ارادوا زيارة اهل دعوتهم، فارسلوا الى اهل جربة في ذلك، فلحقهم بعضهم قبل ان يخرجوا من الجبل، فصاروا حتى وصلوا الى قسطالية، وذلك بقية سنة تسع واربعين واربعمائة، ووصلوا قنطرارة فخرجوا منها، وكان معهم رجل من نفطة خرج من مذهبه الى اهل الدعوة، واسمه عمران بن علي. بلغني عنه انه قال للشيوخ، وددت لو انكم ركبتم البغال كلكم، فجاء ذلك الرجل المسمى الى ابي الربيع بكسوة ليلبسها، فأبى ان يأخذها. وسار الشيخ ومن معه حتى وصلوا الى أسوف، فأراد اهل أسوف ان يلزموا المشائخ عندهم، فقال الشيخ خليفة بن عمارة، خفت ان يقطعوا بنا وان يحبسونا، ولا يصيبوا هنا الا ما يكرهون.

وقال الشيخ ابو الربيع، اصبروا حتى يأتي اقوام مرادكم على مرادهم.

فمكثوا في أسوف ما شاء الله، ثم خرجوا منه فساروا حتى وصلوا الى وغلانه، فاخذوا منه حتى وصلوا الى تماسين، فاستعجل المشائخ المسير.

فتعلق اليهم اهل البلد في القعود عندهم.

فلما نظر الشيخ ابو عبد الله محمد بن بكر، رضى الله عنه الى تعجيل الشيوخ وكراهيتهم للقعود، قال لاهل المنزل، مهلا عليكم، ليس شيء احب الى نفسي من ان يأكلوا طعامي. وموافقتهم احب الي من ذلك.

قال ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، لخليفة ابن عمار، هذا الذي اقول لك في أسوف.

ثم ساروا من عندهم، فكل من ساروا عليه وجازوا به من المشائخ جاءوا به، حتى وصلوا ورجلان.

فلما قربوا من حيز ورجلان، اجتمع المشائخ ومن معهم من التلامذه، ونهوا عن فعل ما لا يليق، فحدوا لانفسهم حدودا، الا يتكلموا في امور اهل ورجلان الا على وجه الزيارة، من المواعظ والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاقامة بحق الله تعالى. فنهوا عن الاخلاق الدنيئة واخلاق السوء، وكل ما يدنس دين الله وما يجر الى تدنيسه من المطامع.

فلما وصلوا الى ينجوسا، اجتمعت اليهم جموع اهل ورجلان وخيار اهل الدعوة، حتى قال قائل، لم يجتمع من اهل الدعوة ومن الاخيار، مثلما اجتمع هذه المرة في بلد من البلدان في ذلك العصر.

وكانت مشائخ تين بامطوس، اشتكوا الى المشائخ امر خليفة بن برارة، وانه منع الحق عنهم ويفعل الباطل (وكذلك) اشتكوا اليهم اشياء (اخرى) كثيرة.

ثم ان خليفة خرج الى الشيوخ ومعه من بني باجين جماعة، أبت جماعة المشائخ مصافحتهم، فصار يتوب أمامهم، ونزل عن دابته.

فلما وصلوا الى طرف السبخة، طلبهم بالدخول و(قال لهم) انه سيفعل ما يريدون، فاشترطوا عليه ان ينزلوا بطرف المنزل. حتى يرضيهم من نفسه، فنزلوا على عين بحد المنزل. فنحروا لهم ثلاث نوق، وانتظروا خليفة ان ياتيهم ليعطيهم الحق من نفسه، فلم يأتهم وامتنع عن اعطاء الحق، فخرجوا وتوجهوا نحو وارجلان، فلما وصلوا السبخة التي وراء بعون، تلقاهم جموع اهل ورجلان، كلهم، بامرائهم وسلاحهم وهيئتهم، (وكذلك تلقاهم) من يليهم من منازل وارجلان بعدة عظيمة عجيبة، حتى قال قائل منهم، لم ار مثل هذه العدة في صنهاجة ولا في غيرها، فقصدوا مسجد الشيخ ابي صالح جنون بن يمريان، رضى الله عنه، فاخذوا على منازل سدراته اجمع.

فاذا دخلوا منزلا، اجتمع اليهم اهله، فيأمرونهم بالمعروف واتباع سيرة اوائلهم وباقامة حقوق الله عليهم.

وكان ذلك حالهم من ورجلان (حتى خرجوا) متوجهين الى بلادهم، فاخذوا على ناحية.

وقد كان الشيخ ابو القاسم سليمان بن موسى، رضى الله عنه، حين سمع بخبر الشيوخ مقبلين الى وارجلان، ارسل الى غنمه باندرار و(كان) له بها غنم كثير، وامر رسوله ان يأتي بأسمن غنمه، فوصل الرسول الى اندرار، فتباطأ في سيره ولم يأت حتى خرج المشائخ من وارجلان.

(وبعد وارجلان) نزلوا البكرات، فأخذهم المطر بها ولم يتجه لهم السير، فمكثوا حتى جاء رسول الشيخ بالغنم، وقد اختار ما كان فيها سمينا.

فلما وصلهم، اخذوها وذبحوها واكلوا، ودخلت عليهم سنة خمسين واربعمائة من التاريخ في البكرات.

مضت جماعة الشيوخ متوجهين الى بلادهم، فلما جاوزوا حد سماطس، (توجه من كان يقيم) بقسطالية اليها وما وراءها، وتوجه الطرابلسيون الى بلادهم، ومضى ابو الربيع سليمان بن يخلف، رضى الله عنه، الى زنزفة.

ثم ان الشيخ، انتقل من الجبل الى تمولست. ثم ان التلامذة طلبوا ان يدون لهم ديوانا من تأليفه، ووضعه، فلم ينعم لهم بذلك. فمكثوا دهرا طويلا يراودونه على ذلك، وهو يأبى لهم، فالحوا في الطلب، فما زال حتى انعم لهم واجابهم الى ذلك، على كره.

ثم ان ابراهيم بن ابزاهيم (3) رأى رؤيا ان جماعة التلامذة اخذوا الشيخ ابا الربيع فنقبوا صدره، فنزعوا منه قصعتين من عسل. فلما انتبه من منامه، هاله ذلك واقلقه حتى ظن بالشيخ انه يموت عن عجلة قبل ان يصنع لهم شيئا.

ومضى الى قابس، فسأل عن معبر الرؤيا، فاطلع عليه. فلما راه سأله عن رجل اخذ قوم ينقبون صدره فاستخرجوا منه قصعتين من عسل.

فقال له المعبر، ان كان تاجرا صاحب مال، فانه يستخرج منه المال كرها. فقال له ابراهيم، ليس بصاحب مال.

فقال له المعبر، ان كان عالما، فيستخرج منه العلم كرها. قال له، ذاك. فرجع ابراهيم الى الشيخ والتلامذة فاخبرهم خبر الرؤيا وما كان من شأنها، فالحوا على الشيخ في الطلب في تنظيم المسائل، فاخذ كبير تلامذته الواحا فافترقوا على تأليفه. فاذا قام من مجلسه، وقد نظم لهم فنونا من العلم، يؤلفون كل ما جاز في مجلسه، حسبما سمعوا منه.

فلما استفضوا كثيرا من مجالسه وقد الفوا الواحا كثيرة، اتوا بها فعرضوها عليه، فطائفة منهم اسقط الواحها كلها، وطائفة اسقط كثيرا منها، وطائفة اثبتها. ثم عرضوها عليه مرة بعد مرة، ومكثوا زمانا يعرضون عليه (الالواح) ينقص ويزيد منها، حتى حققها وامر بتدوينها.

فكانا دفترين يقال لاحدهما الاول، وللثاني، الثاني.

ومكث الشيخ وتلامذته في تمولست، ما شاء الله، ثم خرجوا منها، وكانوا عرضوا الكتب على الشيخ ابي عبد الله، محمد بن سدرين، فلم يزد فيها الا حرفين.

ومضى سائر التلامذة الى الجبل، وبقيت منهم بقية، فلما كان اوان رجوع التلامذة من الجبل، رجعوا الى تمولست فمكثوا (فيها) سنتهم.

واتصلت الاخبار الى الشيخ وتلاميذه ان منجا بن عقيل اراد اغتيالهم، وارسلت بذلك بنو يهراسن الى الشيخ. فكانوا كذلك الى ذات يوم غدوة، عند فراغهم من الصلاة، فطائفة اخذوا في القراءة، وطائفة لم يأخذوا بعد في القراءة، اذ سمعوا صيحة حول تمولست، ابتدرت التلامذة اليهم بالرماح، فجاز بعضهم على بعض. فلما وصلوا الصيحة، وجدوا منجار بن عقيل في خيل مغيرة على اهل تمولست وقتلوا رجلا من التلامذة يقال له زيري الرنداجي، فهربت التلامذة الى الغار، فلما وصلوا الى باب الغار، تراموا عليهم، فانحجروا فيه، والشيخ ابو الربيع خلفهم، فادركه العرب ونزعوا كسوته وجرحوه، رحمة الله عليه، ثم انتقلوا بعد الى موضع يقال له توتير، فنزلوا فيه بالخيل، حتى صار منزلا ومأوى للعزابة، فجرى فيه العزم والاجتهاد أجلَ قدره الله، حتى فشى خبره وسمع ذكره في الخير، فاحيوا فيه السنن واقاموا سير من كان قبلهم من اهل الدعوة، حتى توفي فيها ابو الربيع، سليمان بن يخلف، رضى الله عنه وعنهم اجمعين، وغفر لهم ولنا وتاب عليهم وعلينا انه هو التواب الرحيم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد واله.

انتهى الكتاب

(1) ترجم له الدرجيني في الطبقات وصنفه ضمن الطبقة العاشرة (سنة 450-500) ووصفه بانه «الاصولي الفقيه. الزكي النبيه... وخرج من تلامذته كل نجيب. وقيد عنه كل جواب مصيب». واكثر ما ذكره عنه منقول عن ابي زكرياء. راجع الطبقات (2/425-429) ومثل ابي زكرياء. روى عنه ابو الربيع الوسياني كثيرا مما اورده في سير مشائخ المغرب (النسخة المحققة 2/69) وقال ان ابا الربيع سليمان توفي في سنة471هـ. وهي السنة التي ذكرها الدرجيني ايضا لوفاته . واما ابو زكرياء الذي يسجل وفاة ابي الربيع. في هذه الترجمة. فانه لا يذكر سنة وفاته. وانه لمن غرائب الصدف ان هذه هي السنة التي توفي فيها ابو زكرياء نفسه. وكذلك خصص الشماخي مكانا بارزا في سيره لترجمة ابي الربيع سليمان بن يخلف. راجع السير (ص 412 وما يليها).

(2) ترجم له ولفلفول بن يحيى الدرجيني في الطبقات (2/451-453) وقال ان لكل واحد من هذين الشيخين «مآثر وفضائل مخلدة في بطون الدفاتر» وكذلك ترجم له الشماخي في السير (428-429) ولكن معظم مادته ماخوذة من طبقات الدرجيني.

(3) راجع اخباره في طبقات الدرجيني (2/413 و428 و439).

المراجع

1 - المراجع العربية للتحقيق

أ- الاباضية في الجريد لصالح باجية، تونس 196.

الاباضية في موكب التاريخ، لعلي يحيى معمر، 3 اجزاء، القاهرة 1964.

آثار البلاد واخبار العباد لزكرياء، بن محمد القزويني، بيروت 1969.

الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية لسليمان البيروني، المطبعة البيرونية (الجزء الثاني)، بدون تاريخ.

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الاثير، في خمس مجلدات، مصر 1280هـ.

الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، 4 مجلدات، مصر 1358هـ.

اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام للسان الدين بن الخطيب، تحقيق احمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني، الدار البيضاء، 1964.

الاغاني لابي الفرج الاصفهاني، طبع الساسي في 21 جزء، مصر، 1353.

أمالي المرتضى للشريف علي بن الحسين العلوي، 4 مجلدات، طبع مصر، 1325.

الانوار السنية في نسب من سجلماسة من الاشراف (مخطوط محفوظ بالخزانة العامة بالرباط).

الانيس المطرب القرطاس لأبن ابي زرع، طبعة حجرية، فاس 1305هـ.

ب - البدء والتاريخ المنسوب لاحمد بن سهل البلخي، 6 اجزاء، طبع شالون، 1916
بغية الرواد في ذكر الموك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون، تحقيق الفرد بيل، مجلدان، الجزائر، 1903 .
البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، 4 اجزاء بيروت، 1948.
البيان والتبيين للجاحظ، 4 اجزاء، مصر 1367-1369.

ت - تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي، في عشرة مجلدات، طبع مصر، 1306-1307.
تاريخ الامم والملوك لابن جرير الطبري في 11 جزء، طبع مصر، 1326هـ.
تاريخ ابن الصغير المالكي، طبع وتحقيق المستشرق دوموتلينسكي، اعادة الطبع في - Les Cahiers de Tunisie (Tome XXIII) 1975
تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس، لحسن بن محمد الدياربكري، طبع مصر، 1283.
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية لمحمد بن ابراهيم اللؤلئي المعروف بالزركشي، طبع تونس 1289هـ.
تاريخ الفتح العربي لليبيا للطاهر الزواوي، طبع ليبيا.
تاريخ اليعقوبي لاحمد بن اسحاق اليعقوبي، 3 اجزاء، طبع النجف 1358.

ج - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس للحميدي، طبع مصر، 1952.

ح - حاشية الجامع الصحيح، تأليف عبد الله السالمي طبع مطبعة الازهار البيرونية.
الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية للسان الدين بن الخطيب (؟) طبع تونس، 1911.
الحلة السيراء لابن الابار، في جزاين، طبع القاهرة، 1963.
حلية الاولياء وطبقات الاصفياء لابي نعيم الاصبهاني في عشرة مجلدات، مصر، 1351هـ.

د - الدرر البهية والجواهر النبوية لادريس بن احمد العلوي، في مجلدين، طبع حجري، 1314.
الديارات للشابشتي، بغداد، 1951.
دائرة المعارف الاسلامية، الطبعتين الفرنسية والانجليزية.

ذ - الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لعلي بن بسام، 3 اجزاء، طبع القاهرة، 1358-1364هـ.

ر - رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار) طبع مصر، 1322هـ.
رحلة التيجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس 1958.
رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد، تحقيق وداد القاضي، طبع بيروت، 1970.

ز - زهرة الآس في بناء مدينة فاس للجزناتي، طبع الجزائر، 1923.

س - سلم العامة والمبتدئين لعبد الله بن يحيى البيروني، طبع مصر، 1324هـ.
سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس فيمن اقبر من العلماء والصالحين بمدينة فاس، لمحمد بن جعفر الكتاني، طبع فاس، 1316.
السير لاحمد بن سعيد الشماخي، طبعة حجرية (قسنطينة؟).
سير مشائخ المغرب لابي الربيع الوسياني، تحقيق اسماعيل العربي.

ش - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ٨ اجزاء، القاهرة 1350هـ.

ص - صبح الاعشى في صناعة الانشاء لابي العباس القلقشندي، 14 جزا ، طبع مصر 1331 - 1338
صفة المغرب وارض مصر والسودان للشريف الادريسي ، تحقيق دوخويه ودوزي ، ليدن 1866 .

ض - ضحى الاسلام لاحمد امين في ٣ اجزاء طبع دار الكتاب العربي، بيروت.

ط ـ طبقات المشايخ بالمغرب لاحمد بن سعيد الدرجيني في جزأين، تحقيق ابراهيم طلال، طبع قسنطينه. 1974.
طبقات بن سعد، 8 اجزاء، طبع ليدن 1321هـ.

غ ـ غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين الجزري، في مجلدين، طبع مصر 1951.

ف ـ فتوح مصر واخبارها لابن عبد الحكم، طبع مصر، 1914.
فجر الاسلام لاحمد امين، طبع بيروت.

ق ـ قلائد العقيان للفتح بن خاقان، طبع باريس 127هـ.

ك ـ الكامل لابن الاثير، 12 جزءا، تحقيق طور نبرج، اعادة الطبع ببيروت، 1965.
الكامل في اللغة لابي العباس المبرد في جزأين، طبع مصر، 1333هـ.
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار للكاتب المجهول، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، طبع الاسكندرية 1958.
كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي، تحقيق ونشر اسماعيل العربي، بيروت 1970.
كتاب العبر لابن خلدون، طبع بولاق، 7 اجزاء 1284.
كتاب الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى، طبع القاهرة، 1312هـ.
كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، لأبي عبيد البكري تحقيق دوسلان، طبع باريس، 1965.

م ـ مختصر كتاب البلدان لابي بكر الهمذاني، تحقيق دوخوية، ليدن 1885.
المختصر في اخبار البشر للملك المؤيد اسماعيل ابي الفدا، طبع بيروت، 4 اجزاء.
مرآة الجنان وعبرة اليقطان لمحمد بن عبد الله ابن سليمان عفيف الدين اليافعي، طبع بيروت، 1338
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع لعبد المؤمن بن عبد الحق في ثلاثة مجلدات، طبعة ليدن 1852-1854.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، في 9 اجزاء، طبع باريس، 1861.
المقتضب من تحفة القادم للبلفيقي، طبع بيروت.
معالم الايمان في معرفة اهل القيروان لعبد الرحمن بن محمد الدباغ 4 اجزاء، تونس 1320.
معجم البلدان لياقوت الحموي 8 اجزاء، طبع مصر 1323-1325هـ.
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحالة، ثلاثة اجزاء، دمشق، 1949.
معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس، طبع مصر، 1928.
الملل والنحل للشهرستاني لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني في ثلاثة اجزاء، طبع مصر، 1317-1320.
المؤنس في اخبار افريقية وتونس لابن ابي دينار، تونس 1967.
ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي في 3 مجلدات، طبع مصر 1323.

ن ـ نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب لاحمد المقري، تحقيق احسان عباس، طبع بيروت، 1968.
نهاية الارب في معرفة انساب العرب للقلقشندي، طبع بغداد.
نهاية الارب في فنون الادب للنويري، طبع منه في مصر 21 جزءا.

و ـ وفيات الاعيان وانباء الزمان لابن خلكان، في 8 مجلدات، تحقيق احسان عباس، طبع دار الثقافة، بيروت.

2 ـ المراجع الاجنبية

مقالة «باضية» لدوموتلينكى في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الاولى)·

مقالة «اباضية» لت دوزليويك في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية)·

مقالة «الخوارج» لليفي دلافيدا (الطبعة الاولى)·

Basset (R), la Zenaha du Mzab et de l'oued Righ, Alger, 1898

Basset (R). Les Sanctuaires du Djebel Nefoussa.

Basset (R), Note sur les Chaouia de la province de Constantine, Paris, 1897

Colvin (L), le Maghreb central a l'époque des Zirides, Alger, 1957

Dureau de la Malle, Esquisse Générale sur l'Afrique Ancienne, Paris, 1852.

Fournel, les Berbères, en 2 vol., Paris 1875

Gautier (F), le Passé de l'Afrique du Nord, Payot, 1952

Marçais (G.), les Arabes en Berbérie, Paris, 1913

Motylinski (A. de), les livres de la secte Abathite

(مجموعة الابحاث التي نشرت ضمن اعمال مؤتمر المستشرقين الرابع عشر، ص 409 وما يليها)·

Wellhausen (I), Die Religiös-Politischen oppositionsparteis in Alten Islam, Berlin, 1901

Xavier de Planhol, les Fondements Géographiques de l'Islam, Paris, 1968

فهرس عام لاسماء الأشخاص والأماكن

أ -

ب

ت

ج

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

فهرس

طبع بمطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مطبعة احمد زبانة
الجـزائر

aujourd'hui une édition critique, suivie de notes et d'index. La Bibliothèque Nationale en assure la publication, permettant ainsi de le mettre à la disposition des chercheurs qui s'intéressent à l'histoire du Maghreb au Moyen-Age, et à l'évolution de l'Ibâdisme en Afrique du Nord.

Le manuscrit qui a servi de base à cette édition critique, est complet. C'est une copie dont l'écriture maghrébine est soignée et de lecture facile, de sorte que l'auteur de cette édition critique, n'a rencontré que des difficultés mineures qu'il a aplanies en s'aidant des sources ibâdites connues, ce qui lui a permis d'enrichir ce travail à l'aide de notes et de références, et de comparer le récit d'Abû Zakariyâ avec celui d'autre auteurs.

Quelle place occupe cet ouvrage dans la littérature ibâdite, et quelle contribution peut-il apporter à la recherche scientifique ?

Sa caractéristique essentielle est que son auteur, Abû Zakariyâ (mort en 471/1078), a vécu à une époque peu éloignée des événements qu'il relate, et que les sources de sa narration sont essentiellement orales, et remontent, par ses maîtres, aux grands savants de la secte ibadite. Il n'est donc pas étonnant que cet auteur soit entouré d'une auréole de considération, qui confine à la vénération, dans les milieux ibâdites, et que son ouvrage soit une source essentielle pour les historiens et écrivains de l'époque contemporaine.

La principale contribution qu'apporte Abû Zakariyâ à la recherche, est de premier ordre, car il nous fait connaitre un certain nombre de centres de rayonnement de l'Ibâdisme au Maghreb, tels que Guentrara, Gafsa, Ouargla, Tihart ; il nous renseigne sur l'activité qui y régnait dans les domaines de l'éducation et de l'enseignement, les controverses, l'ijtihâd, la jurisprudence, etc..., en même temps qu'il nous fournit la biographie d'un certain nombre de docteurs de la secte et de ses maîtres, et nous dépeint, en plus de leur science, leurs vertus, leur piété, leur penchant pour l'équité et la défense de la secte.

Abû Zakariyâ, suivi par Abû'r-Rabî'al Wasyânî, nous présente les biographies vivantes d'un certain nombre de savants qui furent ses contemporains, tels Sa'îd Ibn Zanjîl (Abû Nûh), et Sulaymân Ibn Abî'r-Rabî ; mort la même année qu'Abû Zakariyâ ; il nous entretient de leur enseignement, de leurs fatwâs, du rôle joué par chacun d'entre eux dans la lutte contre la domination 'ubaydite, leur souci de veiller à l'application des principes de la religion.

Les pages qu'Abû Zakariyâ a consacrées à la révolte d'Abû Yazîd, l'Homme à l'âne, sont pleins de détails intéressants et de remarques précises. Il y étudie la personnalité de ce rebelle nukkarite d'une manière objective, mentionne ses victoires éclatantes, aussi bien que son échec retentissant, avec un esprit critique, dénué cependant de toute trace de sympathie, voire même de tout essai de compréhension.

Abû Zakariyâ nous fournit parfois des détails que nous ne trouvons nulle part ailleurs, et qui se trouvent souvent en contradiction avec les versions des chroniques connues sur l'histoire des 'Ubaydites, notamment sur les débuts de cette histoire, après l'arrivée du Mahdi 'Ubayd Allâh à Sidjilmâssa. Mais la contribution la plus importante qu'apporte le *Kitàb as-siyar* est incontestablement, l'exposé relatif aux Imàms rostémides, depuis le chef de file 'Abd ar-Rahmân ibn Rustum, qui a brandi le drapeau de la secte après la mort d'Abû'l-Hattâb, vaincu par Muhammed ibn al-As'ath, jusqu'à la chute de l'état de Tihart survenue sous le régne du dernier Imâm rostémide, Ya'qûb Ibn Aflah, qui, détrôné par les 'Ubaydites, se réfugie à Ouargla. L'étude qu'Abû Zakariyâ fait de la dynastie rostémide dépasse le champ politique, pour englober des questions idéologiques ayant trait à la doctrine ibâdite, laquelle avait, depuis le règne de l'Imâm Abd al Wahhâb, à combattre sur deux fronts : contre les Nukkarites, qui sont des Kharidjites, et contre les Mu'tazilites, célèbres par leur rationalisme et la force de leur argumentation.

Alger, le 15 mai 1979

Le Kitâb as-Siyar

d'Abù Zakariyà Yahyà Ibn Abi Bakr

Le Kitàb as-Siyar d'Abù Zakariyà est demeuré inédit jusqu'à nos jours, victime de circonstances défavorables, qui ont privé ainsi la bibliothèque arabe en général, et la littérature ibâdite en particulier, d'un ouvrage important. En effet, ce livre qui fut la source principale utilisée par ad-Darjînî, ach-Chammâkhi, par l'auteur du *Kachf al-Ghummah* et, plus tard, Sulaymàn al-Bârûnî, est demeuré aux yeux des chercheurs, un ouvrage perdu. Nul n'avait connaissance de l'existence d'un manuscrit du *Kitâb as-siyar,* dans aucun pays du monde, si ce n'est une copie qui, dit-on, faisait partie du fonds oriental d'une bibliothèque en Pologne, avant la seconde guerre mondiale, mais que personne n'a retrouvée, de même que de nombreux autres manuscrits arabes précieux qui ont disparu dans ce pays, au cours de la seconde guerre mondiale.

Une autre copie, dont on connaissait l'existence, au siècle précédent, est celle que possédait Masqueray, qui l'a utilisée pour la traduction de cet ouvrage en langue française (édité en 1878). Mais cette copie a disparu elle-aussi, et l'on ignore ce qu'elle est devenue, après la mort du traducteur.

Parmi les circonstances défavorables à cet ouvrage, il y a également celles qui ont trait à sa traduction française. En effet, la copie manuscrite que possédait Masqueray comptait deux importantes lacunes l'une au milieu, la seconde à la fin de l'ouvrage, qui se trouvait ainsi amputé du tiers de son volume. Il faut ajouter à celà, que le traducteur ne possédait pas une connaissance suffisante de la langue arabe, et n'était pas rompu à la lecture des manuscrits ; il s'ensuivit de nombreuses erreurs de lecture et, par conséquent, une traduction souvent dénaturée du texte.

Malgré tout celà, les chercheurs n'ont pas cessé, jusqu'à nos jours, de se référer à la traduction française de cet ouvrage.

Ce n'est que tout dernièrement, que l'historien Ismâ'îl al-'Arabî a eu la chance de découvrir un manuscrit unique du *Kitàb as-siyar* d'Abû Zakariyâ, appartenent à l'un des cheikhs ibâdites de Ghardaia, en Algérie. Il en présente

الصفحة	الغلط	الصواب
70	ولم يعجبه منها	ولم يعجبه شيء
73	ضيع دنيا	ضيع دنياه
75	وذلك كانت	وذلك لأنه كانت
77	(9)	(6)
79	الناس موته	الناس بموته
80	الامام الى خلف	الامام كتابا الى خلف
81	حزوة	حوزة
84	(هامش 2) : بزيادة الراء	بزيادة الياء
89	عند فنون	عنده فنون
93	عظيمة والفهم	عظيمة وفى الفهم
98	المخالفين كتبا	المخالفين كتب
	وستذكر ذلك	ستذكر ذلك
116	مكثل	مكث
119	« يزيد بن مخلد »	كلمةزائدة بعد:«انأبا القاسم»..
122	(هامش 1) Xème	Xème
123	PLANTOH	PLANHOL
124	يضافى أثرهم	يقتفي أثرهم
125	زواغة	زواغه
126	أجدوا	اجادوا
129	أبو زيد	أبو يزيد
139	لمكانته عند	لمكانته عنده
139	فرع منها	فرغ منها
145	فلما وصل الى الكتاب الى	فلما وصل الكتاب الى
148	زاب المغرب عبر	زاب المغرب غير
151	نشـ	أنشد
156	قصطاليه	قسطالية
159	قصطاليه	قسطالية
170	كمل عريب	كل عريب
170	اشتتمل	استـل
175	توزجه	توجـه
175	قصطالية	قسطالبة
188	فانحجروا	فانحجزوا

© Bibliothèque Nationale d'Algérie - Alger.

Imprimé sur les Presses de la
Société Nationale d'Edition et de Diffusion
Imprimerie ZABANA - Alger

كتاب سير الأئمة واخبارهم

لأبي زكريا يحي بن أبي بكر

جدول الاغلاط المطبعية

تم تصفيف هذا الكتاب فى الخارج وكان تصحيح التجارب يجري بالمراسلة ، وكان من نتائج صعوبات الاتصال وقوع بعض الاغلاط فى الطبع ، نوردها فى الثبت التالي :

الصفحة	الغلط	الصواب
الغلاف	تأليف لأبي	تأليف أبي
1	حدورة	حرورة ــ الحرورية
2	زاد من	زادت
6	الفوامسي	الفدامسي
7	وابو الخطاب	أبو الخطاب
«	بعدما تلقت	تلقى
		لم يكن بد من الفرار

وقع اضطراب فى التطابق بين أرقام النص وأرقام التعليقات فى الفصل الاول ابتداء من رقم (10) الذي سقط فى النص . وهكذا يصبح رقم (12) عبارة عن رقم 11 و (21) هو رقم (20) الخ .

الصفحة	الغلط	الصواب
14	(هامش 3) Bock : C. 1	Brock. S. 1 : 336
22	(هامش 11 سطر 6)	المؤرخ جوتيه قال
29	ثغلة	ثعلبة
34	محلقون الرءوس	محلقوا الرءوس
39	وأما أرض غيره	وأما من ملك أرض غيره
39	فليفد نفسه	فليدفع نفسه
40	هزموا لهم	انهزموا لهم
43	من السطر الرابع حتى رقم (9) كلام حشو أخرجه الطباع من النص بغير مناسبة .	
45	(هامش) : مات فى سنة 67 هـ	مات فى سنة 148 هـ .
49	(هامش) : والمعلومات المعروقة	الى المعلومات المعروفة
52	فحظهم على	فحضهم على
65	مقستهما	قسمتهما
66	أبو عبيده البكر	أبو عبيدة البكري
68	عبيدة	عبيده

PUBLICATIONS DE LA BIBLIOTHEQUE NATIONALE

TEXTES ET DOCUMENTS HISTORIQUES N° 3

ABU ZAKARIYA YAHYA IBN ABI BAKR

KITAB SIYAR AL-A'IMMA WA AKHBARIHIM

Texte établi et annoté par
ISMA'IL AL-'ARABI

ALGER
BIBLIOTHEQUE NATIONALE
1979

ل
ن

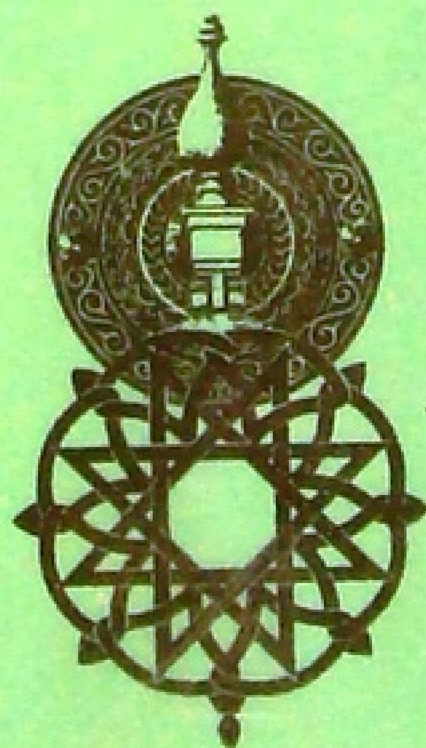
PUBLICATIONS DE LA BIBLIOTHEQUE NATIONALE

TEXTES ET DOCUMENTS HISTORIQUES N° 3

ABU ZAKARIYA YAHYA IBN ABI BAKR

KITAB SIYAR AL-A'IMMA WA AKHBARIHIM

Texte établi et annoté par
ISMA'IL AL-'ARABI



ALGER
BIBLIOTHEQUE NATIONALE
1979